أمطير سعد غيث

التأثير العربي الإسلامي

في السودان الغربي

فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر



التأثير العربي الإسلامي

في السودان الغربي

فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر

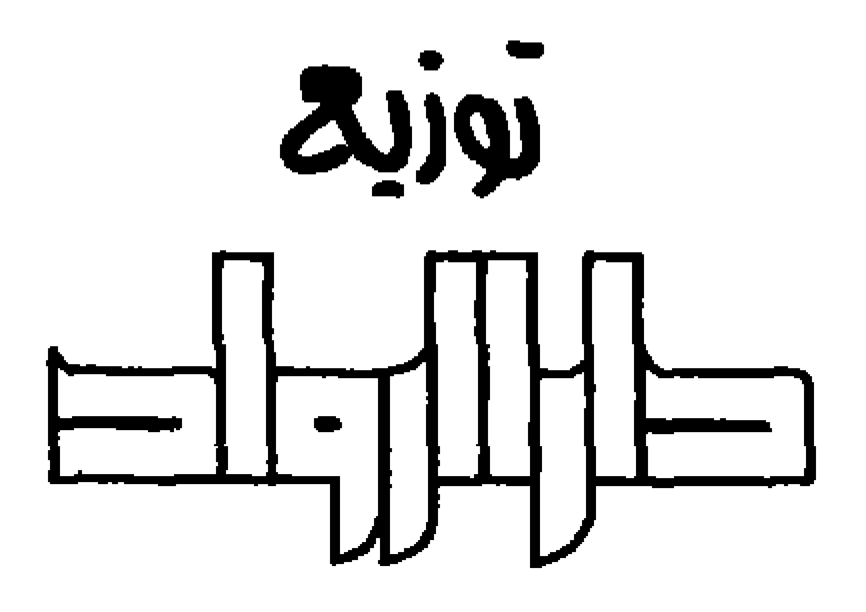
التأثير العربي الإسلامي

في السودان الغربي

فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر

أمطير سعد غيث

توزيع



رقم الايداع بدار الكتب الوطنية - بنغازى

96/1937

الطبعة الاولى

الاهــــــداء

إلى روح والدى العزيز المرحوم الحاج / سعد غيث أحمد عثمان (1918– 1996 ف) ، والذى كان معلمي الأول فى التاريخ والاخلاق وحب الوطن.

وإلى والدتي العزيزة أمّـــد الله فى عمرهـــا.

إليهمـــا...
حبـــاً واحترامـــاً ووفـــاءً
واعترافـــاً بالجميـــل.

أبنكمـا :

أمطـــير ،،،

ثبت المحتويات

التأثير العربي الاسلامى فى السودان الغر بي فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين

الفصل الثانى :-

التأثــير السياســى

الفصل الثالث:-

التأثير الاقتصادى

التمهيـــد

تؤكد المصادر التاريخية أن التواصل والتمازج والتلاقح بـين المنـاطق المعروفـة حاليـاً بالوطن العربي ، وبين افريقيا ماوراء الصحراء*، قـد أبتـدأت منـذ عصـور زمنيـة مبكـرة جداً. حيث أنطلقت الهجرات العربية من شبه الجزيرة العربية، مهد العروبة، متجهة غربـاً عن طريق باب المندب وبرزخ السويس الى مصر وعموم منطقة الشـمال الافريقـى. فإنـه من المنطقى أن تنساح هذه القبائل المهاجرة، والتى سكنت الشـمال الافريقـى الى منـاطق ماوراء الصحراء المصاقبة لها من الناحية الجنوبية، وذلك تحت ضغط الظروف المختلفة.

وقد عبرت هذه الهجرات المتعاقبة الصحراء الكبرى التى لم تكن فى يـوم مـن الأيـام عائقاً للتواصل الحضارى بين المنطقتين ، بل كانت منافذها ومسالكها وطرقها ومفازاتهـا جسراً للقوافل التجارية التى ظلت تجوب جانبيها منذ قرون عديدة.

وبديهى أن هذا التمازج والتواصـل وتصـاعد العلاقـات المختلفـة بـين شمـال القـارة وغربها، لم تصل ذروتها إلا حوالى القرن الثانى الهجرى/ التامن الميلادى، الـذى توطـدت فيه دعائم الحضارة العربية الإسلامية فى الشمال الافريقى،ومن ثم واصلت القبائل العربية هجراتهـا عبر الصحراء حاملة تعاليم العقيدة الاسلاميـة والثقافـة العربيـة ، ووجدت مـن

---

* يصر كتاب الغرب ذوو النزعة الاستعمارية على تقسيم منطقة ماوراء الصحراء الى افريقيا جنـوب الصحراء وافريقيـا شمال الصحراء ، وذلك حتى يرسخوا فكرتهم عن الصحراء الكـبرى بأنهـا كـانت ولازالـت تشـكل عـاملاً فصل بين المنطقتين الواقعتين على طرفيها. ونحن نستخدم مصطلح ماوراء الصحراء اعتقاداً جازماً - مسـنوداً بـالبحث العلمـى - بأن هذه المنطقة كانت وباستمرار منطقة واحدة متمازجة ، وان الصحراء الكبرى شكلت - وباستمرار - عامل وصـل بين السـاكنين على جانبيها ، وتشكل هذه الدراسة أحد الاسهامات فى هذا الاطار.

العناصر الافريقية الوطنية ترحيباً كبيراً ، وحدث بينهما أقوى مظاهر التمازج والتلاقح البشرى ، وتجسد ذلك فى الهجين الجديد اجتماعياً وثقافياً ودينياً.

وقد كان السودان الغربى "وهى منطقة هذه الدراسة " أكثر تأثراً بموجات هذه الهجرات التى تمتد الى ماقبل الإسلام. وقد كانت هذه الهجرات فى الغالب الأعم من قبائل صنهاجة بفروعها الثلاث : مسوفة وجدالة ولمتونة. وقد لعبت هذه القبائل دوراً هاماً فى تاريخ المنطقة خاصة بعد تبنيها للحركة المرابطية الشهيرة (القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى) ، والتى أعطت التأثير العربى المتنامى دعماً سياسياً وروحياً. وتأكدت هذه المؤثرات بتدفق هجرات قبائل بنى هلال وبني سليم التى كانت بادرة طيبة لتعريب المناطق المتاخمة للسودان الغربى ، وازدياد المخزون البشري من العناصر العربية ، والتى بمجرد انسياحها جنوباً الى مناطق السودان الغربى انصهرت مع الأهالى الوطنيين من قبائل : التكرور والسوننكى والوولوف والماندينجا والديولة والسنغاى وغيرهم.

وقد تميز التأثير العربى الإسلامى فى مرحلته الأولى بالاحتكاك السلمي وبأنه وجد طريقه الى الطبقات الاجتماعية السودانية الحاكمة والثرية ، وكان التجار العرب المغاربة والبدو دعامته. وتمثلت المرحلة الثانية فى جهاد قبائل صنهاجة الذين تبنوا تعاليم الإمام المجاهد عبدا لله بن ياسين الجزولى الذى أنشأ رباطاً على مقربة من نهر السنغال ، وسمى أتباعه بالمرابطين. وتجمع المرحلة الثالثة بين السلم والجهاد ، وترسيخ مفاهيم العقيدة الإسلامية بين المواطنين الأفارقة. وفيها انتقلت الزعامة الدينية والقيادة السياسية والاقتصادية والثقافية الى السكان الاصليين ، سواء أكانوا من السودان الخلص ، أم من المولدين الجدد الناتجين عن اختلاط الدماء العربية بالدماء الافريقية السودانية ، وقد وقع على كاهل هؤلاء عبء تأسيس مملكتي مالي وسنغاي الإسلاميتين على التوالى.

ويبدو أن المرحلة الحاسمة فى تدفق المؤثرات العربية الإسلامية على السودان الغربى هي التى أعقبت رحلة الحج الهامة التى أداها السلطان المالي منسا موسى عام (725هـ /1324م)

الى الأراضى المقدسة وقد استمرت هذه المؤثرات فى التنامي حتى سقوط مملكة سنغاي الإسلامية على يد المغاربة عام 1000هـ / 1591م.

وتوضيحاً لهذه التأثيرات في السودان الغربي خلال الفترة مابين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين ، فقد قسمت الدراسة إلى أربعة فصول وخاتمة على النحو التالي :-

الفصل الاول :- يهتم هذا الفصل بدراسة بدايات التغلغل العربي فى السودان الغربي، ويعطى لمحة جغرافية عن المنطقة وتحديدها ، وأهم الاجناس التى عاشت فيها. كما يتناول قبائل صنهاجة والآراء المختلفة حول أصلهم ، ودورهم فى دفع المؤثرات العربية الإسلامية نحو المنطقة من خلال تأسيسهم المملكة الصنهاجية الإسلامية والحركة المرابطية، واسقاطهم لمملكة غانة. كما سيتتبع تدفق المؤثرات العربية الإسلامية حتى رحلة منسا موسى الى الحج.

الفصل الثانى :- يدرس التأثير العربي الاسلامي فى مجال الحياة السياسية وكيفية تغلغله فى النظم السياسية والادارية والقضائية والحربية. كما يستعرض تطور علاقات مملكتي مالي وسنغاي السياسية مع بعض الممالك العربية الإسلامية المعاصرة فى مصر والشمال الافريقي.

الفصل الثالث :- يتناول هذا الفصل تأثيرات العرب فى المنطقة فى مجال الحياة الاقتصادية ، وذلك بالأشارة الى طرق القوافل الهامة والمراكز التجارية على جانبى الصحراء ، وأهم السلع المتبادلة ، ويتلمس التأثير فى نظم التعامل مثل : المقايضة والعملات والوكالات التجارية ، ويشرح سبل وصول التأثير العربى الاسلامي الى مجالات الزراعة والثروة الحيوانية و الحرف والصناعات وغيرها.

الفصل الرابع :- يبرز دور التأثير العربي الاسلامي فى الحياة الثقافية والاجتماعية ، مشيراً الى أهم وسائل انتشار الثقافة العربية بالمنطقة و خاصة البدو والتجار والدعاة والمعلمين والطرق الصوفية. كما يلقى الضوء على أهم المراكز الثقافية بالمنطقة ، ومظاهر

التأثير الثقافي في اللغة ونشر الاسلام وفى الفن المعماري وفى نظم التعامل. ويركز على التأثيرات فى مجال الحياة الاجتماعية من عادات وتقاليد وطقوس دينية وزي ومواكب الحج وغيرها. وقد خصصت الخاتمة لتتضمن أهم النتائج التى توصلت اليها الدراسة.

وهنا تجدر الاشارة الى أن هذا الكتاب هو في الاصل رسالتي التى نلت بها درجة الاجازة العالية (الماجستير) فى تاريخ العلاقات العربية الافريقية من كلية العلوم الاجتماعية التطبيقية بجامعة الفاتح بتاريخ 26-1-1995 افرنجي.

وقد كان هذا العمل نتاجاً للفرص التى أتيحت لي عديد المرات لزيارة بعض المكتبات والمراكز الثقافية الهامة ، والتى حصلت منها على مادة علمية هامة حول موضوع الدراسة. ومن هذه المراكز : المعهد الموريتاني للبحث العلمي بنواكشوط ، ومعهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة ، ومعهد الدراسات الافريقية والآسيوية بجامعة الخرطوم. بالاضافة الى بعض المكتبات في كل من : تونس والجزائر والمغرب ومالى والنيجر ، اضافة الى مكتبات ومراكز البحوث العلمية بالجماهيرية العظمى. وأنتهز هذه الفرصة لأقدم شكرى الجزيل وعرفاني الاخوي لكل الاخوة العاملين بالمراكز العلمية الآنفة الذكر لما قدموه لي من تسهيلات للحصول على المادة العلمية النافعة لهذه الدراسة.

كما لايسعني فى هذا المجال إلا أن أكرر شكري الجزيل الى اولئيك الذين ساعدونى بكل الوجوه فى هذا العمل منذ ان كان فكرة الى أن صار كتاباً.

ومن بينهم استاذى الكبير، الدكتور قمر الدين محمد فضل الله، أستاذ التاريخ الحديث بكلية العلوم الاجتماعية التطبيقية بجامعة الفاتح، والذى تولى الاشراف على هذه الرسالة وتولى رعايتها منذ أن كانت فكرة الى أن صارت حقيقة واقعة ، وأتاح لي النهل من فيض علمه الغزير ووعيه المنهجى الرفيع وخلقه القويم.

كما أتقدم بشكري العميق لأساتذة التاريخ بهذه الكلية الذين أستفدت كثيراً من نصائحهم ، وكذلك كل من ناقش معي فكرة هذا الكتاب وشجعني على السير فيها.

وأخيراً لاتفوتني الاشارة الى أنني أتطلع أن يكون هذا العمل فاتحة لمزيد من الدراسات والابحاث عن مظاهر التأثير العربي الاسلامي في مناطق أخرى من القارة الافريقية ، وذلك كمساهمة علمية جادة في مجال العلاقات العربية الافريقية للمحافظة على تراثنا العربي الافريقي المشترك. وأوصي المختصين في هذا المجال الى الاتجاه نحو الدراسات الاثرية وجمع وتحقيق عديد المخطوطات التي لازالت تقبع بصناديق بعض الأسر بالمنطقة كمقتنيات شخصية وعائلية يصعب التفريط فيها.

... والله من وراء القصد ...

أمطير سعد غيث

طرابلس : الجماهيرية العظمى

1996/8/2 أفرنجي

الفصل الأول

التغلغل العربى الإسلامى فى السودان الغربى حتى الربع الاول من القرن الرابع عشر الميلادى

أولا :- الأرض والسكان

ثانيا :- أهم العناصر المغربية الوافدة من الشمال الأفريقى : أصلها وموطنها

ثالثا :- التأثير العربى الإسلامى فيما بين القرنين السابع والحادى عشر الميلاديين .

1- نشر الإسلام فى مملكة غانة .

2- المملكة الصنهاجية الإسلامية .

رابعا :- جهاد المرابطين فى السودان الغربى ونتائجه .

1- الصراع المرابطى - الغانى .

2- دعم المرابطين للمؤثرات العربية الإسلامية .

خامسا:- مسار التأثير العربى الإسلامى منذ قيام مملكة مالى الإسلامية حتى رحلة منسا موسى الى الحج .

التغلغل العربى الإسلامى فى السودان الغربى حتى الربع الاول من القرن الرابع عشر الميلادى

إن تاريخ الوجود العربى الإسلامى وتأثيره فى بلاد السودان الغربى ينظر إليه الباحثون نظرة خاصة ، وذلك لما تركه من آثار موجودة إلى يومنا هذا فى المكونات السياسية والإقتصادية والثقافية والإجتماعية التى سادت ذلك الجزء من القارة الإفريقية . وبالرغم من وجود ثغرات كبيرة هامة فى الصورة التاريخية لبدايات التغلغل العربي ومداه فى السودان الغربى قبل أن يتوطد الإسلام فى الشمال الإفريقي حوالى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ، فإن بعض الدراسات الحديثة أعطت معلومات قيّمة عن إنتشار الإسلام فى ممالك غانة ومالى وسنغاى (1) .ولقد تأكد بصورة جلية إن أهم روافد التأثير العربى الإسلامىجاءت الى السودان الغربى من منطقة الشمال الإفريقى. وقد لعب

---

(1) من هذه الدراسات على سبيل المثال :

- J ,S, Trimingham : A history of Islam in west Africa , (London, 1970)

- R , Mauny : Tableau Geographic de Louest Africaine au Moyen Age, (Dakar 1961)

- ابراهيم على طرخان.إمبراطورية غانة الإسلامية .(القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1970 م).

- ابراهيم على طرخان . دولة مالى الإسلامية .(القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1973م)

- عبدالقادر زبادية . مملكة سنغاى فى عهد الأسيقيين 1493 - 1592م .(الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، د-ت) .

العرب المغاربة دورا رئيسيا فى حمـل مشعل العروبـة والإسلام الى تلـك البقـاع حتى أضحى التأثير العربى المغربى فيها معلما حضاريـا زاهـرا . وأشـارت بعـض الشـواهد التاريخيـة الى أن التجـار العـرب المغاربـة قـد أقـاموا أحيـاء عديـدة لإستقرارهم فى السودان الغربى منذ وقت مبكر، مثل تلك الأحياء التـى ألحقـت بعاصمة مملكة غانة التي وصفها الجغرافى المغربى أبوعبيد الله البكرى(1). غير أنه ليس هنالك مايفيد بإنتشار الإسلام فى الأوساط الحاكمـة السـودانية قبـل مجـىء القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى (2) ويعود لجهاد المرابطين الفضل فى إعطاء المؤثرات العربية الإسلامية دعما سياسيا فى السودان الغربى .

فالمرابطون هم الذين أسقطوا مملكة غانة الوثنية عام 469 هـ / 1076 م ، وربما هـم أيضا الذين أستقطبوا الأسرة الحاكمـة فـى مـالى الى الإسـلام ، فضـلا عـن أنهـم تركوا تأثيرا واضحا فى سنغاى شهدت به مقابر عاصمتها جاو (3) .

ويلاحظ أن التأثير العربى الإسلامى فى السودان الغربى حتى نهاية القرن العاشـر الهجرى / السادس عشر الميلادى قد مر بثلاث مراحل رئيسية ، هى :-

المرحلة الأولى: وقدبدأت فى أعقاب توطد دعائم الإسلام فى الشـمال الإفريقـى حوالى القرن الثاني الهجرى/ الثامن الميلادى وإسـتمرار تمثلـه تمثـلا كـاملا للعروبـة على إثر تدفق هجرات بنى هـلال وبنى سليم فى القرن الخامس الهجرى/الحـادى عشر الميلادى الى الشمال الإفريقى ثم أمتدتأثيرهم الى السودان الغربى(4).وتميزت

---

(1) أبو عبيد ا لله البكرى . المغرب فى أخبار أفريقيا والمغرب ، وهو جزء من المسالك والممالك . (الجزائر : المطبعة الحكومية ، 1858 م) ، صـ5-17.

(2) البكرى ، المصدر السابق . صـ172.

(3) J, Sauvaget:"Les Epitaphes Royales de Gao "Bull IFAN.XII 1950 P.P.418 -40 .

(4) يوسف فضل حسن . إنتشار الإسلام فى افريقيا . (الخرطوم : مطبعة جامعة الخرطوم ودار جامعة الخرطوم للنشر . 1979م) ، صـ18 .

هذه المرحلة بالإحتكاك السلمى وأقـترنت بالتجـارة والرعـى وبإزديـاد الهجـرات البشرية بين شمال القـارة وغربهـا،ونتـج عنهـا مصـاهرة العـرب الوافديـن للأسـر الحاكمة والوطنيين الأفارقة ، مما أدى الى وضع لبنة قوية لإنطلاق إنتشار الإسلام والعروبة فى المنطقة . **أما المرحلة الثانية** : فترتبط بتدفق الهجـرات العربيـة جنوبـا الى مايعرف حاليا بإسم موريتانيـا ، حيـث أنتشـر الإسـلام بـين قبـائل صنهاجـة الثلاث (لمتونة ومسوفة وجدالة) التى وقع على كاهلها رفع رايـة الجهـاد بإسـم الحركة المرابطية التى أعطت تأثيرات الحضارة العربية الإسلامية دفعة قوية (1) .

وتوجت المرحلة الثالثـة بقيـام مملكتـى مـالى وسـنغاى الإسـلاميتين اللتـين أمتثلتـا لمؤثرات الحضارة العربية الإسلامية فـى نظمهمـا ومعاملاتهمـا (2).وقـد شـغلت هذه المرحلة الفترة مابين القرنين السابع الهجرى / الثالث عشر الميـلادى والعاشـر الهجرى / السادس عشـر الميـلادى ، وهـى الفـترة التـى بلـغ فيهـا التأثـير العربـى الإسلامى فى السودان الغربى ذروته .

ولما كان عهد السلطان المالى منسا موسى وحجته الشهيرة الى الأراضى المقدسـة، يشكلان منعطفا هاما نحو إمـتزاج التأثـير العربـى الإسـلامى الوافـد مـن المشـرق العربى بالموروث من المغرب العربـى فـإن البـاحـث يـرى أن يركـز فـى موضـوع دراسته على الفترة الواقعة مابين القـرن الثـامن الهجـرى / الرابـع عشـر الميـلادى والقرن العاشر الهجرى / السـادس عشـر الميـلادى التـى شـهدت نهايتهـا تقريبـا وقوع سنغاى بيد المغاربة ولاكتمال الصورة التاريخية وضمان تسلسل أحداثهـا ، سيتناول البحث موضوعات هذا الفصل على النحو التالى :-

---

(1) المرجع نفسه ، صـــ18.

(2) الصفحة نفسها

أولا:- الأرض والسكان :-

أصطلح الجغرافيون والمؤرخون العرب فى العصور الوسطى على تسمية المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى وشمال خط الإستواء ، والممتدة من البحر الأحمر شرقا وحتى المحيط الأطلسى غربا بإسم (بلاد السودان).ورغم ان المدلول اللفظى لكلمة بلاد السودان قد تعنى الشعوب السوداء البشرة ، فإنه من المرجح انه قصد بها فى كتابات المؤرخين والجغرافيين العرب فى العصور الوسطى مناطق حزام السافانا ، وهى المناطق التى كانت أقوى أجزاء القارة الأفريقية علاقة بمناطق الوطن العربى تأثرا وتأثيرا حتى أضحى معظم سكانها من المسلمين وقامت بها إمبراطوريات إسلامية مثل مالى وسنغاى ، فضلا عن أن هؤلاء الكتاب والجغرافيين العرب كانوا أكثر إلماما بهذه المنطقة بحكم مصاقبتها للوطن العربى من الناحية الجنوبية وقربها منه (1).

وقد وصف الجغرافى الإصطخرى ، الذى عاش خلال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، بلاد السودان بقوله "...انها بلاد عريضة وليس فى الأقاليم التى للسودان من الحبشة والنوبة والبجة وغيرهم إقليم أوسع منه ويمتدون على قرب البحر المحيط مما يلى الجنوب ومما يلى الشمال على مفازة تنتهى الى مفازة مصر من وراء الواحات ..." (2) .

كما وصفها القزوينى من أعلام القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى

---

(1) جميلة امحمد التكيتك . مملكة سنغاى الإسلامية فى عهد الاسكيا محمد الكبير 1493-1528م رسالة ماجستير غيرمنشورة ،(طرابلس : جامعة الفاتح ، كلية العلوم الإجتماعية التطبيقية ،1991) ص12 ومايليها.

(2) الإصطخرى . كتاب المسالك والممالك .(القاهرة : مطبعة الحسينى ، 1961م) ، صـ34 . أما لفظ البحر المحيط الوارد فى النص فالمقصود به المحيط الأطلسى .

بقوله : ...هى بلاد كثيرة وأرض واسعة ينتهي شمالها الى أرض البربر وجنوبها الى البرارى وشرقها الى الحبشة وغربها الى البحر المحيط ." (1) .

والمتتبع لكتابات المؤرخين والجغرافيين العرب فى العصور الوسطى يلمس أنهم لم يضعوا تقسيم معين للمنطقة . غير أن بعض العلماء والمؤرخين المعاصرين درجوا على تقسيم بلاد السودان الى قسمين ، ومن أمثال ذلك : هيرسكوفيتش (Herskovits) ، الذى قسمها الى اقليمين هما : السودان الشرقى والسودان الغربى وتفصلهما بحيرة تشاد (2) .

أما المؤرخ المعاصر سبنسر ترمنجهام (Spencer Trimingham) ، فقد قسم بلاد السودان الى ثلاث مناطق هى السودان الشرقي والسودان الأوسط والسودان الغربى (3) .

ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا التقسيم هو المتعارف عليه للمنطقة وذلك على النحو التالى :

1- السودان الشرقى ويمتد من البحر الأحمر شرقا حتى حدود إقليم دارفور غربا، ويضم الحوض الأعلى والأوسط لنهر النيل (4).وكان هذا القسم بالإضافة الى ساحل شرق افريقيا قد غلب عليه عند العرب ، مابين القرن الرابع الهجرى / التاسع الميلادى والقرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، اسم (بلاد

---

(1) القزوينى.آثارالبلاد وأخبارالعباد .(بيروت: دار صادر، د-ت)ص24

(2) M, Herskovits : " Apreliminary Consideration of Culture Areas of Africa"

America Antroplogsitis 26,1926,P.P.50-63 .

(3)Trimingham . Ahistory Islam in West Africa .

(4) الشيخ الأمين عوض الله . العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربى فى عهد السلطنتين الإسلاميتين : مالى وسنغاى .(جدة : دار المجمع العلمى ، 1979م) ، ص41 .

الزنج) ، إلاأن كلمة السودان كانت تشمله ايضا (1) .

2- السودان الأوسط ويشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد .

3- السودان الغربى : ويشمل المناطق الواقعة بين حوض نهر السنغال * ، والحوض الأوسط لنهر النيجر والمجرى الأعلى لنهر فولتا (2). والمنطقة الأخيرة هى منطقة هذه الدراسة وقد عرفت أيضا بإسم الحوض والساحل (3) ، كما تعتبر الآن جغرافيا جزءاً من غرب أفريقيا .

وتجدر الإشارة الى أن بعض الكتاب والجغرافيين والمؤرخين العرب فى القرون الوسطى كانوا يخلطون بين مصطلحى بلاد السودان الغربى وبلاد التكرور ** ، ومنهم من يستخدم لفظ التكرور ويعنى به بلاد السودان الغربى عموما (4) .

بيد أن منطقة التكرور، هى إحدى مناطق السودان الغربى وكانت قد إنفصلت

---

(1) عبدالقادر زيادية ، مملكة سنغاى ، صـ15

* نهر السنغال ونهر النيجر كان المورخون القدماء يسمون كليهما بنهر النيل أو البحر . أنظر : محمد الغربى . بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى .(بغداد : دار الرشيد للنشر ، 1982م) ، ص45.

(2) الشيخ الأمين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ41 .

(3) أمين توفيق الطيبى . دراسات وبحوث فى تاريخ المغرب والأندلس . (ليبيا - تونس : الدار العربية للكتاب ، 1984م) ، صـ301 .

** عن معنى التكرور يقول محمد بلو بن فودى : " وأعلم أن هذا الإسم الذى هو التكرور علم على الإقليم الغربى من الجنوب السودانى ، على مافهمنا من تعبيرهم فى التواريخ والنقول ، وهذا الإسم شائع فى الحرمين ومصر والحبشة ".أنظر محمد بلو بن عثمان بن فودى . إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور (القاهرة : دار مطابع الشعب ، 1383هـ / 1964م)، صـ27 .

(4) القلقشندى .صبح الأعشى فى صناعة الانشا .(القاهرة : الموسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، 1963م) ، ج 5 ،صـ283 .

عن مملكة غانة الوثنية في حوالى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى. ويورد ابن فضل الله العمرى (ت 1348 م) في مخطوطته الشهيرة (مسالك الابصار في ممالك الأمصار) مايفيد قطعا بأن العرب ، آنذاك ، يفرقون بدقة بين مصطلحى التكرور والسودان الغربى حيث يقول : " ... وصاحب هذه المملكة هو المعروف عند أهل مصر بملك التكرور ولو سمع هذا أنف منه لأن التكرور انما هو إقليم من أقاليم مملكته والأحب اليه أن يقال صاحب مالى لأنه الإقليم الأكبر وهو به أشهر ..." (1).والجدير بالذكر أن بعض الكتاب اليونان والرومان أطلقوا على منطقة السودان الغربى والأوسط مصطلح نجريتيا (Nigritia) نسبة الى نهر النيجر (Niger) ، الذى أطلق عليه هذه التسمية ، لأول مرة ، المؤرخ والجغرافى الرومانى بلينى(Pliny)(ت حوالى عام 115 م)ومعناها : (نيل الأجناس السوداء) (2).ولاشك أن موقع بلاد السودان الغربى ، وكما سبق تحديده ، يتميز بمميزات إيجابية جعلت منه منطقة جذب لهجرات الأجناس المختلفة اليه من كل الجهات المحيطة به ، ومن هذه المميزات:موقعة في منطقة غزيرة الأمطار نسبيا وتجرى بها بعض الأنهار مثل : نهر السنغال ونهر النيجر ونهر غامبيا ونهر فولتا بالإضافة الى تنوع المناخ وخصوبة التربة وتوفر الثروة الحيوانية والثروة السمكية والثروة المعدنية وبالذات الذهب والنحاس والحديد وغيره . ونتيجة لهذه المميزات عاش في هذا الإقليم ، ومنذ الآف السنين ، خليط من الأجناس المختلفة ونشأت به جملة من المدن

---

(1) العمرى .مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. (فرانكفورت :معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية ، 1988م)، مج 4 ، صـ 34.

(2) ابراهيم على طرخان . الإسلام واللغة العربية في السودان الغربى والأوسط . (القاهرة : الهيئة العامة للتأليف والنشر ، 1969 م) صـ52-53 .

والحواضر وربطت هـذه المنطقـة بشبكة مـن طـرق القوافـل مـع منـاطق الوطـن العربى، وبخاصة الأجزاء الواقعة فى الشمال الأفريقى .

أهم الثروات :-

من أبرز الثروات التى تمتعت بها بلاد السودان الغربى ، والتى كانت سر شهرتها الإسطورية منذ القدم وحتى القرن الثالث عشـر الهجـرى/ التاسـع عشـر الميلادى ، هى الذهب . وقد سماهـا الفـزارى (أرض الذهـب) ، وذلـك بعـد أن زارها عام 800 م أو قبلها بقليل (1) .

ويقول ابن حوقل : "...وغانة ايسر من على وجه الأرض من ملوكها بما لديهـم من الأموال المدخرة من التبر المثار ." (2). ومن المعروف أن الذهب كان يقـايض بمادة الملح الهامة جدا فى السودان الغربى وفى هـذا الصـدد يؤكـد ابـن حوقـل : "... وحاجتهم الى ملوك أوداعست ماسة من أجل الملح الخارج اليهم من ناحيـة الإسلام ، فإنه لاقوام لهم إلا به ." (3) .

وكان ذهب هذه المنطقة يستخرج من مناجم ونقارة فى الجنوب ، ويحمـل علـى رؤوس العبيد الى جنـى ، ثـم بـالقوارب الى تمبكتـو ، ثـم علـى ظهـور الإبـل الى مراكز التصدير فى الشـمال الإفريقـى . وكـانت تتـم عمليـة المقايضـة بـين تجـار الشمال الإفريقى ، وأهالى السودان الغربى بما عـرف فـى التـاريخ بإسـم التجـارة الصامتـة (Silent Trade) . وقـد كـانت هـذه المنطقـة ، وكمـا يؤكـد مونـى (Mauny)،منذ القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى وحتى اكتشاف قارة أمريكا

---

(1) بـازل دافدسـن . افريقيـا تحـت أضـواء جديـدة ، ترجمـة : جمـال أحمـد .(بـيروت : دارالثقافـة1961)، صـ137 .

(2) ابن حوقل . صورة الأرض . (بيروت : دار مكتبة الحياة ، 1979م) ، صـ 96.

(3) المصدر نفسه ، صـ96 .

عام 1492م، هى المصدر الرئيسى لتمويل العالم بالذهب وكان لهذا الذهب اليـد الطولى فى بناء قوة غانة ، وإقامة امبراطورية مالى (3) .

ومن الثروات المعدنية التى كانت متوفرة بالمنطقة ، والتى تـأتى فـى المرتبـة الثانيـة بعد الذهب هى النحاس والذى كان يسـتخدم فـى الصناعـات الحربيـة وأدوات الزينة وصناعة الأوانى وغيرها . وكذلك الحديد الذى يدخل فى صناعة الأسلحة والمعدات الزراعية وغيرها ، وقد أدت الكشوف والحفريات الأثريـة الحديثـة فـى عاصمة مملكة غانة الى العثور على كميات من المصنوعـــــات الحديدية (4) .

كما إشتهرت بلاد السودان الغربـى بـالثروة الزراعيـة وتنـوع المحـاصيل ، وذلـك نتيجة لخصوبة الأرض وهطول الأمطار * وجريان الأنهار ، التى أستفيد منها فـى الملاحة .

كما عاشت بالمنطقة أنواع من الحيوانات مثل : البقر والأفيال والزراف والحمـير والإبل كما توفرت بها كميات كبيرة من الأسماك كانت تشكل جزءا هامـا مـن مكونات الغذاء فى تلك المنطقة .

1- أهم الأجناس التى عاشت بالمنطقة :-

ونتيجة للموقع الهـام والـثراء الكبـير ، عـاش بالسـودان الغربـى خليـط مـن الأجناس من فصائل عرقية متباينة إضافة الى الهجرات التى وفدت على المنطقة من مناطق الوطن العربى وبالذات الشمال الإفريقى .

---

(3) بازل دافدسن ، المرجع السابق ، صــ136 .

(4) ابراهيم طرخان ، امبراطورية غانة الإسلامية ، صــ36

* من المعروف إن فصل الأمطار فى السودان الغربى هو فصل الصيف ، أما الشتاء فهو فصل الجفاف.

وقد كانت الهجرات البشرية ميسورة بين المنطقتين نسبة لعدم وجود حواجز طبيعية تعوق حركة التواصل والتنقل .ومن أهم القبائل الزنجية التى عاشت بالسودان الغربى هى : السوننك ، وهم أحد فروع الماند الذين يتميزون بقوة جسمانية وعادات وتقاليد اجتماعية فريدة (1) .

وقد انتشر نفوذهم فى أجزاء واسعة من السودان الغربى بين أعالى نهر السنغال والنيجر، أى أمتد من تمبكتو شرقا الى بلاد التكرور (السنغال الحالية) غربا(2) .

ومن الأدلة على الإمتزاج المبكر لقبائل السوننك مع المهاجرين الوافدين من الشمال الإفريقى أن قبائل الوولوف (Wolof) ، يطلقون على السوننك المقيمين فى حوض السنغال . اسم سيركول أو سراكول أو سراكولى ، وتعنى هذه التسمية الرجال الحمر أو الناس الحمر (3) .

وتضم مجموعة السوننك فروعا مختلفة أشتهرت بأسماء متنوعة تبعا للأماكن التى أقامت بها ، أو تبعا لأسماء العشائر التى برزت من بينها أو بحسب تسمية جيرانهم لهم (4) . ونتيجة للإمتزاج المبكر بين السوننك والهجرات الوافدة من الشمال الإفريقى فقد إعتنق السوننك الإسلام ولعبوا دورا كبيرا فى الدعوة له ، وصارت العقيدة الإسلامية ذات أثر عميق فى حياتهم الإجتماعية ، وأن بعض العشائر السوننكية وهبت نفسها للدعوة الى الإسلام فقط، حتى إن كلمة

---

(1) ابراهيم طرخان ، امبراطورية غانة الإسلامية ، صـ 18

(2) أحمد مختار العبادى . " الصفحات الاولى من تاريخ المرابطين " ، : مجلة كلية الآداب ، جامعة الأسكندرية ، مج 21 : (1967م) ، صـ77 .

(3) ابراهيم طرخان ، امبراطورية غانة الإسلامية ، صـ19 .

(4) المرجع نفسه ، صـ19.

سوننتك استخدمها الماندنكا الوثنيون مرادفة لكلمة داعى (1) ، مما يدل على الدور الكبير الذى لعبوه فى نشر الإسلام .

وكذلك من الأجناس الهامة التى عاشت بالمنطقة هى : قبائل التكرور (Toclur) التى عاشت فى وادى السنغال وفى المناطق الواقعة بين السنغال وغامبيا (2) .

ويقال إن ملكهم وارجابى * (Warjabi) أعتنق الإسلام حوالى عام 432 هـ / 1040 م (3) وقام بنشره بين رعاياه .

ومن الأجناس التى عرفت بالمنطقة ايضا قبائل الوولوف التى عاشت بالمنطقة الواقعة جنوب نهر السنغال (4) كما عاش بالمنطقة قبائل البمبارا (Bambara) ، وذلك فى المنطقة التى تضمها الآن موريتانيا .ومن المعروف أن هذه القبائل أستمرت على وثنيتها زمنا طويلارغم أن الإسلام قد أنتشر فى كل تلك المناطق ، وخاصة منذ القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى

---

(1) المرجع نفسه ، صـ48 .

(2) بوفيل . تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، ترجمة : الهادى ابو لقمة ومحمد عزيز . (بنغازى : جامعة قاريونس ، 1988 م) ، صـ105 .

* يعتقد ان إسلام وارجابى كان بتأثير الفقهاء الأباضيين القادمين من جبل نفوسه ، بليبيا الحالية ، الذين كانوا ضمن الجالية التجارية المقيمة هنالك . أنظر : صباح ابراهيم الشيخلى ." النشاطات التجارية عبر الطريق الصحراوى حتى نهاية القرن الخامس الهجرى" .تجارة القوافل ودورها الحضارى حتى نهاية القرن 19 م . (بغداد : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، 1984م) ، صـ43 .

(3) البكرى ، المصدر السابق ، صـ173 .

(4) عصمت عبداللطيف دندش . دور المرابطين فى نشر الإسلام فى غرب افريقيا . (بيروت : دار الغرب الإسلامى ، 1988م) ، صـ45 .

وتفسير ذلك الأمر هو ان المجتمعات الأفريقية التى لم تكن تخضع لحكم مركزى أو شبه مركزى كانت أقل تأثرا بالحضارة العربية الإسلامية ، وذلك لأن الإسلام عادة ماكان ينتشر فى الأوساط الحاكمة ومن ثم بين الرعية . فالمجتمعات ذات السلطات المركزية أكثر تجاوبا مع المؤثرات الحضارية الخارجية.

ولقد تجاوبت المجتمعات الأفريقية فى دولتى مالى وسنغاى ، على سبيل المثال ، ايجابيا مع تطبيق النظم الإسلامية اكثر من أية مجتمعات أفريقية أخرى لاتعيش فى كنف المركزية أو تحت قيادة موحدة .

ويشير المؤرخ الإنجليزى توماس ارنولد (Thomas Arnold) الى استمرار قبائل البمبارا على وثنيتها بقوله :" إن النفوذ الإسلامى لم يصادف مقاومة عنيدة كتلك التى جعلت جماعة البمبارا Bambara الوثنية يحتفظون بوثنيتهم مع انهم كانوا محاطين مدة قرون بالسكان المسلمين " (1) . ومن هذه الأجناس كذلك الموشى أو الموسى (Mossi) ، التى أقامت مملكة وثنية قوية فى منحنى نهر النيجر وجاورت الممالك الكبرى بالمنطقة (غانة ومالى وسنغاى) . وأستمرت على وثنيتها حتى جاهدها الاسكيا محمد الكبير ملك السنغاى فى بداية القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى.وذلك حسب ماجاء عند عبدالرحمن السعدى (2) ولعل السبب فى مناوئة كل من قبائل البمبارا والوولوف للإسلام يرجع الى عدم تمتعها بسلطة مركزية واحدة ، وذلك لسيادة النظام القبلى فيها وكانت تخشى الغريب ولذا ، ظلت منعزلة عن قوى التأثير والتطور الحضارى الوافد من الخارج .ومن القبائل التى كانت بالمنطقة ، أيضا ، قبائل السنغاى

---

(1) توماس أرنولد . الدعوة الى الإسلام ، ترجمة : حسن ابراهيم حسين وآخرون .(القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، 1970م) ، صـ358 .

(2) السعدى . تاريخ السودان .(طبعة هوداس ، انجى - فرنسا ، 1898م) ، صـ74.

(Songhay) وهى قبيلة كانت تسكن النيجر حول حـدود الغابـات الإستوائية ، ثم أخذت تنتقل الى الشمال مع نهر النيجر . وفى القرن الاول الهجرى/ السـابع الميلادى كانت أمتدت مساكنها على طول حوض النيجر بحـوالى مائـة وخمسـين كيلومتر ، وتمتهن صيد الأسمـاك وزراعـة الدخـن (1).وقـد عـرف الـزراع منهـم بسادة الأرض، وصيادى الأسماك بسادةالمياه (2) ويعتقـد أن أول دولـة للسـنغاى قد تأسست حوالى القرن الأول الهجرى/السابع الميلادى وكانت عاصمتها مدينة كوكيا على نهر النيجـر الأدنـى وهـى لا تبعـد عـن جـاو * الحاليـة سـوى مائـة وخمسين كيلومتر (3) . وقد أنتشر الإسلام فى بلاد السنغاى ، فيما يبدو ، نتيجة الامتزاج السكانى مع هجرات القبائل الصنهاجية الوافدة من الشمال الإفريقـى ، ومما يدل على ذلك ان ملكهم زاكسى كوساى كان قد أسلم حـوالى1009م(4) أى قبيل حركة المرابطين الجهادية الشهيرة ، كما هاجر الى المنطقة بطـون عديـدة من قبائل صنهاجية بفروعها كما سيتضح .

---

(1) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ25 ، هامش رقم (1) .

(2) الشيخ الأمين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ56 .

* حول نشأة جاو راجع الفصل الثالث (التأثير الإقتصادى) .

(3) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ251 .

(4) السعدى ، المصدر السابق ، صـ3 .

2- أهم العناصر المغربية الوافدة من الشمال الإفريقي : أصلها وموطنها .

تؤكد الشواهد التاريخية إن منطقة الشمال الإفريقي قد تعرضت الى موجات من الهجرات البشرية المتتالية منذ قرون عديدة قبل الإسلام ، وقد وفدت هذه الهجرات من شبه الجزيرة العربية (1). وهذا يدل على أن حركة تعريب منطقة الشمال الإفريقي ترجع الى ماقبل الإسلام وبتوطد الإسلام فى المنطقة حوالى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى وبلوغ الدولة العربية الإسلامية ذروتها وخاصة بعد فتح الأندلس تطلع العرب الى نشر الإسلام فيما يعرف بمنطقة ماوراء الصحراء .

وانتشار الإسلام والثقافة العربية فى السودان الغربى مرتبط الى حد كبير بالجهود الكبيرة التى لعبتها قبائل صنهاجة التى وفدت على المنطقة من الشمال الإفريقى. ويبدو ان الإسلام بدأ ينتشر مبكرا فى بطون صنهاجة المختلفة وتوج بحركة المرابطين الجهادية .

كما أن الهجرات الجماعية لقبائل بنى هلال وبنى سليم فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى وانتشارهم فى ارجاء الشمال الإفريقى قد أدى الى نشر الإسلام واللغة العربية الحديثة لغة القرآن الكريم ، بين أهل المنطقة والى استعراب أهلها استعرابا كاملا . وبسقوط مملكة غانة على ايدى المرابطين بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ السودان الغربى توجت بقيام مملكتين اسلاميتين هما :

---

(1) محمد محمد أمين ."تطور العلاقات العربية الإفريقة فى العصور الوسطى" ، محمود خيرى عيسى (محرر) ، العلاقات العربية الإفريقية ، دراسة تحليلية فى ابعادها المختلفة ،(القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، 1978م) ، صـ64 .

مالى وسنغاى . وقد وقع عبء احداث هذه التغيرات الهامة على عاتق قبائل صنهاجة بفروعها ، والتى أمتدت هجراتها الى تلك المناطق ، "... منذ دهور قبل الفتح لايعرف أولها ... وصاروا مابين بلاد البربر وبلاد السودان حجزا واتخذوا اللثام خطاما تميزوا بشعاره بين الأمم وفى تلك البلاد وكثروا وتعددت قبائلهم ... كلهم مابين البحرالمحيط بالمغرب الىغدامس من قبلة طرابلس وبرقة "(1) وعن امتدادات هذه القبائل نحو بلاد السودان الغربى بقول المؤرخ المغربى عبدالعزيز بن عبدالله : "ان جزءا من قبائل صنهاجة التى هاجرت الى مناطق جنوب الصحراء كانت تضم افخاذا من قبائل لمطة ولمتونة والملثمين المنتسبين الى هوارة ، قد قطنت الواحات الصحراوية شمال نهر النيجر، وأصبح يطلق عليها الطوارك."(2). ومعروف ان الطوارك أو الطوارق هم أحد فروع صنهاجة المشار اليها وقد لعبت هذه القبائل ، التى عاشت بمنطقة بالسودان الغربى دورا هاما في تاريخها ، ولازالت هذه القبائل حتى اليوم تشكل جزء هاما من البنيه السكانية للمنطقة وخاصة الاجزاء الشمالية منها ، كما انطلقت مجموعة صنهاجية اخرى نحو الجنوب الغربى ، وأوغلت فى بلاد السودان الغربى حيث الأماكن الوفيرة المياه والمراعى وأسست مدينة أوداغست *والتى اتخذت منها عاصمة لها (3) ، وقد

---

(1) ابن خلدون.العبر وديوان المبتدأ والخبر.(بيروت : موسسة جمال للطباعة والنشر، 1979م)، ج 6 ، صـ181 .

(2) عبدالعزيز بن عبدالله . تاريخ الحضارة المغربية .(دار السلمى، 1962م) ، صـ25

* أوداغست لاوجود لها اليوم ومكانها ، حسب بعض الإشارات التاريخية ، تقام فيه اليوم مدينة تجداست (Tegdast) شرقى منطقة تكانت (Tagnt) بجمهورية موريتانيا الحديثة .

(3) الحموى . معجم البلدان .(بيروت : دار صادر ، د-ت) ، صـ227 ؛ ابوالفداء . تقويم البلدان. (باريس: دار الطباعة السلطانية ، 1850 م) صـ37 .

شهدت هذه المدينة ، التى كانت أشبه بحلقة وصل بين شمال افريقيا وبين السودان الغربى حركة تجارية ترجمتها كثرة أسواقها التى أشتهرت بتجارة الذهب (1) ومما يبرهن على أصالة قبائل صنهاجة وأهميتها أن تلك المناطق سميت ببلاد الزنوج أو بلاد الزناجة وأن النهر الكبير الغربى أطلق عليه نهر السنغال، والاسمان : (الزناجة والسنغال) مشتقان من صنهاجة (2). ويعتقد ان اسم صنهاجة كان يطلق على نهر السنغال ، غير ان الاوربيين فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى قاموا بتحريف لفظ صنهاجة الى السنغال. وعن أهمية قبائل صنهاجة ودورها فى المنطقة ان رجالها كانوا طيلة وجود دولة غانة هم عماد الحكم والجيش والادارة والتجارة مما حدا بعبد الرحمن السعدى الى القول بان الاسرة الغانية كانت لاتباشر فعليا الحكم فى جهات مملكتها ، بل أكثر من ذلك فقد أعتبر ان غانة من ممالك البيضان اى العرب (3) .

وحسب رواية السعدى ، أن هجرة صنهاجية وفدت الى كوكيا (جاو) وأستقرت فيها وكان رئيس هذه المجموعة الصنهاجية يتخذ لقب (ذا) أو (زا) وتسمى باسم (ايمن) أو (اليمن) (4).

وقد حاول كثير من المستشرقين المهتمين بالدراسات الإسلامية ومن الباحثين الذين تأثروا بهم ترويج مغالطة تاريخية حول نشر الإسلام فى السودان الغربى. وفى هذا الصدد يقول ترمنجهام : "إن العرب لم ينشروا الإسلام ، ولكن

---

(1) مجهول . الإستبصار فى عجائب الأمصار ، تحقيق : سعد زغلول عبدالحميد .

(الدار البيضاء: دار النشر المغربية ، 1985م)، صـ215 ؛ البكرى ، المصدر السابق ، صـ158.

(2) عبدالعزيز بن عبدالله ، تاريخ الحضارة المغربية ، صـ22 .

(3) السعدى ، المصدر السابق ، صـ9 .

(4) االسعدى . المصدر السابق ، صـ4 .

إختلاطهم ببربر موريتانيا جنوب المغرب ، أدى الى إستعراب هذه العناصر . أما بربر الصحراء الوسطى ، أى الطوارق ، فلم يتـم غزوهـم ولا اسـتعرابهم ." (1)
ويقصد ترمنجهام أن يقول صراحة بـأن العنـاصر الوافـدة مـن الشـمال الإفريقـى والتى عملت على نشر الإسلام فى السودان الغربـى لم تكـن عربيـة فـى أصولهـا وأنما هى مما يسمى (البربر) . ولم يكتف بذلك فحسب ، بل أنكر عروبة قبـائل الطوارق التى أسست أكبر منارة ثقافية وعلمية بالمنطقـة وهـى مدينـة تمبكتـو وذلك حـوالى القرن الخامس الهجـرى / الحـادى عشـر الميـلادى . وعليـه، فقـد رأى الباحث ضرورة دحض وتفنيد الآراء المشـككة فـى عروبـة قبـائل صنهاجـة ومنها الطوارق ، والتى سكنت منذ القدم الشمال الإفريقى ثـم أنسـاحت جنوبـا وعملت على دعم نفوذ التأثير العربـى الإسـلامى فـى تلـك البقـاع. إن الـدارس لتاريخ الشمال الإفريقى ، يجب ألا يهمل دور الهجرات العربية التى كانت تخـرج من شبه الجزيرة العربية منذ القدم ، نتيجة لظـروف مناخيـة وإقتصاديـة وسياسـية متجهة صوب الشمال الإفريقى ومختلطة بالسلالات الموجودة فـى المنطقـة كمـا أن سرعة إستجابة سكان الشمال الإفريقى للعقيدة الإسلامية الوافدة من الجزيـرة العربية ثم قدرة هؤلاء السكان على التحدث بلغة القـرآن الكريـم التـى أضحـت لغة العبادة والدواوين والمخاطبات الرسميـة والعمـل اليومـى وفـى وقـت وجـيز ، ماهو الا دليل على وحدة الأصل والمـوروث الثقـافى لسـكان الشـمال الإفريقـى واخوانهم العرب حاملى الدعوة الجديدة . وبحلول القرن الثانى الهجرى / الثـامن الميلادى أكتسـب الشمـال الأفريقـى بـأسرة اكتسابـا كـاملا للعروبـة وأضـحت

---

(1) J ,S ,Trimingham: "The Phases Of Islamic Expansion and Islamic Culture Zones in Africa " Islamic in tropical Africa ,ed . I.M. Lewis , (Oxford University Press 1966) , P. 128.

العناصر القاطنة فيه عربية حضارة وثقافة .وقد أطلقاالإغريق على سكان الشمال الإفريقى لفظ (البربر)، وهو لفظ يطلق بصفة عامة على الشعوب الناطقة بغير اللغة الإغريقية، (1) تماماً مثل ماأطلق العرب على الفرس وغيرهم لفظ (عجم) . أما الرومان فقد طوروا هذا اللفظ الى مفهوم سياسيوحضارى بمعنى الشعوب الأدنى منهم مرتبة وحضارة ، ويعيشون فى معزل عن الحضارة الرومانية العالمية، واطلقوا على جميع الشعوب التى خرجت عن طاعتهم اسم (بارباربكوم) أى بلاد البربر ، وهكذا عمت البربرية عندهم كل ماليس يونانيا أو رومانيا (2) . ويتضح من هذا القول أنه لايوجد فى تاريخ السلالات البشرية جيل من الناس يعرف باسم البربر . أما سكان الشمال الإفريقى الذين أطلق عليهم الإغريق والرومان هذا الإسم ، وتوارثته الأجيال حتى الآن فهؤلاء كانوا يطلقون على أنفسهم لفظ (أمازيج أو أمازيغ) أى الأحرار (3). وبمجيء الفتح العربى الإسلامى للمنطقة حوالى القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى ، تمت المحافظة على هذه التسمية و لم تغير لذيوعها وانتشارها والدليل على ذلك ورودها فى كتابات بعض المؤرخين العرب المسلمين .وقد أختلف المؤرخون العرب القدماء فى أصول هؤلاء السكان ، شانهم شأن المؤرخين المحدثين ، وعذرهم فى ذلك المدى الزمنى الطويل الذى مر على سكن الإنسان للشمال الإفريقى ، بالإضافة الى عدم وجود وسائل البحث العلمى بين أيديهم . ورغم كل ذلك فهم قد فطنوا الى أن هنالك صلة نسب قديمة بين سكان شبه الجزيرة العربية وخصوصا اليمن وبين سكان الشمال الإفريقي. حيث يرى إبن خلدون ان لقبائل

---

(1) عبدالرحمن محمد الجيلالى . تاريخ الجزائر : (بيروت : 1965 م) ، صــ48 .

(2) أحمد صفر.مدينة المغرب فى التاريخ (تونس: داربوسلامة للنشر ، د-ت)، ص34 ومابعدها .

(3) المرجع نفسه ، صــ34 .

صنهاجة وكتامة نسب عربى قديم يعود الى اليمن (1) كما انه يرى أيضا أن اسم افريقيا ذاته مشتق من أحد ملوك التبابعة وهو أفريقش بن قيس بن صيفى (2) والواقع أن سيل الهجرات البشرية من شبه الجزيرة العربية كان متصلا منذ قرون عديدة . واذا كان من الصعب تتبع صلة النسب القديمة بين العرب القدماء وبين سكان الشمال الإفريقى منذ عصور ماقبل التاريخ فإنه ليس من الصعب أن نتتبع الاستاذ جرينبرج الذى يعد من أقدر علماء اللغات فى العصر الحاضر، فيما ذهب اليه من أن لغة البربر واللغات السامية ترجع كلها الى أصل واحد ، وقد سماها (المجموعة الإفرواسيوية) ، ولن تكن القرابة اللغوية قائمة دون أن تستند الى شيء من القرابة العرقية بين العرب وسكان الشمال الإفريقى (3) .

وتأسيسا على ماتقدم من متابعة حركة الهجرات البشرية الى الشمال الإفريقى عبر العصور التاريخية المختلفة نستطيع أن نؤكد : انه ومنذ أزمنة تاريخية قديمة خرجت أفواج متعددة من الهجرات البشرية من شبه الجزيرة العربية متجهة غربا وأستوطنت مناطق الشمال الإفريقى ، وهذا مايؤكد أن سكان المنطقتين يرجعون الى أصل واحد . وهذه الهجرات البشرية المتعاقبة على مر السنين كان بعضها قبل الإسلام وبعضها بعده . ومن هنا فإن عروبة الشمال الإفريقى مرت بمرحلتين أساسيتين هما : مرحلة ماقبل الإسلام ، وهى التى تمثلت فى الهجرات المتعاقبة التى جاءت من جنوب وشمال شبه الجزيرة العربية الى الشمال الإفريقى، ومرحلة مابعد الإسلام، وهى التى تمثلت فى الهجرات التى أعقبت الفتح العربىالإسلامى،

---

(1) ابن خلدون 90/6 .

(2) المصدر نفسه،ص89 ، وقد فصل الحديث فى أصول البربر، راجع: ابن خلدون89/6 ومابعدها .

(3) محمد عوض محمد . الشعوب والسلالات الإفريقية . (القاهرة : الدارالمصرية للتأليف والنشر ، 1965م) ص338 .

والتى حملت معها الدين الجديد واللغة العربية الحديثة (1) .

ولما كان الشمال الافريقى قد خضع لنفوذ الدولةالعربية الإسـلامية خضوعـا تاما منذالقرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى وأصبح جـزءا مـن أجـزاء الوطـن العربى الكبير يسود فيه الدين الإسلامى والتراث الثقـافى العربـى المشـترك ، فـإن مصطلح (البربر) الذى أطلق على هؤلاء السكان من قبل الإغريق ،كما سـلف ، لم يكن صائبا فالرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم لايقر المضمون العرقـى للعروبة، بل يراها رابطة حضارية وثقافية (2). كما تبنـى اجتمـاع عربـى تعريفـا للعروبة بقوله : " كل من يعيش فى بلادنا ويتحدث لغتنا ، وتربى فـى ثقافتنـا ، ويحس بالإعتزاز بأمجادنا ، فهو عربى " (3).

وبناء عليه ، فيجب علـى البـاحثين إنكـار مصطلـح الـبربر وتـاكيد عروبتهـم بإضفاء مصطلح (العرب المغاربة) عليهم . ويقسم المؤرخون الذين عنوا بأنسـاب سكان الشمال الإفريقى هؤلاء السكان الى قسمين هما البتر والبرانس (4) :

1- البتر : وهم سكان البادية الرحل الذين كانوا يعيشون على الرعـى والتنقـل ويتكونون من :- زناتة وزواغـة وزوارة وتقـزة ولواتـه ومزاتـة ونفوسـة ومغيلـة ومطماطة ومطغرة ومديونة (5) وغيرها وكل قبيلـة تتكـون مـن بطـون وأفخـاذ متعددة ، وتمتد مناطق سكناهم امتدادا متصلا من طرابلس الى تازا .

---

(1) محمد محمد أمين ، تطور العلاقات العربية الإفريقية فى العصور الوسطى ، صـ66 .

(2) محمد عماره . العرب والتحدى .(بيروت : دار الشروق ، 1991م) ، صـ35 .

(3) عونى فرسخ . الأقليات فى الوطن العربى : تراكمات الماضى وتحديات الحـاضر واحتمـالات المستقبل. المستقبل العربى 1 (1989م) ، صـ204 .

(4) ابن خلدون 89/6.

(5) حسن أحمد محمود . قيام دولة المرابطين .(القاهرة : دار الفكر العربى ، 1956) ، صـ33

2- البرانس : وهم حضر مستقرون ، يعيشون على الزراعة وأهم قبائلهم صنهاجة وازداجة واوربة وعجيسة وكتامة واوربغة ولمطة وهسكورة وكزولة (1). ومن أهم قبائل البرانس : صنهاجة التى تتكون بدورها من مجموعة قبائل أمتدت بطونها وفروعها الى مختلف أنحاء بلاد المغرب ، فهنالك صنهاجة الشمال فى المغرب الأدنى والأوسط ، وصنهاجة الجنوب التى كانت قبائلها تعيش فى أرض موريتانيا الحالية مصاقبة لبلاد السودان الغربى. ومن أهم فروعها: لمتونة وجدالة ولمطة ومسوفة وجزولة . وصنهاجة الجنوب هم امتداد لصنهاجة الشمال والإختلاف بينهما هو أن صنهاجة الجنوب كانوا يتلثمون أو يتقنعون ولهذا سموا بصنهاجة اللثام أو الملثمين ولعلهم أخذوا هذه العادة من الزنوج المجاورين لهم فى الجنوب والذين استخدموا الأقنعة لدفع العين الشريرة الحاسدة عنهم (2) . والصنهاجيون الملثمون أو صنهاجة اللثام ، وهم موضوع حديثنا ، هم بدو رحل ينتجعون الكلاء ويتتبعون المطر ، وقد وصفهم صاحب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية بقوله :"ظواعين رحالة فى الصحراء لايطمئن بهم منزل ، وليست لهم مدينة يأوون اليها ومراحلهم فى الصحراء مسيرة شهرين فى شهرين "(3) .

ومن أهم هذه القبائل الصنهاجية والتى كانت تعيش مصاقبة لبلاد السودان الغربى هى : لمتونة ومسوفة وجدالة ، ولئن كانت الآراء تتضارب حول نسب

---

(1) ابن خلدون 6/89-90 .

(2) أحمد مختار العبادى فى تاريخ المغرب والأندلس . (بيروت : دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1978م) ، صـ16 .

(3) مجهول . الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق : سهيل زكار وعبدالقادر زمامة . (الدار البيضاء : دار الرشاد الحديثة ، 1982م) ، صـ17 .

صنهاجة شأنهم فى ذلك شأن معظم قبائل العرب المغاربة وكما سلف الإيضاح فإن الإنتماء العربى ظل الظاهرة الأكثر شيوعا ووضوحا ، وخاصة بعد أن تبنوا اللغة العربية وأعتنقوا العقيدة الإسلامية . ولقد توزعت هذه القبائل الثلاث ، لمتونة فى شمال الصحراء ثم تليها مسوفة فى الجنوب الشرقى ثم جدالة بالقرب من نهر السنغال. وقد وصفهم ابن حوقل قائلا : (... فلم يروا قط حاضرة ولاعرفوا غير البادية العازبة ، يقيمون بقلب البر على مياه غير طائلة لايعرفون البر ولا الشعير ولا الدقيق ومنهم من لم يسمع بهما . الا بالمثل وأقواتهم الألبان وفى بعض الأوقات اللحم ..."(1) .

وعن أمتداد قبائل جدالة عبر الجنوب الغربى من مضارب لمتونة يقول البكرى : (... أن جدالة يجاورون البحر ليس بينهم وبينه أحد ...) (2) ويقصد المحيط الأطلسى . وقد استطاعت هذه القبائل بحكم موقعها أن تحكم سيطرتها على كل المنطقة وأن تتحكم فى طرق التجارة ، وتتحصل على مبالغ مالية مقابل السماح بمرور القوافل التجارية التى ظلت تجوب المنطقة أمدا طويلا .

وقد تحدث ابن خلدون عن هذه القبائل وموطنها وديانتها وتقسيماتها واحوالها عموما بقوله : ... هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفز وراء الرمال الصحراوية بالجنوب ، ابعدوا فى المجالات هنالك منذ دهور قبل الفتح لايعرف أولها ، فاصحروا عن الأرياف ، ووجدوا المراد ، وهجروا التلول وجفوها ، واعتاضوا منها بالبان الأنعام ولحومها انتباذا عن العمران ، واستئناسا بالانفراد وتوحشا بالعز عن الغلبة والقهر ، ونزلوا من ريف الحبشة جوارا وصاروا حجزا واتخذوا اللثام خطاما تميزوا بشعاره بين الأمم ، وعفوا فى تلك

---

(1) ابن حوقل ، المصدر السابق ، صـ333 .

(2) البكرى ، المصدر السابق ، صـ164 .

البلاد وكثروا وتعددت قبائلهم من كدالة ، فملتونة، فمسوفة، فوتريكا فتاوكا ، فزغاوة ، ثم لمطة اخوة صنهاجة كلهم مابين المحيط بالمغرب الى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة وللمتونة فيهم بطون كثيرة فهم تبسو ورتنطق وبنوزمال وبنوصولان وبنوناسحة، وكان موطنهم من بلاد الصحراء يعرف كاكرم ، وكان دينهم المجوسية شأن برابرة المغرب ، ولم يزالوا مستقرين بتلك المجالات حتى كان اسلامهم بعد فتح الأندلس " (1) .

وصنهاجة الجنوب أو الملثمين هى التى أمتزجت مع سكان السودان الغربى وشاركت فى صنع أحداثه ، وهذا ماستتم الإشارة اليه فى الفقرات القادمة من هذا الفصل .

ثالثا :-التأثير العربى الإسلامى فيما بين القرنين السابع والحادى عشر الميلاديين .

أدى ظهور الإسلام فى القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى الى تعاظم وشائج الإتصال العربى بإفريقيا ، فقد أمد الإسلام العرب بسياج دينى وفكرى ساعدهم على خلق وحدة بينهم وازدهار نهضتهم الثقافية . ومنذ البدء صار الإسلام الركيزة الأساسية للثقافة العربية الجديدة ، مثلما أصبحت اللغة العربية (لغة القرآن الكريم) وعاء الفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية . وتحت راية الإسلام خرج العرب لإعلاء كلمة الله وفى زمن وجيز تمكنوا من نشر الإسلام فى أجزاء كثيرة من القارة الإفريقية . وسار الدعاة العقيدة الجديدة على ذات الطرق التىسار عليها أجدادهم من قبل من أجل التجارة والهجرة . وأدى هذا

---

(1) ابن خلدون 181/6 .

التطور الكبير فى حياة العرب الى حدوث نقلة نوعية فى تـاريخ العلائـق الثقافيـة بين العرب والأفارقة . ففوق دعائم التعامل التجارى والهجرات قام العرب بـدور أساسى فى نشر العقيدة الإسلامية ، وساعد انتشار الإسلام على رواج كثير مـن مظاهر الثقافة العربية كاللغة وتمثل النسب العربى ، وعليـه أعطـى الإسـلام لهـذه العلاقات بعدا عقائديا ، وأعطتها اللغة العربية محتوى لغويا وثقافيا (1) . وبعد أن أستقر الفاتحون فى الشمال الإفريقى ورسخوا وجودهم هنالك بـدأت المؤثـرات العربية الإسلامية تنساح جنوبا الى مناطق ماوراء الصحراء ، وقد تمكنوا من عبور مسالك الصحراء ومفازاتها ودروبها لانها تشابه الى حد بعيـد بلادهـم .وبمـا أن التأثير العربى الإسلامى فى السـودان الغربـى قـد مـر بمراحـل وسـاهمت وسـائل عديدة فى توطيد مرتكزاته ،فإن هذه الدراسة سوف تستعرض هذا التأثير خـلال الفترة المذكورة على النحو التالى :-

إن من أولى الإشارات التى وردت فـى التـاريخ الإسـلامى عـن تفكـير قـادة الفتح العربى الإسلامى فى توسيع فتوحاتهم غربا صوب شمـال افريقيـا وغربهـا لنشر الإسلام ، هو ما أورده المؤرخ ابن عبدالحـكم 803م-870م ، وذلـك أن عمروا بن العاص والى مصر من قبل الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبعد أن فتح طرابلس عام 22 هـ /642م كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب يخبره بفتح طرابلس ويستأذنه فى مواصلة فتوحاته غربا فى افريقيـا بقولـه : "ان الله قـد فتـح علينا اطرابلس وليس بيننا وبين افريقيا الا تسـعة أيـام فـإن رأى أمـير المؤمنـين أن يغزوها ويفتحها الله علـى يديـه فعـل فكتـب اليـه عمـر لا أنهـا ليسـت بإفريقيـا ولكنهـا المفرقـة غـادرة مغـدور بهـا لايغزوهـا أحـد

---

(1) يوسف فضل الله حسين . " الجذور التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية " ، العرب وافريقيا .

(بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، 1984 م)، صـ 28 ومابعدها .

مابقيت ." (1) . وعندما تولى الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه عزل عمرو بن العاص وولى عبدالله ابن ابى السرح مكانه وأذن له فى فتح أفريقيا ، وقد فتح قرطاجنة سنة 27هـ /647م وتبعه معاوية بن حديج فواصل فتوحه ثم تبعه عقبة بن نافع الفهرى عام 46 هـ/666 م فأختط مدينة القيروان عام 50 هـ/670 م (2) ، وواصل فتوحاته حتى وصل بلاد السوس الأقصى ، وفتح قاعدتها تارودانت . وأستمر توافد الهجرات العربية الإسلامية على تلك الجهات بعد الفتح ، وأخذ الإسلام ينتشر بين سكان تلك الجهات وأسلم كثير من قبائل الملثمين الضاربين فى جوف الصحراء الكبرى ، والذين كانت ديارهم تختلط بديار السودان ، بل تذهب بعض الروايات التاريخيةالى القول بأن:عقبةبن نافع قد أوغل فىبلاد السودان وفتح بلاد التكروروغانة (3) . وبعد إستشهاد عقبة بن نافع (63هـ/ 684م) واصل موسى بن نصير العمل على نشر الإسلام بين قبائل الملثمين وأرسل الى بلاد السودان الغربى المبشرين والدعاة والفقهاء لينشروا الإسلام بينهم ويفقهونهم فى أمور دينهم .وقد ذكر ابن خلدون ذلك بقوله : "إن موسى بن نصير اثخن فى البربر ودوخ المغرب وادى اليه البربر الطاعة وولى على طنجة طارق بن زياد وأنزل معه سبعة وعشرين الفا من العرب واثنا عشر الفا من البربر وأمرهم أن يعلموا البربر القرآن والفقه ثم أسلم بقية

---

(1) ابن عبدالحكم . فتوح مصر وأخبارها.(بغداد: مكتبة المثنى، د-ت) صـ173 . أما المقصود بلفظ افريقيا الوارد فى النص فهو مدينة قرطاجنة عاصمة الشمال الإفريقى آنذاك وموقعها قرب مدينة تونس الحالية ، وبذا تكون المسافة بينها وبين أطرابلس ، هكذا وردت فى النص ، تسعة أيام على ماورد فى رواية ابن عبدالحكم المشار اليها .

(2) ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، صـ318ومابعدها

(3) البكرى ، المصدر السابق ، صـ179 .

البربر على يد اسماعيل عبدالله بن ابى المهاجر سنة إحدى ومائة "(1) .

1- نشر الإسلام فى مملكة غانة :-

كانت السلطة المركزية فى أوائل القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى فى السودان الغربى هـى التى تشكلها مملكة غانة التى أفاضت بعض المصادر والمراجع التاريخية فى وصف توسعها وثرائها (2) ، حيث شملت معظم مساحات السودان الغربى من منحنى نهر النيجر ونهر السنغال فى الجنوب الى وادى نون فى الشمال فى قلب الصحراء ، وسيطرت على مناجم الملح فى الشمال ومناجم الذهب فى الجنوب ولذا سمى ملوكها (ملوك الذهب) ، وأحتكرت تجارة هاتين السلعتين الهامتين جدا وبسطت نفوذها على طرق التجارة الصحراوية ، بل وأمتد سلطانها على قبائل الملثمين الضاربين فى أعماق الصحراء الكبرى حتى قال عنها محمود كعت : "دولة كيمع سلطان المغرب كله بلا استثناء ." (3) . ولفظ كيمع أو كيمغ معناه : ملك الذهب (4) .
ويبدو أن هذا اللقب أطلق على بعض ملوك غانة ومن بينهم الملك كنسعى الذى

---

(1) ابن خلدون 101/6 .

(2) مثل : ابن حوقل ، المصدر السابق ، صـ71 ومابعدها ، والبكرى ، المصدر السابق ، صـ159 ومابعدها ، وحسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، صـ73ومابعدها ، وابراهيم طرخان ، امبراطورية غانة الإسلامية ، صـ25 ومابعدها وغيرهم.

كما تشير جملة المصادر والمراجع التاريخية المذكورة الى ان مملكة غانة قديمة وترجع الى القرن الأول الميلادى أو ماقبلها .

(3) كعت ، تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وآكابر الناس ، تحقيق هوداس (باريس: 1913م)، صـ41 .

(4) المصدر نفسه ، صـ41 .

كان معاصرا لرسول الله (صلعم) (1) ، ورغم قـدم مملكـة غانـة ، كمـا سـلفت الإشارة ، إلا انها لم تبلـغ ذروة مجدهـا وعظمتهـا إلا فـى الفـترة مـابين القرنيـين الثالث الهجرى / التاسع الميلادى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشـر الميـلادى وخلال هذه الفترة ظهرت المؤثرات العربية الإسـلامية واضحـة فيهـا .إذ وصـف البكرى عاصمـة المملكـة وهـى غانـة أو كومبـى صـالح * بقولـه :" مدينـة غانـة مدينتان سهليتان ، أحداهما التى يسكنها المسلمون وهى مدينـة كبـيرة فيهـا اثنـا عشر مسجدا أحدهما يجمعون فيه ولـه الأئمـة والمؤذنـون والراتبـون وفيهافقهـاء وحملة علم ... ومدينة الملك على بعد ستة أميال من هذه وتسمى الغابة ." (2). ويبدو أن هذه المؤثرات صـارت فـى تصـاعد إذ نجدالشـريف الأدريسـى ، الـذى سجل وصفا لغانة بعـد أكـثر مـن مائـة عـام مـن وصـف البكـرى لهـا يقـول : "... وغانة مدينتان علـى ضفتـى البحـر الحلـو وهـى أكـبر بـلاد السـودان قطـرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا ...وأهلها مسـلمون ."(3) ووصفهـا القلقشـندى بقوله : "... انها مدينتان على ضفتى نيلها، إحداهما يسكنها المسـلمون والثانيـة يسكنها الكفار ." (4) . ويورد لوثـروب ستودارد معلومـة عـن وصـول التأثـير العربى الإسلامى مبكرا الى غانة بقوله : "كانت فى غانة فى أوائل القرن الثامن

---

(1) الصفحة نفسها .

* كومبى صالح : كومبى فى لغة الزنج مدينة وصالح اسم عربى ، وتعنى الكلمة مجتمعة مدينة صالح . ويعتقد أن صالح هو مؤسس المدينة ، وهذا دليل على أن التأثير العربى الإسلامى قد وصل مبكرا الى تلك البقاع .

(2) البكرى ، المصدر السابق ، صـ175 .

(3) الأدريسى.نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .(القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د-ت) مج 1، صـ23

(4) القلقشندى 284/5 .

للميلاد اثنا عشرة مدرسة للقرآن ." (1) .ومن الأدلة على خضوع غانة للمؤثرات العربية الإسلامية ماأكدته الحفريات الأثرية الحديثة التى أجريت فى موضع غانة ، حيث وجد المنقبون رماحا وسكاكين وعددا كبيرا من الحراب والمسامير وأداوات زراعية متنوعة ومقصا بديع الصنع واعدادا من الأوزان الزجاجية يرجح أنها كانت تستعمل لوزن الذهب كما عثروا على بقايا من الفخار وعلى سبع وسبعين قطعة من الحجر المزين بالألوان ، كان على ثلاث وخمسين منها آيات من القرآن الكريم كتبت بالحروف العربية (2) .

والراجح إن الإسلام قد عرف بغانة قبيل حركة المرابطين ، إذ يقول القلقشندى عن إسلام أهل غانة:" وكان أهلها قد أسلموا أول الفتح"(3). وإن نمو الحى الإسلامى بعاصمة غانة أو المدينة الإسلامية وغيرها من المظاهر العربية الإسلامية من شعائر دينية ومساجد وغيرها ، لايعقل أن تكون قد ظهرت فجأة وخلال وقت قصير . ومن الظواهر البارزة فى تاريخ مملكة غانة ان المسلمين ، لأهميتهم وثقافتهم ونشاطهم سواء أكانوا من الوطنيين أو العناصر العربية التى أستوطنت المنطقة ، قد تمتعوا بإحترام وتقدير واضح من قبل الملوك الوثنيين ووجود أثنى عشر مسجدا دليل واضح على هذا الإحترام، وقد وصف البكرى ذلك (4).وقد إزداد وضوح المؤثرات العربية الإسلامية فى مملكة غانة وذلك فى الفترة التى أعقبت حركة المرابطين وذلك مما سيتم استيضاحه فى إطار دعم المرابطين للمؤثرات العربية الإسلامية .

---

(1) لوثروب ستودارد . حاضر العالم الإسلامى ، ترجمة عجاج نويهض ، تعليق الأمير شكيب أرسلان (بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، 1973م) ، صـ 368 .

(2) بازل دافدسن ، المرجع السابق ، صـ 141.

(3) القلقشندى 284/5 .

(4) البكرى ، المصدر السابق ، صـ175 .

2- المملكة الصنهاجية الإسلامية :-

من المعروف أن قبائل صنهاجة تتكون من لمتونه ومسوفه وجداله و كانت هذه القبائل الصنهاجية تنزل بالصحراء الكبرى مابين المحيط الأطلسى فى الغرب وغدامس فى الشرق وكانت ديارهم تختلط بديار السودان ، وقد وضع عقبة بن نافع الفهرى ثم موسى بن نصير اللبنة الأولى فى نشر الإسلام بين هذه القبائل .
وتؤكد المصادر التاريخية انه ما أن أنجز موسى بن نصير مهمة فتح بلاد الأندلس ، وتوقفت الفتوحات فى تلك الأنحاء ، حتى هب الملثمون لفتح بلاد السودان مشاركة منهم فى الجهاد فى سبيل الله وتحمسا لدينه وأتحدت قبائلهم تحت زعامة قبيلة لمتونة ، واستوثق لهم ملك ضخم منذ دولة عبدالرحمن بن معاوية الداخل فى الأندلس سنة 138هـ / 755 م توارثه ملوكهم فيما بعد (1) .

وأتخذ هؤلاء الملثمون مدينة أوداغست كعاصمة ومركز لدولتهم الإسلامية الناشئة التى أمتدت خلال القرن الرابع الهجرى /العاشر الميلادى من المحيط الأطلسى غربا الى قلب الصحراء شرقا(2) وضمت مساحتها فيما يقول البكرى: " مسيرة شهرين فى مثلها" (3) ، وقد تركز نشاط هذه المملكة على نشر الإسلام جنبا الى جنب مع تنشيط حركة التجارة بين بلاد السودان الغربى وبين شمال افريقيا .

وكانت أهم السلع المطلوبة فى بلاد السودان هى الملح ، مما جعل ملوك المملكة الصنهاجية يكتسبون أهمية كبرى نتيجة سيطرتهم على مصادر الملح والطرق التجارية التى تمر بها القوافل التجارية الحاملة لهذه السلعة البالغة الأهمية . يقول

---

(1) ابن خلدون 181/6.

(2) J,D: fage : An Introduction to the History of West Africa
(Cambridge , 1959), P. 21.

(3) البكرى ، المصدر السابق ، صـ 159 .

ابن حوقل : "وحاجة ملوك السودان الى ملوك أوداغست ماسة من أجل الملح الخارج اليهم من ناحية الإسلام ، فإنه لأقوام لهم إلا به " (1) .

وقد وصف ابن خلدون جهود هذه المملكة فى نشر الإسلام بتلك المناطق بقوله : "... ودوخوا تلك البلاد الصحراوية وجاهدوا من بها من أمم السودان وحملوها على الإسلام فدان به كثيرهم وأتقاهم آخرون بالجزية فقبلوها منهم ." (2).

وتتحدث المصادر والمراجع التاريخية المختلفة عن الدور الهام الذى لعبه الملك الصنهاجي تبوتان (Tibotan) الذى كان شديد الحماس لنشر الإسلام بين رعاياه ، وبين أهالى السودان الغربى المجاورين له من ناحية الجنوب (3) . وقد أتسعت المملكة الصنهاجية وترامت أطرافها حتى أصبحت مسيرة أيام من منحنى نهر النيجر وخاصة فى عهد تبوتان (ت 222هـ / 837 م) الذى أخضع قبائل الصحراء ، وارغم ملوك السودان المتاخمين لدولته على دفع الأتاوات نظير تأمين عبور قوافلهم التجارية(4) . ويبدو أن هذه الدولة تعرضت فى بعض الأحيان الى حالات من الضعف نتيجة الصراعات الداخلية ،أدت الى سيطرة مملكة غانة على العاصمة أوداغست.وبعد حالات الضعف والتشتت استطاعت قبيلة لمتونة أن تلم شعث الملثمين فى وحدة قوية بزعامة الملك تين يروتان بن ونسيو بن نزار الأودغستى ، وهو رجل من صنهاجة ، وكان قد بلغ من سعة النفوذ وقوة السلطان ، مماجعله سيدا على أكثر من عشرين من ملوك السودان كلهم يؤدى

---

(1) ابن حوقل ، المصدر السابق ، صـ 98-101.

(2) ابن خلدون 181/6.

(3) ابراهيم طرخان ، امبراطورية غانة الإسلامية ، صـ42

(4) ابن خلدون 181/6-182 .

له الجزية (1) وكـان هـذا الملـك يحكـم فـى الفـترة مـابين 961-971 م (2) .
وآخر مرحلة من مراحل قوة المملكة الصنهاجية الإسلامية هى المرحلة التى تـولى فيها الملك اللمتونى (تارسينا أو تارشينا) ، الذى يعد أول ملك صنهاجى مسـلم لقى شهرة كبيرة . ومما يروى عنه انه ذهب الى مكة المكرمة لتأدية فريضة الحـج ، وأعتنق فكرة الجهاد الإسلامى دفاعـا عـن الديـن والدولـة ولـرد عـدوان أعدائـه الوثنيين وقد مات وهو يحاربهم حوالى عـام 1023م (3). وقـد تحـدث عنـه ابـن خلدون بقوله :"...قام فيهم ابو عبيد الله بن تيفاوت المعروف بناشرت اللمتونـى فأجتمعوا عليه وأحبوه وكان من أهل الدين والصلاح وحج وهلك لثلاثة أعـوام من رياسته فى بعض غزواته وقام بأمرهـم صهره يحى بـن ابراهيـم ."(4). وبتـولى يحي بن ابراهيم الجدالى مقاليد الأمور فى المملكة الصنهاجية الإسلامية تكون وقد وضعت اللبنات الأولى لحركة المرابطين (القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى) تلك الحركة التى أعطت سندا سياسـيا للتأثـير العربـى الإسـلامى فـى السودان الغربى ، وذلك كمـا سـيأتى ذكـره. ورغـم إصـرار بعـض الدراسـات التاريخية على الإشادة بالفتح المرابطى للسودان الغربى وإعتباره فاتحة لتدفق التجار والدعاة والبـدو والفقهـاء والمعلمـين علـى المنطقـة ، ممـا يعنـى فتـح البـاب علـى مصراعيه أمام مؤثرات الحضارة العربية الإسلامية فى المنطقة فأنه يبـدو أن تغلغـل المؤثرات العربية الإسلامية فى المنطقة سابقة لمرحلة جهاد المرابطين والدليـل علـى ذلك جملة من الإشارات التاريخية من بينها ماأشار اليه القلقشندى من أن سـكان

---

(1) البكرى ، المصدر السابق ، صـ159 .

(2) ابراهيم طرخان ، امبراطورية غانة الإسلامية ، صـ 42

(3)Triming ham :Ahistory of Islam in West Africa .P.22.

(4) ابن خلدون 182/6 .

غانة قد أسلموا فى أول الفتح الإسلامى (1)، ومـاأورده البكـرى مـن خـلال إشـارته الى وصـول جيـوش بنـى أميـة واستقرار بقاياهم بتلـك المنطقـة حيـث قال:"... وببلاد غانة قوم يسمون بالهنيهيين من ذرية الجيش الذى كان بنـو أميـة انفذوه الى غانة فى صدر الإسلام وهم على دين أهل غانـة الا أنهـم لاينكحـون فى السودان ولاينكحوهم فهم بيض الألوان، حسـان الوجوه ."(2).ومـن هـذه الإشارات مـا أورده البكـرى فـى وصفـه لمدينةغانـة (3) ، وفـى وصفـه للقسـم الوثنى منها (4) . وكذلك إشارته الى دخول العناصر العربية المسلمة فى دواويـن الملوك الغانيين كمـترجمين وموظفـين ووزراء (5) وقـد أشـارت بعـض الروايـات التاريخية الى الإتصال المبكر للفاتحين المسلمين بتلك المنطقة ، وذكرت ان عقبة بن نـافع استطاع أن يـدرك بـلاد السـودان الغربـى ويصـل الى منحنـى نهـر النيجـر ومصب نهر السنغال وقد بقيت ذكراه تنبعث عـبر الأجيـال متمثلـة فـى حـرص بعض القبائل فى غرب افريقيا على الإنتساب إليه (6) .وفى هـذا الصـدد أشـار الرحالة بارث (Barth) الى أن الرواية المحلية السودانية تؤكد انه كان بغانة جالية

---

(1) القلقشندى 284/5

(2) البكرى ، المصدر السابق ، صـ179

(3) المصدر نفسه ، صـ175 .

(4) الصفحة نفسها .

(5) الصفحة نفسها .

(6) جمال زكريا قاسم ."الروابط العربية الإفريقية قبل حركـة الكشـوف الجغرافيـة وبـدء حركـة الإستعمار الأوروبى فى القرن الخامس عشر " . العلاقات العربية الإفريقية ، دراسـة تاريخية للآثـار السـلبية للإستعمار .القاهرة : معهد البحوث والدراساتالعربية ، 1977م ، صـ26 .

إسلامية وعدد من المساجد منذ عام 60 هـ / 680م (1). هذا وغير ذلك من الإشارات التي وردت أثناء الحديث عن إنتشار الإسلام بغانة.

رابعا :- جهاد المرابطين في السودان الغربي ونتائجه :-

للإلمام بالأثر الهام الذي أحدثه جهاد المرابطين من كسر للحاجز الوثني وإدخال المؤثرات العربية الإسلامية الى مناطق السودان الغربي ، وفتح الطريق على مصراعيه أمام التجار والدعاه والمعلمين والفقهاء والمهاجرين الى السودان الغربي . للإلمام بكل ذلك يستلزم تحديد المنطقة التي ظهرت فيها هذه الدعوة ، والتي مارست فيها جهادها وخلفت فيها آثارا هامة . انطلقت حركة المرابطين من صحراء شنقيط * أوما يسمى اليوم موريتانيا ، وتشبه هذه الصحراء الشاسعة البلاد الحجازية أرضا وماشية ونباتا ".(2) وتحدها من الجنوب بلاد السودان حيث مملكة غانة ومن الغرب المحيط الأطلسي ، أو بحر الظلمات كما كان يعرف

(1) H ,Barth : Travels and discoveries in North and central Africa vol,iv, P.579.

* شنقيط أو شنجيط كانت في الأصل تطلق على قرية من قرى ولاية ادرار الموريتانية ، ومعناها : عيون الخيل ، ويقال أنها بنيت أول الأمر في القرن الثاني الهجرى/الثامن الميلادى ثم جددت في القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى في موضعها الحالي ، ولم يلبث اسمها ان اطلق على القطر كله ، وصار أهل البلاد عموما يعرفون بالشناقطة .

أنظر : محمد يوسف مقلد . شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون .(الدار البيضاء : مكتبة الوحدة العربية ، 1962م) ، صـ56 ؛الخليل النحوى .شنقيط المنارة والرباط .(تونس : المنظمة العربية للعلوم والثقافة ، 1987م) ، صـ20 .

(2) احمد مختار العيادى ، الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ، صـ48 .

قديما ومن الشرق نهر النيجر عندما يلتوى شمالا الى جهة تمبكتو ومن الشمال منطقة سجلماسة التى يقال لها اليوم تافيلالت *. فى هذه الصحراء كانت تعيش صنهاجة اللثام ، ومن أشهرها : قبيلة لمتونة فى شمال الصحراء ، ثم تليها جنوبا قبيلة مسوفة ، ثم قبيلة جدالة بالقرب من نهر السنغال (=نهر صنهاجة) ، ونهر النيجر ، وساحل المحيط الأطلسى .ولقد انتشر الإسلام بين هذه القبائل عن طريق السرايا العسكرية التىأرسلها حكام المغرب الأوائل ومن بينها نقلا عن رواية ابن عبدالحكم(1) حملة أرسلها والى المغرب عبيد الله بن الحيحاب بقيادة حبيب بن ابى عبيدة الفهرى ، حفيد عقبة بن نافع الى صحراء موريتانيا وارض السودان . وازداد تدفق العقيدة الإسلامية بفعل التجار الذين كانوا يجوبون هذه المناطق ، ورغم كل هذه الجهود فإن اسلام هذه المناطق كان ضعيفا وسطحيا وذلك حتى ظهور المرابطين على مسرح الأحداث فى أوائل القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى ، حيث قام المرابطون بدور هام فى نشر تعاليم العقيدة الإسلامية بين تلك القبائل المتناحرة .ويرجع الفضل فى قيام الحركة المرابطية الى زعيم سياسى هو الأمير يحي بن ابراهيم الجدالى ** ، والى زعيم دينى هو الفقيه عبدالله بن ياسين الجزولى ***، وكلا الرجلين ، وكما هو واضح من اسميهما من أصل صنهاجى . ونتابع الآن صاحب كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، وهو من أهم المصادر التى أرخت للحركة المرابطية ، نتابع حديثه

---

* تافيلالت الحالية تقابل مقاطعة سجلماسة القديمة ، أما مدينة سجلماسة فتقابلها اليوم مدينة الريسانى انظر : احمد مختار العبادى ، الصفحات الاولى من تاريخ المرابطين ، صـ40 .

(1) ابن عبدالحكم ، المصدر السابق ، صـ218 .

** الجدالى : نسبة الى قبيلة جدالة الصنهاجية .

*** الجزولى : نسبة الى قبيلة جزولة الصنهاجية .

عن بداية الدعوة المرابطية، حيث يقول "...والموجب لخروجهم من الصحراء الى وطن المغرب ، أن أحد بنى جدالة ، ويعرف يحي بن ابراهيم كان قد توجه لأداء فريضة الحج ، واجتاز فى إيابه على مدينة القيروان . .. وحضر بها مجلس الفقيه المدرس ابى عمران الفاسي ، فسأله عن قبيلته ووطنه ، فذكر له أنه من الصحراء من قبيلة جدالة أحد قبائل صنهاجة ، فقال له الفقيه مامذهبكم ؟ فقال له : مالنا علم من العلوم ، ولامذهب من المذاهب ، لأننا فى الصحراء منقطعون لايصل الينا الا بعض التجار الجهلاءحرفتهم الإشتغال بالبيع والشراء لا علم عندهم وفينا أقوام يحرصون على تعلم القرآن، وطلب العلم ويرغبون فى التفقه فى الدين لوجدوا الى ذلك سبيلا فعسى ياسيدنا أن تنظر من طلبتك من يتوجه معنا الى بلادنا ليعلمنا ديننا فقال له الفقيه: سأنظر لك فى ذلك ان شاء الله وعرض الفقيه الأمر على الطلبة ، فلم يوافقه أحد، لبعد الشقة، والانقطاع فى الصحراء ، فدله على رجل من فقهاء المغرب الأقصى ، استوطن بالوس يدعى : وكاك بن زولو كان مشهورا بالخير والعبادة ، كانت بينهما معرفة ، فخاطبه فى القضية ، وأكد عليه بالمشاركة فيها ، فلما وصل يحي بن ابراهيم المذكور ، اجتمع به ، واكرمه ، واجتمع به ودفع اليه كتابه ، فرحب به واكرمه ، واختار له رجل يعرف بعبدالله بن ياسين الجزولى من طلبة الشيخ المذكور فأرسله معه ، ودخل الصحراء ، الى بلاد جدالة ، وهو مع يحي بن ابراهيم "(1) . ورغم اجماع المؤرخين على فحوى هذه القصة مع بعض الإختلافات الطفيفة، فإن الموضوع المختلف عليه بين المصادر التاريخية التى ارخت للمرابطين، هو تاريخ خروج يحي بن ابراهيم لهذه المهمة فقد ذهبوا فى ذلك مذاهب شتى .

---

(1) الحلل الموشية ، المصدر السابق ، صـ19-20 ،أما لفظ "القيروان" الوارد فى النص فهو لفظ فارسى دخل فى العربية ومعناه محط الجيوش ومناخ القافلة وموضع اجتماع الناس فى الحرب .

فالقلقشندى ، يرى أن تاريخ رحلة يحي بن ابراهيم هو سنة 440 هـ (1)، وابن الأثير (2) يرى انه خرج عام 428 هـ ، اما ابن ابى زرع (3) يرى ان تاريخ خروجه هو عام 427 هـ أو 428 هـ، وحيث ان كل الروايات تؤكد قصة اللقاء مع ابى عمران الفاسى ، وان كتب التاريخ والتراجم والطبقات تؤكد ان ابا عمران الفاسى قد توفى سنة 430 هـ فإنه من المنطقى أن تكون هذه الرحلة قد وقعت سنة 427 هـ أو 428 هـ أو 429 هـ على الأكثر، وذلك طبقا لرواية ابن ابى زرع ورواية ابن الأثير ويتضح من النصوص التاريخية ان ابن ياسين لم يجد ماكان يتوقعه من قبول لمبادئه ودعوته الإصلاحية . وتفسير ذلك ان المجتمع اللمتونى كان غارقا فى الجهالة والبعد عن مبادىء الدين الصحيحة ، وهذا ما دعاه الى التفكير فى الإعتكاف والإعتزال فيما سمى تاريخيا باسم (رباط ابن ياسين) ، ويحدد حسن أحمد محمود فى دراسته للمرابطين موقع رباط عبدالله ابن ياسين بأنه فى جزيرة تقع أمام مصب نهر السنغال حيث تتصل بالبر صيفا وتغمرها المياه شتاء (4). ويبدو أنه كان أمام ابن ياسين مهمتان هما :-

1- اصلاح عقائد القبائل الصنهاجية وغيرها من القبائل التى ظهر بينها المشعوذون والمتنبئون وخاصة فى المغرب الأقصى .

2- مجاهدة القبائل الزنجية الوثنية ومملكة غانة ، التى تصاقبهم من الناحية الجنوبية والشرقية وتسيطر على المسالك التجارية الهامة. وتخبرنا المصادر التاريخية ان

---

(1) القلقشندى 189/5 .

(2) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ ، راجعه وصححه : محمد يوسف الدقاق .(بيروت : دار الكتاب العلمية)، ج 8 ، صـ 330 ومايليها .

(3) ابن ابى زرع .الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب ، وتاريخ مدينة فاس . (الرباط 1973م) ، صـ36 .

(4) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ،صـ 125 .

الإمام عبدالله بن ياسين قد استشهد وهو يقاتل قبائل برغواطة بالمغرب الأقصى (1) وتولى من بعده القيادة الروحية والسياسية للمرابطين الأمير ابو بكر بن عمر ، الذى لعب دورا أساسيا فى تاريخ الحركة المرابطية . وبعد أن حقق ابن عمر انتصارات فى الشمال قرر العودة الى الجنوب ليلعب دورا هاما فى مسار الأحداث .

1- الصراع المرابطى - الغانى

يرى بعض المؤرخين أن عودة الأمير ابوبكر بن عمر الى الجنوب ، كانت بسبب تنامى أخبار عن وقوع اضطراب بين القبائل الصحراوية الصنهاجية ، ولاسيما لمتونة وجدالة ، ونضيف الى أسباب العودة الى الجنوب هو أن الأمير ابابكر قرر العودة الى الصحراء ، وترك مباهج الحياه الرغدة فى الشمال ، حيث استخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين على الشق الشمالى من الدولة ، فى عاصمتهم الجديدة مراكش ،عمل ذلك ليؤدى رسالته التى خلدته بين عظماء المجاهدين ، وهى مجاهدة القبائل الزنجية الوثنية وعلى رأسها مملكة غانه ، وكسر الحاجز لتتدفق المؤثرات العربية الإسلامية الى ماوراء الصحراء . وتحدثنا الروايات التاريخية ان المرابطين قد قاموا عام 1054 م بفتح أوداغست ، واستردوها من مملكة غانه التى سبق وان اغتصبتها من الملثمين (2) وهدف الملثمون من احتلالهم اوداغست ذات الأهمية التجارية والإستراتيجية الى تحقيق عدة أغراض هى الإستيلاء على هذه المدينة الهامة، والثأر لما حاق بالملثمين من هزيمة،

(1) الحلل الموشية ، المصدر السابق ، صـ23 .

(2) محمد عبدالله عنان . عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، 1964م) ، صـ65

ولنشرالإسلام (1) وقد أوغل المرابطون جنوبا فى السودان الغربى ، ودليلنا على ذلك ان المؤرخين يتكلمون عن أن ملك التكرور حالف المرابطين وخاض الحرب الى جانبهم (2). واذا ماعلمنا أن شعب التكرور يضـرب الى الجنوب مـن ملـك غانة، أدركنا أن المرابطـين قـد أوغلـوا فـى ديـار غانـة حتـى أشرفوا علـى ديـار التكرور. وبعد الوجهة الى الشمال التى اتجهتها الحركـة المرابطيـة، كمـا سـلفت الإشارة، اتجهت جموع المرابطين جنوبـا لتصفيـة بقيـة الحسـاب مـع مملكـة غانـة الوثنية ، وحققت عليها انتصارا حاسما بـإحتلال عاصمتهـا كومبـى صـالح عـام 469 هـ / 1076 م، وأقـاموا عليهـا حـاكمـا مسـلما (3). وبافتتـاح المرابطـين لكومبى صالح قاموا بنشر الرباطات وبناء المسـاجد. وواصـل الأمـير أبوبكـر بـن عمر فتح بـلاد السـودان حتـى وصـل الى بـلاد ونجـارة حيـث منـاجم الذهـب . ويصف ابن ابى زرع ماوصل اليه الأمير ابوبكر بـن عمـر مـن سلطان بقولـه: " استقـام لـه أمر الصحـراء الى جبـل الذهـب مـن بـلاد السـودان "(4) ، وواصـل حملاته العسكرية ضد الممـالك الزنجيـة الوثنيـة المجـاورة ، الى أن أستشـهد بسـهم مسموم عام 480 هـ /1087 م .(5) .وترك الأمير ابوبكر بن عمر مقاليد الأمور من بعده لابنه يحى الذى واصل نشر الإسلام على رأى صـاحب الحلـل الموشية الـذى يقـول : "... وأسلـم أهـل غانـة وحسـن اسلامهـم عنـد خـروج الأمـير

---

(1) البكرى ، المصدر السابق ، صـ 150.

(2) المصدر نفسه ، صـ167 - 168 .

(3) ابراهيم طرخان ، امبراطورية غانة الإسلامية ، صـ46 .

(4) ابن ابى زرع ، المصدر السابق ، صـ136 .

(5) المصدر السابق ، صـ136 .

ابى يحي ابن الأمير ابوبكر اللمتونى اليهم ." (1) .ويبدو ان جهـاد المرابطـين فـى السودان الغربى لم ينته بوفاة ابى بكر بن عمر بـل أستمر فـى عهـد يوسـف بـن تاشفين وابنه على بن يوسف ، ويبدو ان يوسف بن تاشفين ، رغم مشـاغله ، لم يتردد فى الإسهام مساهمة فعالة فى الجهاد ببلاد السودان ، حتى قيـل انـه قضـى على أغلب مملكة السوننكى ، ويقصد بها مملكـــة غانة (2) .

2- دعم المرابطين للمؤثرات العربية الإسلامية

كان من نتاج الحركة المرابطية ، وكمـا سـلفت الإشـارة ، سـقوط مملكـة غانة الوثنية واعتناق شعبها المعروف بالسوننكى الإسلام وانتشـارهم الواسـع فـى مناطق السودان الغربـى ، ممـا أدى الى إنتشـار الإسـلام واللغـة العربيـة فـى تلـك المنطقه . وبالرغم من أن المرابطين هم أول من حقق وحده سياسية جمعـت بـين المغرب الأقصى والسودان الغربى والأندلس ، فإن تفاقم الأحداث السياسـية فـى الشمال الإفريقى ، وذلك نتيجة تزايد ضغوط الفرنجة ، وسعيهم لطـرد المسـلمين من الاندلس ، مما جدا بملوك الطوائف الى الاستنجاد بالمرابطين ، الذين لبوا النداء وتخلوا عن نفوذهم السياسى فى المنطقـة غـير ان نفوذهـم الثقـافى حـدد المسـار الحضارى لشعوب المنطقـة فالثقافـة العربيـة الإسلاميـة التـى انتشرت بهـا كانت

---

(1) الحلل الموشية ، المصدر السابق ، صـ7

(2) حسن ابراهيم حسن . انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى .(القـاهرة : معهـد البحـوث والدراسات الافريقية ، 1957) ، صـ57 .

مغربية السمات ، وساد المذهب المالكى * الذى وضع المرابطون لبنته الأولى (1) ومن خلال هذه الوحدة نفذت المؤثرات العربية الإسلامية الى المنطقة على نطاق واسع ، وقد لعبت الجماعات العديدة ، التى صار الإسلام عقيدتها واللغة العربية لغتها ، دورا كبيرا فى هذا الصدد . ومن أبرز نتائج الحركة المرابطية فى الميدان الثقافى هو تأسيس مدينة تمبكتو التى أصبحت حاضرة للثقافة العربية الإسلامية فى غرب افريقيا عموما (2) وظهرت نتائج هذه المؤثرات فى اعتناق العديد من ملوك المنطقة للإسلام وانتقال ممالكهم من الطور الوثنى الى الطور الإسلامى ، ومن أمثلة ذلك ملوك مملكتى مالى وسنغاى (3) . ومن أمثلة ذلك أيضا مايذكرة المؤرخون من ان الملك السوننكى (تنكامين) الذى كان يحكم غانة عند فتح المرابطين لها قد قبل الدخول فى الإسلام والخضوع لسلطان المرابطين ، وبإسلامه دخل الكثيرون من سكان العاصمة وغيرها من المدن الغانية فى الإسلام (4) .وأشتهرت بعض هذه المدن بكثرة عدد المسلمين فيها ، ومنها غيارو (Ghiarou) القريبةمن نهرالنيجر الأعلى ، التى وصفها البكرى بقوله : "... وفيها كثير من المسلمين " (5) ، وكذلك يرسنى الواقعة الى الغرب من غيارو:"... ويسكنها المسلمون وماحولها مشركون"حسب رواية صاحب

---

* المذهب المالكى: نسبة الى الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامربن عمرو الحارث ولد عام 93هـ / 711 م وتوفى عام 179 هـ / 795 م ، وهو مذهب شائع فى شمال افريقيا وبلاد السودان بصفة عامة .

(1) عصمت عبداللطيف دندش ، المرجع السابق ، صـ141 .

(2) حسن احمد محمود،الإسلام والثقافة العربية فى افريقيا .(القاهرة: دارالفكرالعربى، 986م)، ص216.

(3) المرجع نفسه ، صـ217 .

(4) ابراهيم طرخان ، امبراطورية غانة الإسلامية ، صـ47.

(5) البكرى ، المصدر السابق ، صـ177

المغرب (1) .وقد عملت قبائل السوننك على نشر الإسلام على نطاق واسع فى هذه المنطقة ، وتحولت دولتهم الى دولة اسلامية ، حيث أقامت علاقات متميزة مع الخلافة العباسية فى بغداد ، وأجبرت رعاياها على لبس العمامة(2) مقلدين بذلك المرابطين الذين اتخذوا من السوادشعارا لهم فى ملابسهم وراياتهم (3) وقد تعرض السوننك عقب سقوط دولتهم المركزية على يد قبائل الصوصو الى التشتت وانتشروا فى أجزاء بلاد السودان الغربى ، مما يرجح انه مكنهم من نشر الإسلام على نطاق واسع . أما الصوصو فهم كانوا احدى ولايات مملكة غانة ، ولكنهم خرجوا عن طاعتها ووجهوا لها الضربة السياسية القاضية ، وذلك بمهاجمتهم العاصمة كومبى صالح وتدميرها حوالى عام 1203م (4) .

وكان من نتاج ذلك هو هجرة بعض سكانها وخاصة من المسلمين وبالذات من قبائل العرب المغاربة وتأسيسهم مدينة ولاته (5) الشهيرة ، والتى لعبت هى الأخرى أدوارا هامة فى ترسيخ المؤثرات العربية الإسلامية فى تلك البقاع .

---

(1) المصدر نفسه ، صـ177.

(2) ابراهيم طرخان ، امبراطورية غانة الإسلامية ، صـ49 .

(3) صلاح الدين عبدالهادى مصطفى ."إسهام المرابطين فى نشر الاسلام فى الشمال الإفريقى والسودان الغربى ، المؤرخ العربى ، بغداد : 12: 31 (1987م) ، صـ211.

(4) ابراهيم طرخان ، امبراطورية غانة الإسلامية ، صـ53 ومايليها .

(5) بوفيل ، المرجع السابق ، صـ154 .

خامسا :- مسار التأثير العربى الإسلامى منذ قيام مملكة مالى الإسلامية حتى رحلة منسا* موسى الى الحج.

تعد دولة مالى الإسلامية من أهم الدول المركزية التى ظهرت فى السودان الغربى ، وقد قامت بدور بارز فى نشر الإسلام والدعوة له فى مناطق غرب افريقيا عموما (1). وقد أطلق الكثيرون على مالى اسم بلاد التكرور، غير أن العمرى ميز جليا بين التكرور وبين مالى وأشار الى أن التكرور هى أحدى المدن أو المقاطعات التى كانت تابعة لمملكة مالى (2)، وذلك كما سلف الإيضاح. وقد أختلف الكثير من الكتاب العرب من المؤرخين والجغرافيين فى ضبطها فالبكرى يسميها (ملل) (3)، وابن بطوطة يسميها (مالى) (4)، والعمرى يطلق عليها (مالى) (5)، ومحمود كعت (مل) (6) ، والوزان (مالى) (7) والسعدى (ملى) (8) . ونحن نعتقد ان الإسم الصحيح هو مالى كما

---

* استخدم لفظ منسا أو منسى بمعنى السلطان أو الملك فى مملكة مالى الإسلامية واستخدم لفظ أسكيا أو أسقيا بذات المعنى فى مملكة سنغاى الإسلامية ، بينما استخدم لفظ ماى والجمع مايات بنفس المعنى فى كانم - بورنو .

(1) ابراهيم طرخان ، الإسلام واللغة العربية فى السودان الغربى والأوسط ، صـ17ومايليها .

(2) العمرى ، المصدر السابق ، صـ 34 .

(3) البكرى ، المصدر السابق ، صـ178 .

(4) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ444 .

(5) العمرى ، المصدر السابق ، صـ 34 .

(6) كعت ، الصدر السابق ، صـ38 .

(7) الوزان 164/2.

(8) السعدى ، المصدر السابق ، صـ9 .

ورد لدى ابن بطوطة ، لأنه زارها فى فترة ازدهارها ووصفها وصفا ينم عن المامه الكامل باحوالها المختلفة ، اضافة الى صحة ضبطه لمدنها وقراها وأسماء ملوكها وعلمائها. ويعتقد أن مؤسسى دولة مالى هم قبائل الماندنجو (Mandingo) (1) التى تتكون من أربعة فروع رئيسية هى : المالنك والبامبارة والديولا والسوننك (2) . ومعروف ان تاريخ نشوء مملكة مالى غير محدد بشكل دقيق ، اذ ترى بعض الرويات ان هذه الدولة ظهرت فى الفترة التى تكونت فيها مملكة غانة، وذلك قبل البعثة النبوية الشريفة بزمن طويل (3) ، حيث انها كانت فى البداية أحدى مقاطعات مملكة غانة .

وقد عرفت مالى الإسلام كغيرها من بلاد السودان الغربى ، منذ زمن يسبق حركة المرابطين أو خلالها ، وأزدادت أعداد المعتنقين للعقيدة الجديدة بعد حركة المرابطين. ويعتقد ان من أبرز خصائص انتشار الإسلام فى بلاد السودان الغربى، انه تضاعف انتشاره بعد اعتناق الطبقات المتنفذة والأسر الحاكمة له . وقد وصف البكرى اسلام أول ملوك مالى بقوله "... وملكهم يعرف بالمسلمانى وانما يسمى بذلك لأن بلاده أجدبت عاما بعد عام فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها ولايزدادون الا قحطا وشقاء وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة فشكا اليه الملك مادهمهم من ذلك فقال له ايها الملك لو امنت بالله تعالى واقررت بوحدانيته وبمحمد (صلم) وأقررت برسالته واعتقدت بشرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما انت فيه وان تعم الرحمة أهل بلدك وان يحسدك على ذلك من عاداك وناوأك فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته واقراه من كتاب الله ماتيسر عليه وعلمه من الفرائض والسنن

---

(1) ابراهيم طرخان ، دولة مالى الإسلامية صـ26 .

(2) المرجع نفسه ، صـ30 .

(3) السعدى،المصدر السابق ، صـ9ومايليها ، ابراهيم طرخان ،امبراطورية غانة الإسلامية،ص40.

مالا يسع جهله ثم استانابه الى ليلة الجمعة فأمره فتطهر فيها طهرا سابغا والبسه المسلم ثوب قطن كان عنده وبرزا الى ربوة من الأرض فقام المسلم يصلى والملك على يمينه يأتم به فصليا من الليل ماشاء الله والمسلم يدعو والملك يؤمن فما انبلج الصباح والا والله قد اعمهم بالسقى فأمر الملك بكسر الدكاكير واخرج السحرة من بلاده وصح اسلامه واسلام عقبه وخاصته وأهل مملكته مشركون فوسموا ملوكهم مذ ذاك بالمسلمانى " (1) . ومؤسس هذه المملكة هو ساندياتا (Sandiata) ، الذى أشتهر عند الكتاب العرب باسم مارى جاطه (Mari DGata)،ومعنى كلمة(مارى)الأميرالذى يكون من نسل السلطان وكلمة جاطة تعنى الأسد(2) ، وكان مارى جاطة من اول الذين تحولوا الى الإسلام . ويقال إن دولة مالى الإسلامية قد أزدهرت فى عهد خلفاء مارى جاطة ، فأمتدت بين غانة فى الغرب وأرض التكرور فى الشرق وأعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان (3) . وكان من أشهر ملوك مالى على الإطلاق هو منسا موسى (712-738هـ/ 1312 -1337م)، الذى تعتبر فترة حكمه بمثابة العصر الذهبى لمملكة مالى . وفى الحقيقة أن مارى جاطة ومنسا موسى هما أعظم سلاطين مالى وكان لهما الفضل فى تكوين الدولة .وإذا كان مارى جاطة هو البطل الإسطورى لشعب مالى ، فإن منسا موسى هو المفضل عند الكتاب العرب المسلمين ، وبهذا يمكن القول إن مارى جاطة قد جعل ولاية مالى

---

(1) البكرى ، المصدر السابق ، صـ178 .

(2) القلقشندى 29315 .

(3) الناصرى السلاوى .الإستقصاء لأخبار دولة المغرب الأقصى ، تحقيق وتعليق محمد الناصرى وجعفر الناصرى (الدار البيضاء: دار الكتاب،1955م)،ج2 ، ص100.

دولة مترامية الأطراف ، وأن منسا موسى قد أكمل عمل سلفه وكون الشخصية الإسلامية للإمبراطورية وأعطاها شهرتها العالمية (1) ومن أبرز خلفاء مارى جاطة ابنه منسا ولى ، الذى تولى مقاليد الأمور خلفا لأبيه حوالى عام 654 هـ / 1255 م ، ويفسر القلقشندى كلمة ولى بمعنى على (2) . ومن دلائل خضوعة للمؤثرات العربية الإسلامية هى قيامه برحلة الى الحج زار خلالها مصر عام 658 هـ/ 1259 م ، زمن السلطان الظاهر بيبرس (3) .

وفى عام 712 هـ / 1312 م آلت المملكة لمنسا موسى الذى توطدت فى عهده علاقات مالى بالمشرق العربى والشمال الافريقى (4)، وبلغت المؤثرات العربية الإسلامية فى المجالات السياسية والإقتصادية والثقافية والإجتماعية ذروتها بالمنطقة لاسيما بعد حجته الشهيرة الى الأراضى المقدسة التى قام بأدائها عام 725هـ/1323-1324م وقد كانت هذه الرحلة بادرة هامة لتوثيق علاقات السودان الغربى مع المنطقة العربية لاسيما مصر والحجاز .

وقد نالت هذه الرحلة المشهودة مكانا بارزا فى المصادر التاريخية المعاصرة لها ، وذلك لما تميزت به من ضخامة الموكب الذى رافق السلطان والأبهة والترف اللذان أحاطا هذه الرحلة، حيث أصطحب السلطان منسا موسى فى تلك الرحلة العديد من أتباعه الوطنيين الأفارقة، وكميات كبيرة من الذهب الخالص صرفها بسخاء أثناء إقامته بكل من مصر والحجاز. وقد تمكن منسا موسى ومرافقوه من

---

(1) R . Oliver : The Cambridge History of Africa , VOL, 3.P.380.

(2) القلقشندى 193/5 .

(3) المقريزى .الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الملوك ، تحقيق جمال الدين الشيال .(القاهرة : مكتبة الخانجى ، 1955 م) ، صـ110-111 ؛ القلقشندى 293/5 .

(4) أنظر الملحق رقم (1) صـ 198.

الإطلاع على الأحوال الحضارية التى كان يعيشها الوطن العربى آنـذاك. فشـرع فى الإستفادة منَ هذه الإنجازات الحضاريـة التـى بـرزت فـى المجـالات السياسـية والإقتصادية والثقافية والإجتماعية.وعند عودته رافقه العديد من العلماء والفقهاء والتجار والمهندسين المعمـاريين ، والصنـاع مـن مختلـف التخصصـات ، وبذلـك شـهدت المنطقـة تيـار حضـارى مشـرقى ومـن هنـا شـهدت التأثـيرات العربيـة الإسلامية فى السودان الغربى دفعة قوية فى النواحى المختلفة ويمكـن أن يقـال إن هذه الرحلـة قـد وضعـت أساسـا متينـا ودفعـة قويـة لإنطلاقـة التأثـيرات العربيـة الإسـلامية فـى السـودان الغربـى خـلال القـرون الرابـع عشـر والخـامس عشـر والسادس عشر .

الفصل الثانى

التـــأثير السياسى

أولا :- تأثير النظم العربية الإسلامية

1- النظام السياسى
2- النظام الإدارى
3- النظام القضائى
4- النظام الحربى

ثانيا :- العلاقات مع الممالك العربية الإسلامية المعاصرة فى مصر والشمال الإفريقى

1- المماليك فى مصر
2- بنو مرين والسعديون فى المغرب الأقصى .

تشير المصادر التاريخية الى أن علاقات الشمال الإفريقى بالسودان الغربى راسخة فى القدم حيث تمتد جذورها الى ماقبل الإسلام . كما أن علاقات مصر بتلك النواحى قديمة ، أيضا ، لاسيما حينما أقامت صلات تجارية مع مملكة غانة الشهيرة بمملكة الذهب .بيد أن المصادر المتاحة لم تعط صورة تاريخية عن حدوث هجرات جماعية مباشرة من مصر بقصد الإقامة والسكن فى السودان الغربى الذى كان فيه التأثير العربى المغربى بارز السمات منذ وقت مبكر . حيث بدأت العناصر العربية التى إستوطنت المنطقة تخالط السكان وتتصاهر معهم ، فكان ذلك بداية التهجين الثقافى والعرقى والتأثير العربى الإسلامى الحقيقى الذى أمتد الى البنية الأساسية للدولة والمجتمع . لقد أصبح التأثير العربى الإسلامى فى السودان الغربى واضحا ، وذلك منذ القرن الحادى عشر الميلادى بفضل حركة المرابطين وجهادهم ، بالإضافة الى الجهود المقدرة التى بذلها كل من التجار والبدو والحجيج والعلماء وجلهم من قبائل صنهاجة والشناقطة والمغاربة فى نشر الحضارة العربية الإسلامية فى تلك المناطق. ومما لاشك فيه أن الوطنيين الأفارقة ، ممن درسوا بالأزهر الشريف والمغرب وتمبكتو وغيرها من المراكز التعليمية ، قد بذلوا جهودا كبيرة لتوسيع رقعة الثقافة العربية الإسلامية ، مما حدا ببعض المؤرخين أن يزعموا أن الإسلام قد أنتشر فى غرب أفريقيا بفضل الإفريقيين أنفسهم(1) ، أما عن تغلغل التأثير السياسى العربى الإسلامى فى السودان الغربى منذ القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى فقد أشار الى ذلك البكرى ، الذى لاحظ أن معظم مترجمى ملوك السودان الغربى وموظفى بيت المال

---

(1) على ابوبكر . الثقافة العربية فى نيجيريا 1950-1960م ، عام الإستقلال،(بيروت : مؤسسة عبدالحفيظ البصاط ، 1962م)، صـ32 .

ووزرائهم ، وقتئذ ، كانوا من العرب المسلمين (1) . وقد وصل هؤلاء الى مراكز هامة مما دفع بملوك السودان الغربى إلى أن يؤسسوا لهم مسجدا قريبا منهم رغم أن هؤلاء الملوك لم يعتنقوا الإسلام(2) وبديهى أن يحظى العرب بمكانه مرموقه فى بلاط ملوك السودان الغربى وأمرائه بسبب إلمامهم بالقراءة والكتابة، فضلا عما تحلى به الكثيرون منهم من خصال حميده كالصدق والأمانة وحسن المعاشرة. وقد قوى نفوذ العرب المسلمين سياسيا بفتح المجال لهم لمصاهرة الأسر السودانية الحاكمة والنبيلة وإستثمار نظام الوراثة عن طريق الأم الذى كان سائدا فى تلك المناطق ، حيث تقلد أبناؤهم من زوجاتهم الوطنيات الأفريقيات الوظائف القيادية فى الممالك السودانية (3). وأدى ذلك ، ليس الى التعامل مع الأسر الحاكمة والنبيلة فحسب، بل أمتدت مخالطة هذه الجماعات العربية الوافدة الى عامة أهالى المنطقة، حيث أمتزجوا معهم وصاهروهم وشاركوهم فى السكن والحياة الإجتماعية والإقتصادية، مما أكسبهم ثقة الوطنيين الأفارقة وحكامهم، الأمر الذى أتاح لهم تقلد أرفع المناصب كالقضاء والديوان والخزانة والإستشارة وغيرها. فأثروا فى أهالى السودان الغربى وحكامه وتأثروا بهم. ونتج عن هذا كله إعتناق عدد كبير من أهالى المنطقة العقيدة الإسلامية (4) . ومن الشواهد التاريخية التى تؤكد عقد عدد من العناصر العربية لصلات مصاهرة مع الأسر السودانية الحاكمة ماأورده ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر

---

(1) البكرى ؛ المصدر السابق ؛ صـ175.

(2) المصدر نفسه ؛ صـ175 .

(3) قمر الدين محمد فضل الله ."لمحة تاريخية عن مملكة سنغاى الإسلامية 1468-1591م" ، مجلة كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس : 4 (1987) ، صـ216 .

(4) المرجع نفسه ، صـ214 .

الميلادى فى قوله : "... ولما وصلت الى مالى ... وصلت الى محلة البيض وقصدت محمد بن الفقيه الجزولى فوجدته قد اكترى لى دارا أزاء داره ... وكان ابن الفقيه متزوجا بينت عم السلطان ."(1) . ويقصد ابن بطوطه بالسلطان فى هذا النص منسا سليمان سلطان مالى إبان رحلته الشهيره الى المنطقة . ومن خلال إشارة إبن بطوطه الى ابن الفقيه الجزولى الذى قام بدور الوساطة بينه وبين منسا سليمان (2) . يبدو أن ابن الفقيه كان لديه حظوة لدى منسا سليمان ، ويرجح أنه كان أحد مستشاريه . وهذا أحد الأدلة على وصول العناصر العربية التى هاجرت وأستوطنت السودان الغربى الى مناصب سياسية وإدارية هامة .

كما أن سنى على (869-898هـ/ 1464-1492م) مؤسس مملكة سنغاى الإسلامية ينتمى الى أسرة ضياء ، التى يعتقد أنها وفدت على المنطقة من اليمن أو من طرابلس بليبيا *، وهذا دليل على أنه سليل إحدى الأسر العربية التى هاجرت الى المنطقة منذ وقت مبكر، ووصل أحد أبنائها الى تكوين مملكة حكمت أجزاء واسعة من بلاد السودان الغربى . كما عمل أبراهيم الخضر الفاسى ، الذى قدم على السودان الغربى من المغرب الأقصى ، كاتبا خاصا لسنى على ، وعاش حتى عاصر الاسكيا محمد الكبير وعمل أيضا كاتبا له الى أن توفى وخلفه فى منصبه أبنه حوى (3). كما أفاد محمود كعت بأن على بن عبد الله بن عبد الجبار اليمنى كان يعمل كاتبا بديوان الاسكيا محمد الكبير

---

(1) ابن بطوطه . تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .(بيروت : دار الكتاب اللبنانى)، صـ444.

(2) المصدر نفسه ، صـ445 .

* أنظر مناقشة أصل أسرة ضياء ضمن فقرات هذا الفصل.

(3) السعدى ، المصدر السابق ، صـ68 .

وكان مقربا منه وموضع ثقته (1) . وهذه الشواهد تؤكد وصول العناصر العربية التى سكنت السودان الغربى الى مواقع قيادية هامة مما أتاح لها امكانية نقل المؤثرات السياسية العربية الإسلامية الى تلك الربوع ومن مظاهر التأثير السياسى العربى الإسلامى فى السودان الغربى الملحوظة، ظاهرة إدعاء النسب العربى وهى ظاهرة جديرة بالدراسة والتحليل. ومعروف أن الهجرات البشرية والإختلاط السكانى بين الوطن العربى وبين بلاد السودان قد نسجت حولها أساطير مفادها : أن أسرا معينة فى بلاد السودان ، وخاصة الأسر ذات الجاه والنفوذ والسلطان ترجع باصولها الى الى ارومة عربية قد قدمت مع دخول العرب المسلمين الى هناك بقيادة عقبة بن نافع الفهرى (2) ، بل هناك من يرى : أن تلك الأسر جاءت قبل الفتح العربى لأفريقيا بزمن بعيد (3) .والمتتبع لتلك الأساطير والحكايات التى تناقلها الأبناء عن الأجداد يجد أنها تمثل مظهرا من المظاهر الثقافية .

لاشك إن هذه الأساطير المتعلقة بسلالات تلك الشعوب قد حيكت لتمييز أسرة حاكمة عن أسرة أخرى وذلك بتأكيد صلاتها وروابطها بالعالم الإسلامى (4) . وأن تلك الحكايات والأساطير لاتأتى من فراغ ولابد أنها تشير الى بعض الحقائق

---

(1) كعت ، المصدر السابق ، صـ74 .

(2) عبدالقادر صالح نور الدين ." علاقات فزان بكانم بين 3-7هـ /9-13م " ، رسالة ماجستير غير منشورة ، (طرابلس : جامعة الفاتح ، كلية التربية قسم التاريخ ، 1986م) ، صـ135 .

(3) المرجع نفسه ، صـ136 .

(4) أ.م، كانى ." مظاهر الإتصالات الفكرية بين شمال افريقيا ووسط السودان بين سنة 700م و 1700م "، مجلة البحوث التاريخية ، 1 (1981 م) . صـ11

التاريخية التى تعمــق الصلـة والعلاقـة الإجتماعيـة بين الوطـن العربـى وسـكانه ، وخاصة سكان الشمال الإفريقى ، وبين الدول والممالك الإسلامية الإفريقية فيمـا وراء الصحراء الكبرى ، حيث أن هجرات بشرية عديدة فردية كانت أم جماعيـة جاءت الى بلاد السودان الغربى وهى ترجع فى أصولها الى الوطن العربـى ، وقـد تمكنت من المساهمة فى انتقال مجتمعـات السـودان الغربـى ممـا تعـانى مـن جهـل وتخلف دل عليهما إنتشـار السـحر والشـعوذة، ونهضـت بـه سياسـيا وإقتصاديـا وثقافيا وإجتماعيا (1) وقد كـانت الأسـر الحاكمـة السـودانية فـى تلـك المنـاطق تحرص على توطيد مركزها بإدعاء انتسابها الى نسب عربـى شـريف تستمد منـه نفوذا سياسيا وروحيا وذلك لإكتساب شرعية دينية تعزز من مكانتهـا فـى أعـين مواطنيها (2) .ويبدو أن هذه الظاهرة لم تقتصر على السودان الغربى فقـط ، بـل عرفت حتى فى المناطق المجـاورة فقـد أدعـت مملكـة كـانم - بورنـو * بالسـودان

---

(1) عبدالقادر صالح نورالدين ، المرجع السابق ، صـ136 .

(2) قمر الدين فضل الله ، المرجع السابق ، صـ215 .

* للمزيد حول مملكة كانم - بورنو أرجع الى :-

ابراهيم صالح يونس . تاريخ الإسلام وحياة العرب فى امبراطورية كانم - بورنو . (جامعـة الخرطـوم ، كليـة الآداب شعبة أبحاث السودان ، 1970 م) ؛ ابراهيم على طرخان . امبراطورية الـبرنو الإسـلامية . القـاهرة : (الهيئـة المصريـة العامـة ، 1975) ؛ زيـن العـابدين عبدالحميـد السـراج ، دولـة كـانم الإسـلامية ، (رسـالة ماجستير غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، كلية الآداب (1975م) ؛ .صالح الصادق السيانى مملكة كانم - بورنو وعلاقاتها بأقطار الشمال الإفريقى من القرن الثالث الى العاشر الهجرى (القرن التاسع الى السادس عشر الميلادى) ، (رسالة ماجستير غير منشورة) ، جامعة محمد الخامس ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط : 1988م - 1989 م .

الأوسط الإنتساب الى أصول عربية .هذا بالإضافة الى ممالك السودان الغربى مثل غانة ومالى وسنغاى وغيرها . فبالنسبة لمملكة كانم فى السودان الأوسط نجد القلقشندى قد نقل عن السلطان الكانمى عثمان بن أدريس رسالة يقول فيها : " نحن بنو سيف بن ذى يزن والد قبيلتنا العربى القريشى كذا اضبطناه عن شيوخنا ."(1) ، ويشكل هذا النص التاريخى دلالة واضحة على أن الحكام الكانميين اتخذوا لأنفسهم نسبا حميريا * يرجع الى سيف بن ذى يزن . وقد تسمى هؤلاء الحكام بالسيفيين نسبة الى ذلك و لم يكتف حكام كانم المسلمون بذلك ، بل سعوا الى الحصول على الإعتراف الشرعى من الخلفاء المسلمين بالشرق ، وذلك لكى يصبغوا على حمكهم الصفة الشرعية ويكتسبوا بذلك الهيبة والجلال ، ليس بين شعوبهم فقط ، بل حتى بين الدول المجاورة لهم أو التى تعامل معها وارتبطوا بها ، ولذلك : " تلقب بعضهم بألقاب منها : سيف الخلافة وظهر الإمامه وعضد الدولة أمير المؤمنيين ." (2) .

وبالنسبة لمملكة غانة، فإن ملوكها الأوائل ينحدرون من أصول عربية صنهاجية، وذلك كنتيجة من نتائج الحركة السكانية والإمتزاج المبكر بين سكان الشمال الإفريقى وبين السودان الغربى . أما عن أدعائهم الإنتساب الى أصول عربية شريفة فقد أشار الى ذلك الأدريسى بقوله : " وغانة مدينتان على ضفتى

---

(1) القلقشندى 8/ 117 .

* يلاحظ وجود التبلس بين نسب سيف بن ذى يزن الحميرى وبين النسب القريشى الوارد فى النص ويبدو أن هذا الإلتباس ، كما يرى بالمر ، أن سيفا التقى بسيد قريش عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف الذى هنأه على إنتصاره على الأحباش عام 602 م ، ودارت بينهما محاورة عقب فيها عبد المطلب مخاطبا سيف " اذن انت ابن اختنا " .ومن هذه المقابلة الأسطورية جاءت دعوى الصلة بالنسب القريشى .

(2) القلقشندى 8/7 .

البحر الحلو ...وملكها فيما يوصف من ذرية صالح بـن عبـدالله بـن الحسين بـن الحسن بن على بن أبى طالب (1) . وكذلك أبو الفـداء بقولـه : " ومدينـة غانـة محل سلطان بلاد غانة ويدعى انه من نسل الحسن بن علـى عليهمـا السـلام."(2) أما فى مملكة مالى فأسرة كيتا ، التى ينتمى اليها مارى جاطة ، والتى يرجع اليها الفضل فى تأسيس مملكة مالى . يعتقد أن أصـول هـذه الأسرة عربيـة إسـلامية . يقول ديلافوس (Dellafosse) ، أن موسى ديجيـو (M.Dyigiu) ، أحـد أسـلاف أسرة كيتا المشار اليها ، والذى يعرف بلغة الماندنجو باسـم الاكـوى (Allakoi) ، قد تبوأ عرش مالى مابين عامى 1200 - 1218م . يقال إنــه ينتمـى الى سلالـة بـلال بـن رباح مـؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه قد وفـد مـن الحجـاز الى أرض المانـدنجـو(=مالى) (3) . وبالإضافة الى ذلك تنسب بعض من الروايـات التاريخية المتواترة أسرة كيتا ، المشار اليها ، الى الأسرة العلوية من سلالة على بـن أبى طالب كرم الله وجهه. يقول القلقشندى : " وصاحب التكـرور هـذا يدعـى نسبا الى عبـدالله بـن صـالح ، بـن الحسين ، بـن علـى بـن أبـى طـالب كـرم الله وجوههم ، قلت : هو صالح بن عبدالله بن موسى ، بن عبدالله أبى الكـرام ، بـن موسى الجون ، بن عبدالله ، بن الحسـين المثنى ، بـن الحسـن السبط ، ابـن أمـير

---

(1) الإدريسى ، المصدر السابق ، صـــ23 ، والمقصود بالبحر الحلو فى هذا النص هو نهر النيجر الذى تقـع مدينة غانة على أحد ضفتيه ، وقد آكدت الحفريات الحديثة ذلـك ، والمعروف أن الكتابـات القديمـة كـانت تسمى النهر بحرا .

(2) اسماعيل ابوالفداء . تقويم البلدان .(باريس : دار الطباعة السلطانية ، 1850م) ، صـ157.

(3) نقلا عن : ابراهيم طرخان ؛ دولة مالى الإسلامية ؛ صـــ35 .

المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ." (1) .وهكذا ، يتضح حرص ملوك مالى على إدعاء النسب العربى وإنحدارهم من أرومة عربية شريفة . وبالنسبة لملوك سنغاى الأوائل ، يتفق هنويك (Hunwick) مع رأى ديلافوس القائل بأن أسرة (ذا اليمان) أو (ضياء اليمان)(Dia Aliaman)المؤسسة لمملكة سنغاى فى كوكيا (جاو) قد وفدت من المشرق العربى وهى ذات أصل يمنى (2) . ويقول السعدى أن ذا الايمن أول ملوك سنغاى جاء من اليمن (3) . بيد أن عبدالقادر زبادية ، يرى أن عائلة ضياء أوديا هذه كانت تتزعم قبائل لمطة وهوار القاطنة فى طرابلس بليبيا ، ثم أنتقلت مع القبائل المذكورة الى جهات النيجر ، منذ زمن قديم ، حيث حكمت سنغاى حتى عام 1335 م (4) ثم أنتقل الحكم بعدها الى عائلة سنى التى حكمت سنغاى فيما بين 1335م و1493م ، ومؤسس حكم أسرة سنى هو الملك سنى على الذى ترك لقب ذا أوزا متخذا بدلا منه لقب سنى بمعنى المحرر (5).ويعتقد أن سنى على أتخذ هذا اللقب ليظهر

---

(1) القلقشندى 298/5. كما تتفق بعض المراجع الحديثة فى إرجاع نسب ملوك مالى الى سلالة على بن أبى طالب رضى الله عنه . أنظر : حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية فى افريقيا صـ243 ؛ يوسف فضل حسن ، انتشار الإسلام فى افريقيا ، صـ22 .

(2) J.o, Hunwick : "Religion and State in Songhay Empire", Islam in Tripoical Africa" P.29 .

(3) السعدى ، المصدر السابق ، صـ4 .

(4) عبدالقادر زبادية . الحضارة العربية والتأثير الاوروبى ، دراسات ونصوص .(الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1989م) ، صـ26 .

(5) السعدى ، المصدر السابق ، صـ3 .

نفسه ملتزما بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبذا يكـون لفـظ سـنى مشتق من السنة المحمدية (1) . وعائلة سنى هذه تنحدر من عائلة ضياء المشـار اليهـا إذ أن سنى على ، هو ابن أحد أمراء سنغاى وهو ضياء اسيباى على رأى عبدالقـادر زبادية (2) وبنهاية حكم آل سنى عام 1493 م ، تولى مقاليد الأمور فى سـنغاى الاسكيا محمد الكبير (1493- 1528م) . ورغم أن بعض المراجع التاريخيـة تشـير الى أن الاسكيا محمد الكبير مؤسس أسرة الاساكى من أصل سـودانى (3) ، غـير أن المؤرخ محمد الصغير الوفرانى يخالف ذلك الرأى ويرى أن الاسكيا محمد الكبير مؤسس أسرة الاساكى المعنية يرجع فى أصوله الى أسرة عربية صنهاجيـة سـكنت جنوب موريتانيا الحالية (4) . ويرى ترمنجهام (5) أن اسرة ضياء هـذه هـى مـن الزغاوة الذين كانوا يسكنون حوض تشاد .

ومن المعروف أن الزغاوة يعودون فى أصولهم الى منطقة فزان بجنـــوب ليبيـا حسب رأى اليعقوبى (6) ، كما يرى نفس الرأى عبدالقادر زبادية (7) . ورغـم تباين الآراء المشار اليها حول أصول ملوك سنغاى هل هم من اليمـن حسـب مـا ذكـر هنويـك وديلافـوس والسـعدى ؟ أم مـن طرابلـس الغـرب حسـب رأى

---

(1) الشيخ الأمين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ66 .

(2) عبدالقادر زبادية ، الحضارة العربية والتأثير الاوروبى ، صـ26 .

(3) المرجع نفسه ، صـ26

(4) الوفرانى . نزهة الهادى بأخبار ملوك القرن الحادى . ط2.(الرباط :مكتبة الطالب ، 1989م) ، صـ89 .

(5) Trimingham: A history of Islam in West Africa .P.86

(6) اليعقوبى . تاريخ اليعقوبى .(بيروت : دار صادر ، د-ت)، مج 1 ، صـ191

(7) عبدالقادر زبادية ، الحضارة العربية والتأثير الأوروبى ، صـ24 .

عبدالقادر زبادية ؟ أو من فـزان بجنـوب ليبيـا حسـب رأى ترمنجهـام واليعقوبـى وزلتر . ومادامت الروايات الثلاث تؤكـد انتمـاءهم الى أحـد الاقـاليم الثـلاث : اليمن أو طرابلس الغرب بما فيها فزان فإن هـذا يرجـح أن يكونـوا مـن أرومـات عربية. ومن هنا ، يمكن الإستنتاج أن ملوك سنغاى الاوائل هم من العرب المغاربة الذين اختلطت دماؤهـم بالدماء السودانية .كما أنهـم أستفادوا مـن نظـام الوراثـة من ناحية الأمومة فى الوصول الى بعض المناصب فى بلاط الحكم السـودانى (1).

ورغم أن مسألة إدعاء النسب العربى قـد خالطتـه فـى بعـض الأحيـان الأسـاطير والحكايات التقليدية التى تناقلها الأحفاد عن الأجداد ، فإنه من المرجـح أن تلـك الحكايات والأساطير ومانسج حولهـا لم تـأت مـن فـراغ ، ولكنهـا تؤكـد عمـق الصلات والروابط القديمة المختلفة بين الوطن العربى ، وبالذات منـاطق الشـمال الإفريقى وبين السودان الغربى .

وبديهى ، لم تأت ظاهرة إنتساب الأسر الحاكمة فى السودان الغربى الى أصـول عربية ؛ الا بعد سيادة التأثير العربى الإسلامى فى المنطقة بفضـل جهـود الوسـائل المتنوعة والعديدة التى ساهمت فى ترسيخ المؤثرات العربية الإسلامية علـى التربـة الإفريقية وكانت النظم الإدارية فى طليعة هذه المؤثرات .

---

(1) قمر الدين فضل الله ، المرجع السابق ، صـ216 .

أولا :- تأثير النظم العربية الإسلامية

لقد حرص ملوك السودان الغربى وحكامه المسلمون على إقتباس النظم العربية الإسلامية التى كانت سائدة آنذاك ، لاسيما فى الشمال الإفريقى ومصر والحجاز . ووضحت معالم هذه التأثيرات جلية على النحو التالى :-

1- النظام السياسى :-

يلاحظ أن بلاد السودان الغربى قد شهدت أنماط حكم مختلفة أمتزج فيها النمط الإفريقى المتوارث بالأنماط العربية الإسلامية الواردة التى لوحظ تطور وجودها فى ظل مملكتى مالى وسنغاى الإسلاميتين . وقد شهدت هذه المنطقة منذ وقت مبكر نظام حكم مركزى ، حيث ضعف شكل النظام القبلى القديم بالتدريج منذ أيام مملكة غانة الوثنية حتى وصلت مؤسسات الدولة الى هياكل منظمة ، لاسيما بعد انتقال الزعامة السياسية والدينية الى الوطنيين الإفارقة المسلمين فى هاتين المملكتين . ومن أبرز الملاحظات أن جهاز الحكم السودانى كان يتمتع بمركزية واضحة تؤول فيها السلطة الى الملك الذى يرأس هذا الجهاز ، ويساعده فى ذلك مجلس للوزراء وموظفون فى دواوين الدولة المختلفة . وكان الملك يصدر توجيهاته شفاهة ولايكتبها فى الغالب الأعم ، بل يأمر صاحب الديوان فيكتب بالخط العربى على طريقة المغاربة (1) .

أما فيما يتعلق بتنصيب ملوك السودان الغربى المسلمين ، فيعطى عبدالقادر زبادية صورة لحفل تنصيب أحد ملوك سنغاى وهو نظام يكاد ينطبق تماما على واقع الحال فى مملكة مالى الإسلامية ، حيث يبدأ الحفل بوصول الملك الى القصر

---

(1) القلقشندى 298/5 ؛ عبدالرحمن زكى.الإسلام والمسلمون فى غرب افريقيا . (القاهرة :مطبعة يوسف ؛ د-ت) ، صـ42 .

وبجلوسه على سرير العرش تطلق أصوات الطبول ، وتقدم اليه شارات السلطنة المكونة من قميص مزركش ولباس على الرأس شبيه بالتاج ثم يصافح الملك أعضاء جهازه التنفيذى وقائد الجيش، ويصلى فى المسجد (1). ثم يتلقى يمين الإخلاص له من قبل كبار الموظفين وأفراد العائلة الحاكمة ويجرى ذلك أمام القاضى والعلماء ، ويضع الذى يقسم بالله على الإخلاص والطاعة للملك الجديد يده على المصحف الشريف (2) .

وفى الليل تقام الحفلات الساهرة ، وفى اليوم التالى يباشر الملك الجديد مهامه ، ويبدأها بتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين (3) .

ويتضح من هذه الإشارات أن مراسم تنصيب الملوك فى السودان الغربى كانت متأثرة الى حد كبير بالممارسات التى كانت سائدة عند تنصيب بعض الحكام العرب المسلمين ومن أمثلة ذلك : إقامة مراسم قسم يمين الولاء للملك الجديد بالمسجد وعقب تأدية الصلاة ، وحملهم الشارات تشبها بالخلفاء والملوك العرب المسلمين وحرصهم على الإحسان الى الفقراء والمساكين بتوزيع الصدقات عليهم حال تسلمهم لمقاليد الأمور فى الدولة . أما عن المهام المنوطة بالملك فهى الإشراف على استتباب الأمن والعدل بين الرعية . وكان يعقد اجتماعات دورية فى فناء قصره للمشورة وتقصى أحوال الرعية والتأكد من تنفيذ توجيهاته الصادرة الى الجهات المكلفة بالتنفيذ (4) .

---

(1) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ63 .

(2) المرجع نفسه ، صـ63.

(3) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ63 .

(4) القلقشندى 301/5 .

أما عن نظام توليه الحكم فى السودان الغربى ، فقد يتولى الحكم أبنـاء البنات أو الأخوات وهى عادة كانت منتشـرة بالمنطقـة،وعلـق عليهـا القلقشـندى بقولـه : "... على قاعدة العجم فى تمليك البنت وابن البنت " (1) وعن نظام توريث ابن الأخـت لعـرش الممـالك السـودانية بالمنطقـة قبيـل خضوعهـا للتأثـيرات العربيـة الإسلامية يقول البكرى :" وسنتهم إن الملك لايكون إلا فى ابـن الأخـت ، لأنـه لايشك فيه انه ابن أخته،وهو يشك فى ابنه،ولايقطع على صحة إتصاله به".(2). ويقول فى موضع آخر : " ولايلبس المخيط من أهل دين الملك غيره ، وغـير ولى عهده هو ابن أخته "(3) وتعليل البكرى لهذه الظاهرة بتوفر اليقين فـى أن الوليـد هو أبن امـه وهـذا صحيـح ، لكـن المعـروف أيضـا أن لهـذه الظـاهرة أصـولا الى التقاليد الوثنية القديمة وهى التى تعلى من شأن المرأة عند أغلب القبـائل الأفريقيـة الوثنية وكذلك عند بعض قبائل العرب المغاربة مثل الطوارق الذين ترجع صلتهـم ببلاد السودان الى أزمنة موغلة فى القدم (4) .

وعندما دخل الإسلام الى المنطقة أضعف من هذه الظاهرة ، ولكنه لم يقض عليها قضاء تاما فـى جميع الإمبراطوريات والممالك الإسلامية بالسـودان الغربـى. وقـد شهد ذلك ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى فـى مدينـة تكدا، فلم تعجبه هذه الظاهرة مما حدا به الى التعليق بقولـه : ... ولايرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه، وذلك شيء مارأيته فى الدنيا ، إلا عند كفار بـلاد المليار

---

(1) المصدر نفسه ، صـ301 .

(2) البكرى ، المصدر السابق ، صـ175 .

(3) المصدر نفسه ، صـ175 .

(4) السعدى ، المصدر السابق ، صـ20-22 .

من الهنود ، وأما هؤلاء فهم المسلمون محافظون على الصلوات ، وتعلم الفقه وحفظ لقرآن ." (1) .

ويبدو أنه بتعمق التأثيرات العربية الإسلامية ومفاهيم العقيدة الإسلامية قد حصل تغير فى نظام وراثة العرش ، حيث أصبح يورث الإبن الأكبر أو الأخ ، بدل ابن البنت وابن الأخت ، وغنى عن البيان أن نظام وراثة الابن الأكبر أو الأخ قد عرف فى التاريخ الإسلامى منذ أن ولى معاوية بن ابى سفيان ابنه ولاية العهد فى الدولة الأموية وخلفاء الدولة العباسية، وأصبحت وراثة الحكم سمة مميزة فى الدويلات الإسلامية منذ ذلك التاريخ. وقد صار، وفق هذا التغيير ، ابن الملك نائبه وولى عهده فى نفس الوقت ، والدليل على ذلك أن منسا موسى ، خلال رحلته الشهيرة الى الحج ، قد كلف ابنه محمد بأن يكون نائبا عنه فى حكم المملكة خلال فترة غيابه (2). ويبدو من خلال إشارة ابن بطوطه الى (الفريا حسين) ومعناها : النائب حسين، والذى كان واليا بولاته (ايوالاتن) أثناء زيارة ابن بطوطه لها (3) ، أن حكام الولايات كانوا يسمون نواب الملك. وبالإضافة الى تكليف ملوك السودان الغربى لابنائهم نوابا عنهم، فإنهم أحيانا ربما يكلفون إخوتهم نوابا عنهم ، وذلك كما فعل الاسكيا محمد الكبير ، الذى عهد الى أخيه عمر كمزاغ بتولى مقاليد الأمور فى المملكة أثناء غيابه فى رحلته الشهيرة الى الحج ومنحه جميع الصلاحيات (4) ويبدو ان ملوك مالى ، كانوا يشركون زوجاتهم فى الحكم وكانت تلقب فى لغة الماندنجو باسم (القاسا) ، ومعناها

---

(1) ابن بطوطه ، المصدر السابق ، صـ443.

(2) القلقشندى 298/5 ؛ ابراهيم طرخان ، دولة مالى الإسلامية ، صـ128 .

(3) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ442 .

(4) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ38 .

الملكة أو الزوجـة الكبرى . وقد تحـدث ابـن بطوطـة عـن زوجـة منسـا سـليمان وشريكته فى الحكم والتى كانت ، علـى عادة السودان ، تشاركه الحكم ويذكر أسمهما معا على المنبر (1) .ونظرا لكون السلطان متزوجا بأكثر مـن زوجـه فقـد تتعرض القاسا، أحيانا، الى الإبعاد والعقاب الذى يصل أحيانا الى درجة السجن، فتختار الزوجة الثانية لتكون الملكة أو الزوجة الكبرى ، وذلك كما حدث عندما أشتركت القاسـا. فـى تدبيـر مؤامرة لإقصـاء منسا سليمـان عن الحكـم ، ولـما تيقـن مـن الأمـر قـرر قتلهـا ، ولم يحمهـا مـن ذلـك سـوى اسـتجارتها بـدار الخطيب (2). وهذا يوضح أيضا مكانة الخطيـب فـى مجتمـع السـودان الغربـى. كما مارس السودانيون نظام الشورى المعروف فى الإسلام ، وهذا امتثـال لقولـه تعالـى :"وأمرهم شورى بينهم" (3) كما عرفـوا نظـام البيعـة الـذى أشـتهر عنـد المسلمين . وكانت البيعة مشروطة بأن يتبـع الخليفـه كتـاب الله وسـنة نبيـه عليـه الصلاة والسلام ، والا فلا طاعة له على المسلمين . وكان نص البيعة : " نبـايعك على السمع والطاعة الأمر أمرك والنهى نهيك على الكتـاب والسـنة " (4). كمـا يلاحظ، أيضا أن حكام السودان الغربى حرصوا علـى التشبه بالخلفـاء والحكـام العرب المسلمين فى طريقة تصميم قصورهـم وقاعات الإستقبال التى عادة ماكـان يلحق بها قاعـة كبيرة يجلـس فيهـا الملك الى جـانب ضيوفـه وخاصتـه ، وكانـوا

---

(1) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ449 .

(2) ابن بطوطة ،المصدر نفسه ، صـ449 .

(3) سورة الشورى : آية (38) .

(4) أحمد شلبى ، المرجع السابق ج 6 ، صـ711 .

يسمونها (المشور*) ، وهى كلمة عربية مشتقة من المشورة (1) . ومن أمثلة هذه القاعات قاعة منسا موسى التى شيدها ابراهيم الساحلى كما سيتضح . ومن مظاهر تشبه حكام السودان الغربى بالملوك والخلفاء العرب ، أيضا ، هى تنظيم الإحتفالات الدينية، حيث يحضر الملك الى المصلى ، فتقام الصلاة والخطبة وبعدها يتغنى الشعراء بمدح الملك وذكر غزواته الجهادية فى سبيل نشر الإسلام ومدح أفعاله الحسنة فى تطبيق العقيدة الإسلامية ، وتغنى النساء والجوارى ، ويلعبون الألعاب الخفيفة منها اللعب بالسيوف وغيرها من الألعاب (2) .

كما عرفت ظاهرة جلوس الملك للنظر فى المظالم التى تقدم اليه من رعيته ، وهى مظهر عربى إسلامى معروف ، وقد عرفت هذه الظاهرة منذ أيام مملكة غانة، وذلك عقب خضوعها للمؤثرات العربية الإسلامية.

وقد سجل لنا الإدريسى ذلك واصفا ملك غانة بقوله : "... وهو أعدل الناس فيما يحكى عنه ومن سيرته فى قربه من الناس وعدله فيهم أن له جملة قواد يركبون الى قصره فى صباح كل يوم ولكل قائد منهم طبل يضرب على رأسه فإذا وصل الى باب القصر سكت فإذا اجتمع اليه جميع قواده ركب وصار يقدمهم ويمشى فى ازقة المدينة ودائر البلد فمن كانت له مظلمة أو نابة أمر تصدى له فلايزال حاضرا بين يديه حتى يقضى مظلمته ." (3) . ولايوجد مايؤكد أن هذا الملك الغانى كان مسلما غير انه كان متأثرا بما حوله من المسلمين .

---

* المشور: هوفناءخارج القصروباب القصرفىداخله أى آن الداخل الىالقصريمرأولا فى المشورثم القصر.

(1) محمود الشرقاوى .رحلة مع ابن بطوطه : من طنجة الى الصين والأندلس وافريقيا.(القاهرة)، ص381 .

(2) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص448 .

(3) الإدريسى ، المصدر السابق ، ص23 .

ويبدو أن مظاهر التأثيرات السياسية العربية الإسلامية بدأت تتضح رويدا رويدا بإنتشار العقيدة الإسلامية ومن هذه الظواهر ظاهرة تجول الملوك في الشوارع لتفقد أحوال الرعية والوقوف على أحوالها (1) . وكذلك تقوية العلاقة والروابط بين عاصمة المملكة والمقاطعات النائية عنها .كما أمتنع الولاة المحليون في المقاطعات والولايات في مملكتي مالي وسنغاي الإسلاميتين عن الإنفصال عن جسد المملكة اعتقادا منهم بأن خلع طاعة السلطان هي من باب الإرتداد عن الدين (2). كما كان ملوك السودان العربي المسلمين يرسلون رجالهم لمراقبة الأحوال في المملكة ، وإعداد التقارير المفصلة عن جميع الأوضاع لتوضع بين يدى الملك لإتخاذ اللازم . كما أنهم كانوا يفتحون بجالسهم أمام الشكاوى والمظالم التى تقدم اليهم من رعيتهم.ويشرف الملك نفسه على الفصل في هذه المنازعات . وقد وصف القلقشندى ذلك مشيرا الى ملك مالي بقوله :" تنهى اليه الشكاوى والمظالم فيفصلها بنفسه."(3) . وقد تحدث العمرى عن ذلك حين قال :" ومن عادتهم انه إذا عاد أحد ممن بعث في شغل أومهم يسأله عن كل ماتم له من حال من حين مفارقته الى حين عوده مفصلا والشكاوى والمظالم تنهى الى هذا الملك فيفصلها بنفسه وفي الغالب لايكتب شيئا بل أمره بالقول غالبا وله قضاة وكتاب ودواوين هذا ماحدثنى به الدكالي ." (4) . ومن مظاهر تشبه سلاطين السودان الغربى بالخلفاء العرب المسلمين قيام الاسكيا محمد الكبير

---

(1) نعيم قداح . افريقيا الغربية في ظل الإسلام ، ط2 .(الجزائر :الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1974م)، صـ176 .

(2) المرجع نفسه ، صـ176 .

(3) القلقشندى 300/5 .

(4) العمرى ، المصدر السابق ، صـ 40-41 ؛ القلقشندى 301/5

بتسجيل سيرته وأعماله وجهاده فى سبيل نشر الإسلام ، وقد ندب لهذه المهمة مستشاره الخاص محمود كعت التمبكتى .وبناء على ماذكر فى عاليه ، يمكن أن يقال أن النظام السياسى فى مملكتى مالى وسنغاى الإسلاميتين ، لاسيما فى عهد منسا موسى والاسكيا محمد الكبير والاسكيا داؤود ، قد أتصف بالعدل والاستقرار وروح الطمأنينة ، وهذا راجع الى حد كبير ، الى ما أتصف به هؤلا الحكام الملسمين من التزام دينى وخلقى . غير أنه فى بعض فترات هذه الدراسة ، وصل الى الحكم بعض الملوك الذين لم يلتزموا بهذا النهج ، الامر الذى أدى الى عودة بعض التقاليد والممارسات والعادات الغريبة ، التى اضعفها التأثير العربى الاسلامي فى تلك البقاع .

2- النظام الإدارى :

تجلى التأثير العربى الإسلامى فى التقسيمات الإدارية التى شهدتها كل من مالى وسنغاى ، لاسيما فى عهد أبرز سلاطينهما : منسا موسى والاسكيا محمد الكبير. فقد عرفت هاتان الدولتان النظام الإدارى المركزى حيث كانت عاصمة المملكة مقرا للحكومة المركزية التى يرأسها السلطان نفسه ، وهو الذى يفوض ولاة الأقاليم بسلطات معينة ومحددة تخولهم أن ينوبوا عنه فى إدارة شئون أقاليمهم وهذا النظام معروف فى الدول العربية الإسلامية المعاصرة وقتئذ، سواء فى المشرق العربى أو مغربه. ونسبة لتطور النظام الإدارى فى السودان الغربى فى عهد مملكتى مالى وسنغاى الإسلاميتين على النمط العربى الإسلامى ، فيتعين الوقوف على مدى ماحدث من تأثير عربى إسلامى فى هذه الفترة المعينة ، وذلك على النحو التالى :-

بالنسبة لمملكة مالى كان يقف على رأس الجهاز التنفيذى والإدارى ، بعد الملك ونائبه ، الوزير ، الذى كان يلقب باسم (صندكى Sandigui) (1) وبالإضافة الى ذلك فهو يلقب باسم رئيس العبيد هذا وتشير بعض المراجع التاريخية الى أن سلاطين مملكة مالى الإسلامية قد اعتمدوا كثيرا على طبقة العبيد المحررين ، فاتخذوا منهم قادة للجيش وحكام للولايات وجباة للضرائب وكبار الموظفين ولقبوا بلقب (البولا) أى العبيد المحررين (2) .

وقد وصل أفراد من هذه الطبقة الى مناصب إدارية رفيعة ، حيث أشتهرت فى دولة مالى أثنا عشرة أسرة كبيرة من طبقة البولا ، أمتلك أفرادها الجاه والثروة ، ومن بين هذه الأسر : كارما (Karma) وسينيرو (Sineyoro) ، وتاليورو (Taliyoro) ، ودانيرو (Danyoro) ، ونويا (Noya) ، ودامبيوريا (Daumbourya) ، وبيبابنان (Bibanban) (3) .

ويبدو أن مملكة مالى الإسلامية كانت مقسمة اداريا الى عدد من الأقاليم فحسب رواية العمرى أنها قد شملت أربعة عشر اقليما أشار اليها بقوله : " ... والذى تشتمل عليه هذه المملكة من الأقاليم غانة وزافون وترنكا وتكرور وسنغانة وبابنغوا وزرنطابنا وبيترا ودومورا وزاغا وكابرا وبراعورى وكوكو وسكان

---

(1) القلقشندى 298/5 .

(2) أحمد فتوح عابدين . الحواضر الإسلامية فى غرب افريقيا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، تاريخها السياسى والحضارى والإقتصادى ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة فى التاريخ الحديث من معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة ، 1989م ، صـ154 ؛ ابراهيم طرخان ، دولة مالى الإسلامية ، صـ128 .

(3) أحمد فتوح عابدين، المرجع السابق، صـ154 ؛ ابراهيم طرخان ، دولة مالى الإسلامية ، صـ128 .

كوكو قبائل يرتان واقليم مالى به قاعدة الإقليم مدينة يينى ..." (1). ولكن ابن خلدون قد ذكر ان أقاليم هذه المملكة خمسة عشر اقليما ، دون الإشارة الى اسمائها (2). وعن سعة هذه المملكة يقول القلقشندى : "... أن هذه المملكة مربعة، طولها أربعة أشهر أو أزيد، وعرضها مثل ذلك..."(3) أما فى مملكة سنغاى فيبدو أن نظمها الإدارية كانت شبيهه الى حد كبير بما كان عليه نظام الحكم فى مملكة مالى الإسلامية غير أن الاسكيا محمد الكبير أدخل بعض الإصلاحات الحديثة التى جعلت مملكة سنغاى تتفوق فى إدارتها على مملكة مالى (4). ومن أولى الإصلاحات الإدارية التى قام بها الاسكيا محمد الكبير هى إنشاء نيابة للملك فى تندرم وأسندها الى أخيه عمر كمزاغ ، وذلك لوقوع العاصمة جاو فى طرف المملكة ، ولكى يتمكن من الإشراف الإدارى الجيد على بقية اقاليم المملكة (5). كما قام الاسكيا محمد الكبير بتقسيم المملكة الى ولايات جعلها تتبع الى الإدارة المركزية فى العاصمة السياسية جاو وكلف واليا لكل ولاية، وأختار الولاة من بين أقربائه وعبيده المخلصين وقد بقى هذا التقسم كما بقيت تلك السنة سائدة فى تعيين الولاة واختيارهم طيلة أيام خلفائه من الاساكى حتى الغزو المغربى لسنغاى عام1591م (6) ومن هذه الولايات :-

---

(1) العمرى ، المصدر السابق ، صـ 34 .

(2) ابن خلدون 199/6 -200 .

(3) القلقشندى 282/5 .

(4) أحمد فتوح عابدين ، المرجع السابق ، صـ165 .

(5) المرجع نفسه ، صـ166 .

(6) عبد القادر زبادية ؛ مملكة سنغاى ، صـ34

1- ولاية كورما غربى نهر النيجر .

2- ولاية بالاما فى الجنوب الغربى من المملكة على حدود بلاد الموسى .

3- ولاية دندى ، الى الجنوب من العاصمة .

4- ولاية بانجو ، حول بحيرة ديبو .

5- ولاية هاريباندا ، وتقع على ضفة النيجر اليمنى المواجهة لجاو .

6- رئاسة نهر النيجر ، وكان يشرف عليها قائد الأسطول (1) .

كما أقام الاسكيا محمد وظائف ادارية لمراقبة الأحوال فى البلاد وهى : مفتشية الضرائب العامة ومشرف الشئون القبلية ومشرف الغابات ووظيفة أخرى تشبه ماكان يعرف فى المشرق العربى باسم شيخ البلد (2) ورغم أن السلطات الإدارية فى سنغاى كانت منفذة لما يقرره الملك ، وعلى مايبدو أن الأمر يختلف فى حالة الحرب فهنالك مجلس شورى يضم الحكام والقواد ورؤساء البلد ، وقد أشار السعدى الى انعقاد هذا المجلس حال ورود الانباء بقدوم المغاربة لإحتلال سنغاى (3) .

---

(1) المرجع نفسه ، صـ 34-35 .

(2) عبد القادر زبادية، مملكة سنغاى ، صـ35 ؛ أحمد فتوح عابدين ، المرجع السابق صـ169 .

(3) السعدى ، المصدر السابق ، صـ139 .

3- النظام القضائى :-

لقد كانت التأثيرات العربية الإسلامية واضحة المعالم فى مجال القضاء فملوك مملكتى مالى وسنغاى الإسلاميتين حرصوا على إشاعة العدل والأمن وعلى الإلتزام بالكتاب والسنة وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية . وكانوا يختارون القضاة * من الذين تتوفر فيهم غزارة العلم والنزاهة والتدين ، وهى صفات تحلى بها ، فى أغلب الأحيان الفقهاء والقضاة العرب الذين هاجروا وأستقروا بالمنطقة وكذلك السودانيون الذين تتلمذوا على ايديهم (1) . وبالرغم من سيادة التأثير العربى الإسلامى الوافد من منطقة المغرب العربى ، فإن النظام القضائى فى مملكة مالى الإسلامية مقتبس فى معظمه من مصر (2) . ويرجع ذلك الى الآثار الهامة التى خلفتها رحلة منسا موسى التى زار خلالها الحجاز ومصر ،واصطحابه العديد من العلماء والفقهاء والقضاة ، كما سلفت الإشارة الى ذلك .وكان من المهام الرئيسية للقاضى الفصل فى المنازعات التى قد تقع بين أفراد الشعب ، وكذلك للمناوشات التى قد تثور بين ولاة الأقاليم كما لاحظ ذلك ابن بطوطة (3) . وبالرغم من أن الملك هو الذى يقوم بمهمة النظر فى المظالم الناتجة عن ظلم الولاة . غير أن القاضى كان فى بعض الأحيان يقوم بهذه المهمة بتكلليف مباشر من قبل السلطان صاحب الكلمة العليا فى شئون المملكة . وفى هذا الصدد ذكر ابن بطوطة عند زيارته الى تكدا إحدى مقاطعات مملكة مالى الإسلامية : "... وفى أيام إقامتى بها توجه القاضى أبوابراهيم ،

---

* كان يطلق على القاضى "بانفارفم" ، كعت ، المصدر السابق ، صـ35 .

(1) أحمد فتوح عابدين ، المرجع السابق ، صـ160 .

(2) ابراهيم طرخان ، دولة مالى الإسلامية ، صـ131: أحمد فتوح عابدين، المرجع السابق، صـ60

(3) إبن بطوطه ، المصدر السابق ، صـ454 .

والخطيب محمد ، والمدرس أبوحفص ، والشيخ سعد بن على ، الى سلطان تكدا، وهو بربرى يسمى ازاز. كان على مسيرة يوم منها ووقعت بينه وبين التكركرى، وهو من سلاطين البربر أيضا منازعة ، فذهبوا للإصلاح بينهما ." (1) .

ويؤيد هذا النص ، المشار اليه ، ماذهبنا اليه من سمو مكانة القاضى فى السودان الغربى ، تلك المكانة التى أهلته الى فض المنازعات التى تقع بين حكام الأقاليم ، فضلا عن حل النزاعات التى تقع بين الأهالى . ومن الشواهد التاريخية التى تؤكد قيام القضاة بالفصل فى النزاعات التى تقع ورد الحقوق الى اصحابها ماورد من أن أحد تجار ولاته جاء الى منسا سليمان شاكيا من ظلم لحق به من قبل مشرف الشئون التجارية بولاته ، الذى أخذ منه ستمائة مثقال ذهبا وأراد أن يرد له مائة فقط ، فما كان من السلطان إلا أن كلف القاضى بإحقاق الحق ، فقام القاضى بمحاكمة مشرف الشئون التجارية وأخذ منه حق ذلك التاجر وعزل من منصبه من قبل السلطان، وذلك حسب رواية ابن بطوطة الذى كان شاهدا على ذلك الموقف (2) وكان من مهام القاضى ، أيضا ، النظر فى شئون طلاب العلم والمعرفة وكان ينفق عليهم من أملاك الاوقاف وصدقات المحسنين ، كما كان يتلقى من السلطان نصيبا من المال هو فى الغالب من ريع الأملاك الخاصة بالسلطان (3).

ويبدو أن القاضى كان يتولى الإشراف على الشئون الأخلاقية ، والإشراف على أموال اليتامى حتى يرشدوا وأموال الغرباء الذين يموتون بالمنطقة حتى يحضر

---

(1) ابن بطوطة ، المصدر السابق، صـ454 .

(2) المصدر نفسه ، صـ449

(3) السعدى ، المصدر السابق ، صـ38 .

وكيلهم أو وريثهم الشرعى (1) .وقد سجل لنا محمود كعت حرص ملوك السودان الغربىعلى تعيين القضاة فى ارجاء المنطقة بقوله :"... جدد الدين وأقام القضاة والأئمة جازاه الله عن الإسلام خيرا ونصب فى تنبكت قاضيا وفى بلدة جنى قاضيا وفى كل بلد يستحق القاضى من بلاده قاضيا ." (2) . وقد أورد محمود كعت هذا النص فى أثناء حديثه عن الاسكيا محمد الكبير ، الذى عمل مستشارا له . ورغم الثقة الكبيرة التى منحها ملوك السودان الغربى للقضاة غير أن هؤلاء الملوك كانوا يعقدون جلسات للنظر فى المظالم الناشئة عن سوء تصرف الولاة وغيرهم من الأجهزة التنفيذية .والمعروف ان القضاة فى السودان الغربى كانوا يستمدون أحكامهم من المذهب المالكى، والذى كان سائدا معظم الشمال الأفريقى . وقد كان معظم العلماء والفقهاء يتهربون من تولى منصب القضاء ، خشية تدخل الحكام فى بعض الأحيان فى إصدار الأحكام ، الأمر الذى يتجافى مع مايتحلون به من تقوى وتدين وأخلاق إسلامية سامية . غير ان بعضهم يتعرض لضغوط الحكام والحاحهم ، ويجدون أنفسهم مضطرين لتولى عبء هذا المنصب . وقد أشار المؤرخ أحمد بابا التمبكتى الى نماذج من هؤلاء القضاة ومنهم : محمد بن محمود بن ابى بكر الونكرى التمبكتى المعروف ببغيغ حيث قال عنه :"... من خيار عبادالله الصالحين والعلماء العاملين مطبوعا على الخير وحسن النية وسلامة الطوية والإنطباع على الخير وإعتقاده فى الناس حتى كاد يتساوى عنده الناس فى حسن ظنه بهم وعدم معرفة الشر مع السعى فى قضاء حوائج الناس والإصلاح بينهم ... أفنى عمره مع تشبثه بحوائج العامة

---

(1) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ450 .

(2) كعت ، المصدر السابق ، صـ59 .

وأمور القضاة إذ لم يصيبوا عنه بديلا ولانالوا له مثيلا ... " (1) .

ومنهم أيضا : محمد بن عمر محمد أقيت ، حيث قال عنه : (... قاضي تنبكت ... كان من خيار عباد الله الصالحين العارفين به ذا تبت عظيم في الأمور وهدى تام وسكون ووقار وجلالة ، أشتهر علمه وصلاحه في البلاد وطار صيته في الأقطار شرقا وغربا وظهرت ديانته وورعة وصلاحه وعدله في القضاء ونزاهته ، لايخاف في الله لومة لائم يهابه السلاطين فمن دونهم ويزوورونه في بيته فلا يقوم لهم ولايلتفت اليهم ويتهادونه بالهدايا والتحف .. تولى القضاء عام أربعة وتسعمائة فشدد في الأمور وسدد وتوخى الحق في الأحكام ولذوى الباطل هدد فظهر عدله بحيث لايعرف له نظير في وقته ..) (2) .

كما أشار ابن خلدون الى أن القاضي أبا عبدالله بن محمد وانسول من سجلماسة. كان قد هاجر الى مدينة جاو وأستقر بها وأوكلت اليه مهمة القضاء (3) . وتحدث السعدى عن تقدير الاسكيا محمد الكبير للقضاة وأورد أنموذجا لذلك قصة إستقباله للقاضي أبي البركات محمود بن عمر عند عودته من الحج عام 1508م (4) ، حيث قدم الاسكيا محمد من مقر سلطانه بجاو الى تمبكتو لإستقباله كما أن الاسكيا الحاج محمد الثاني (1582-1586م) ، وهو ابن الاسكيا داؤود ، قد تعرض لمؤامرة من قبل شقيقه محمد ينكن وقد آزره في هذه المؤامرة القاضي العاقب آقيت ، ولكن الاسكيا الحاج محمد الثاني عاقب

---

(1) التمبكتي . نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، إشراف وتقديم عبدالحميد الهرامة . (طرابلس : كلية الدعوة الإسلامية ، 1989م)، صـ600-601 .

(2) المصدر نفسه ، صـ607 .

(3) ابن خلدون 201/6 .

(4) السعدى ، المصدر السابق ، صـ74 .

شقيقه بالقتل وعفا عن القاضى العاقب ، بل وعندما وافته المنية عام 1583م جاء الاسكيا محمد الثانى لتقديم التعازى فيه (1) ، وتحدث السعدى عن المكانة الرفيعة التى كان يتمتع بها القاضى العاقب آقيت بقوله :" ... كان رحمه الله مسددا فى أحكامه ثبتا فيها صلبا فى الحق لاتأخذه فى الله لومة لائم قوى القلب جدا مقداما فى الأمور العظام التى يتوقف جسورا على السلطان فمن دونه لايبالى بهم ووقع له معهم وقائع وكانوا يخضعون له ويهابونه ويطاوعونه فيما يريد إذا رأى مايكره عزل نفسه وسد بابه فيلاطفونه حتى يرجع ..." (2) . وبعد وفاة القاضي العاقب نصب القاضى أبا حفص بن عمر بن محمد آقيت ، الذى كان زاهدا فى تولى هذا المنصب (3) . ومن المعروف أن القاضى أبا حفص كانت تربطه علاقات مع السلطان أحمد المنصور السعدى ، وقد تراسلا فى إطار التمهيد للإحتلال المغربى للسودان الغربى (4) .

ومما يؤكد سمو مكانة القاضى فى دولة سنغاى أن قسم الولاء الذى يقسمه الاسكيا الجديد الذى ينصب فى الحكم يجرى أمام القاضى والعلماء،حيث يقوم الاسكيا بوضع يده على المصحف الشريف وتلاوة القسم (5) .

---

(1) محمد العزبى ، المرجع السابق ، صـ61 .

(2) السعدى ، المصدر السابق ، صـ40 .

(3) محمد العزبى ، المرجع السابق ، صـ61-61 .

(4) المرجع نفسه ، صـ185 ومابعدها .

(5) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ63 .

كما أن القاضى كان فى مقدمة الذين يحضرون جلسات الملك (1) ، ومما يدل على احترام القاضى أيضا أن السلطان لم يكن يصافح أحدا بيده سوى القاضى (2) ، وذلك تقديرا لمكانته السامية فى نفس الملك . ورغم المرتبة الرفيعة التى صار يتمتع بها القضاة وخاصة لدى الملوك ، فإن هؤلاء الملوك على مايبدو لم يخولوا القضاة الفصل فى القضايا التى تخص أمن الدولة والأمن العام ؛ إذ كان الملك يبت فيها شخصيا أو يوكل الأمر الى أحد مستشاريه . وعادة ماتكون الأحكام التى تفصل فى مثل هذه الجرائم صارمة ورادعة . وهذا الإجراء منطقى،لأن سلطة القاضى لم تتعد الحكم بالجلد أو الإيداع فى السجن(3) ومما يدل ، أيضا ، على المكانة السامقة التى حظى بها القضاة وخاصة فى أواخر دولة سنغاى ، ماأوضحه جون هنويك ، من أن جوذر باشا ، قائد جيوش مراكش التى أحتلت تمبكتو عام 1000 هـ /1591م ، عند بحثه عن مأوى لجنوده ، طرق باب القاضى عمر بن محمود بن محمد أقيت ، ولم يذهب الى نائب السلطان، وذلك للمكانة الرفيعة التى يحظى بها القاضى عمر بن أقيت . كما كان الباشا محمود بن زرقون ، قائد الجيوش المراكشية فيما بعد ، يلجأ للقضاة فيما يتعلق بشئون المدينة وسكانها (4) .

ووصف محمود كعت القضاء فى تمبكتو قائلا : "... ليس فيها حكم الا حكم متولى الشرع ولاسلطان فيها والقاضى هو السلطان وبيده الحل والربط

---

(1) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ448 .

(2) كعت ، المصدر السابق ، صـ35 .

(3) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ75 .

(4) J,o,Hunwick : "Ahmad Baba and the Moroccan invastion of the Sudan (1591) " Journal of the HistoricalSociety of nigeria 2:3 1962( ) . p.312.

وحده ..." (1). وقد اكتسب القضاة التقدير والإحترام فكان قضاة المدن الكبرى من كبار العلماء العرب المغاربة ، أما القرى فكان يعين لها قضاة من العلماء الوطنيين نظرا لمركز هذه القرى ويطلق عليهم (الفع أى الفقيه) (2) .
وخلاصة القول ، ان بصمات التأثير العربى الإسلامى كانت واضحة فى النظام القضائى فى السودان الغربى ، سواء أكان فى عهد مملكة مالى أم مملكة سنغاى .
وقد ساهم القضاة ، ومعظمهم من العرب المغاربة ، فى نشر العدالة والأمن والطمأنينة فى ربوع تلك البلاد ، لأنهم كانوا يصدرون احكامهم بنزاهة وحيدة وبدون إستجابة لأهواء الحكام الذين ربما تساور بعضهم رغبة فى الخروج على حكم من أحكام الشرع الإسلامى .

4- النظام الحربى .

نتيجة للتأثير العربى الإسلامى ، اكتسب السودان الغربى القدرة على تكوين جيوش نظامية ساعدت على ضمان وحدة مملكتى مالى وسنغاى الإسلاميتين والوقوف ضد أعدائها . ولقد أستطاعت مملكة مالى الإسلامية تعديل نظامها الحربى لتواكب ماهو سائد فى الممالك الإسلامية المعاصرة وأن تكسر شوكة القبلية وتقوى سلطتها المركزية .
وقد تطور النظام الحربى فى مملكة مالى على عهد الاسكيا محمد الكبير ، وأصبح يعرف نظام التعبئة والتجنيد والجيش النظامى (3) . وقامت جيوش الاسكيا محمد بممارسة عدد من أساليب الحرب التى كانت معروفة فى الوطن العربى والعالم

---

(1) كعت ، المصدر السابق ، صـ179 .

(2) أحمد فتحوح عابدين ، المرجع السابق ، صـ77.

(3) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ65 .

الإسلامى ومنها : محاصرة المدن الحصينة والتضييق عليها وحملها على الإستسلام، وإرسال السرايا الخفيفة لتتقدم الجيوش بقصد الإستكشاف (1) ،كما تم فى أحيان عديدة إرسال الجواسيس لإستطلاع مدى قوة العدو والمسالك المؤدية الى أرضه ، وذلك كما فعل بعض ملوك سنغاى مع بلاد الموسى الوثنية (2) .

ومن أبرز هذه المظاهر أيضا تبنى سلاطين الممالك الإسلامية بالسودان الغربى لسياسة الجهاد تأكيدا للروح الإسلامية التى غلبت عليهم ، وكان ميدان الجهاد هو المناطق الوثنية المتاخمة للمنطقة والتى تنزل فيها الشعوب الوثنية (3) .

ويلاحظ أن بعض المستشرقين وكثيرا من الكتاب ذوى النظرة الإستعمارية ، والذين تحركهم أحقاد دفينة ضد العناصر المسلمة ، قد حاولوا النيل من حركة الجهاد الإسلامى التى تبناها بعض السلاطين الأفارقة المسلمين ، وكان غرض هؤلاء المستشرقين التقليل والتشكيك فى العلائق الحضارية التى ربطت العرب والأفارقة منذ القدم ، والتى قويت فيما بعد باعتناقهم عقيدة واحدة هى العقيدة الإسلامية وقد برزت هذه الآراء على سبيل المثال لا الحصر فى كتابات بعض المستشرقين من أمثال : ترمنجهام ، الذى الف ستة كتب عن الإسلام فى افريقيا منها (الإسلام فى غرب افريقيا) . والمؤرخ مونى ، صاحب كتاب (الجدول الجغرافى لافريقيا الغربية فى العصور الوسطى). وبارث الذى زار المنطقة وكتب عنها دراسة بعنوان : (وصف وسط وشمال افريقيا) وغيرهم . وقد ركز هؤلاء الكتاب وأمثالهم على وصف العرب والإفارقة المسلمين بأنهم نخاسون ، وأن حروبهم ضد المجتمعات الأفريقية الوثنية كانت تهدف الى الإستعباد والاسترقاق،

---

(1) المرجع نفسه ، صـ70 .

(2) الصفحة نفسها .

(3) حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، صـ219 .

ناسين أو متناسين أن النخاسة وتجارة الرقيق هى مهنة أوربية صرفة مارسها الاوربيون منذ أن حطت سفنهم فى سواحل افريقيا وغيرها من بقاع العالم الاخرى (1). ولم يكتف هؤلاء المؤرخون الغربيون بذلك بل شنوا حربا شعواء ضد ممارسة السلاطين الأفارقة المسلمين للجهاد المسلح لرد كيد اعدائهم، وأشاروا الى أن مسألة مقارعة السلاطين الأفارقة المسلمين لاعدائهم بقوة السلاح هى دليل على ان الإسلام قد انتشر بحد السيف. متجاهلين أن هذه الحروب الجهادية كانت فى معظمها من منطلق الدفاع عن حياض الممالك الإسلامية فى السودان الغربى ومما يؤكد ذلك ان العديد من الجماعات الوثنية عاشت فى احضان المسلمين الافارقة فى روح من التسامح الدينى (2).

كما قصد هؤلاء المؤرخون الغربيون من خلال إدعاءاتهم هذه، الإساءة الى العلاقات العربية الأفريقية، تمهيدا لنشر المسيحية فى القارة الافريقية (3).

وهكذا يمكن الإستنتاج أن التأثيرات العربية الإسلامية فى مجال الحياة السياسية قد وضحت الى حد كبير، وأحدثت تغييرات هامة بما يتفق وروح الإسلام الذى صار عقيدة لأهل تلك المنطقة. ورغم بقاء بعض المظاهر الوثنية مؤثرة فى المجتمع مثل: تذلل المواطنين لملوكهم وتحيتهم له بنثر التراب على رؤوسهم وظهورهم، وضرورة خلع حذاء الزائر للسلطان قبل دخول مجلسه وعدم العطس بمجلس السلطان، وظهور السلاطين فى مواكب من الأبهة مما يتنافى مع التواضع والبساطة التى تدعو اليها العقيدة الإسلامية غير أن ذلك لايقلل من أهمية الأثر الهام الذى أحدثه إنتشار مفاهيم العقيدة الإسلامية فى تلك الربوع.

---

(1) محى الدين صابر. العرب وافريقيا، العلاقات الثقافية. (بيروت : المكتبة العصرية، 1987م)، صـ18.

(2) قمر الدين فضل الله، المرجع السابق، صـ220.

(3) جميلة التكيتك، المرجع السابق، صـ70.

ثانيا : العلاقات السياسية مع بعض الممالك العربية الإسلامية المعاصرة فى مصر والشمال الافريقي.

لوحظ أن معظم ملوك السودان الغربى وحكامه فى عهد مملكتى مالى وسنغاى الإسلاميتين ، قد أهتموا بتوطيد علاقاتهم السياسية مع الدويلات العربية الإسلامية التى عاصرتهم ، لاسيما مع المماليك فى مصر وشريف مكة ، كما كانت علاقاتهم وثيقة ووطيدة مع المغرب الاقصى فى ظل المرينيين والسعديين أكثر من تلك التى تربطهم على سبيل المثال ، مع الحفصيين فى تونس ومع بنى عبدالواد الزيانيين بالمغرب الأوسط (الجزائر) . وربما يعزى السبب فى ذلك الى أن الأوضاع السياسية فى كل من تونس والجزائر ، وقتئذ ، كانت مضطربة. الأمر الذى جعل مجال التعاون السياسى مع السودان الغربى منحصرا فى نطاق ضيق .

و لم يأت تطلع ملوك السودان الغربى المسلمين الى توطيد علاقاتهم السياسية مع الوطن العربى من فراغ ،بل كانوا ينظرون اليه كإشعاع روحى يستمدون منه المعرفة وتعاليم العقيدة الإسلامية، فضلا عن تعزيز مكانتهم فى أعين مواطنيهم حينما يحصلون على تفويض شرعى بتقليدهم السلطة فى بلادهم (1) .

وقد تجسدت قوة هذه العلاقات السياسية فى حرص ملوك السودان الغربى، على

---

(1) سعيد عبدالفتاح عاشور . العصر المماليكى فى مصر والشام . (القاهرة : دار النهضة العربية 1965م) ، صـ342-347 .

ربط أنسابهم بأنساب عربية شريفة*واتخاذهم أسماء وألقاب عربية، ومحافظتهم على أداء فريضة الحج الى الأراضى المقدسة ** ، وذلك للدلالة على ارتباطهم المصيرى بالجذور العربية الإسلامية الأصيلة . وبديهى أن يساعد كل ذلك على تدعيم وشائج العلاقات السياسية بين بلاد السودان الغربى وأقطار الوطن العربى المعنية خلال الفترة المؤرخ لها .

1- المماليك فى مصر .

تميزت فترة هذه الدراسة ، وهى الفترة الواقعة بين القرنين الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى والعاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، بأنها عصر ازدهار مملكتى مالى وسنغاى الإسلاميتين فى السودان الغربى،ويقابل هذه الفترة فى مصر ازدهار سلطنة المماليك، الذين حكموا مصر منذ منتصف القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى وحتى سقوط دولتهم على أيدى الأتراك العثمانيين فى أوائل القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى.

ويبدو أن إحياء الخلافة العباسية من قبل سلاطين المماليك فى مصر (1) الذى تم سنة 659 هـ /1261 م ، وذلك على أثر سقوطها فى بغداد على يد المغول سنة 656هـ/1258م كان ذا أثر كبير فى توطيد عرى العلاقات السياسية بين مصر والسودان الغربى .ومن أهم العوامل التى ساهمت فى توطيد عرى العلاقات

---

* حول حرص ملوك السودان الغربى على ربط انسابهم بانساب عربية شريفة ، راجع بداية هذا الفصل.

** حول أداء ملوك السودان الغربى لفريضة الحج فى مواكب كبيرة ، راجع الفصل الرابع من هذه الدراسة (التأثير الثقافى والاجتماعى).

(1) سعيد عاشور ، المرجع السابق ، صـ342.

السياسية بين السودان الغربى ومصر ، هو وقوع مصر فى طريق الحج الى الاراضى المقدسة. وقد تحدثت المصادر التاريخية المختلفة * عن مواكب الحجيج السودانيين عبر الاراضى المصرية ، ومن أشهرها موكب السلطان منسا موسى الذى وصل الى القاهرة فى رجب 724 هـ /1324م ، وهو فى طريقه الى الاراضى المقدسة ، وقد أستقبل فى مصر بما يليق من تقدير واحترام ، فأوفد السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعض كبار أمرائه لإستقباله، وعين المهمندار** الأمير أبا العباس أحمد بن الجاكى ليكون مرافقا له أثناء إقامته بمصر(1) . وتمثل العلاقات السياسية أيضا فى المراسلات المتبادلة بين سلاطين المماليك وحكام مملكتى مالى وسنغاى الإسلاميتين . ومن أمثلة ذلك رسالة منسا موسى الى السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والتى مهد فيها لمجيئه الى مصر فى طريقه الى الاراضى المقدسة . ويبدو أن المراسلات بين الطرفين تعددت الأمر الذى أدى الى وجود صيغ ثابتة فى دواوين سلطنة المماليك تستخدم أثناء مخاطبة ملوك السودان الغربى والأوسط ، وكانت تفتح بها المكاتبات الرسمية . ومن أمثلة هذه الصيغ :" أدام الله نصر المقر العالى السلطان الجليل الكبير ، عز الإسلام ، شرف ملوك الأنام ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين،جمال الملوك والسلاطين ، سيف الخلافة ، ظهيرالإمامة ، عضد.

---

* مثل : القلقشندى ج 5 و ج 8 ؛ المقريزى ، الذهب المسبوك وغيرهما .

** كانت وظيفة المهمندار هى تلقى الرسائل والوفود الواردين الى السلطان ، وكان عليه انزالهم بدور الضيافة وتفقد أحوالهم . انظر : القلقشندى 459/5 .

(1) المقريزى ، الذهب المسبوك ، صـ112 .

أمير المؤمنين ، الملك فلان ."(1) كما كانت هناك الهدايا المتبادلة بين حكام السودان الغربى وسلاطين المماليك مثال ذلك الهدية التى قدمها منسا موسى بعد عودته من الحج الى السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون هدية من الحجاز تبركا "(2) فأجابه السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالخلع له ولمن معه من أصحابه فضلا عن : " التحف والألطاف من البز الاسكندرى والأمتعة الفاخرة "(3) . وباتساع نطاق العلاقات السياسية بين مصر وبلاد السودان الغربى وخاصة فى الفترة مابين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين أقتضى الأمر إقامة أفراد من أهالى السودان الغربى فى مصر حتى يسهلوا فيما يبدو ، قضاء أمور مواطنيهم ، وكان الشيخ الحاج يونس المشهور بترجمان التكرور والمقيم بمصر أحد هؤلاء المذكورين (4) . ويعتقد انه كان سفيرا وراعيا لمصالح بلاده فى مصر . وعند الحديث عن العلاقات السياسية بين مصر وبين بلاد السودان الغربى لابد من الإشارة الى واقعة تقليد الاسكيا محمد الكبير بخلافة السودان الغربى * ، وتمكن بفعل ذلك من رفع مكانته

---

(1) القلقشندى ، 8/ -10 .

(2) المصدر نفسه ، صـ296/8 .

(3) الصفحة نفسها ؛ ابراهيم طرخان ، دولة مالى الإسلامية ، صـ85 .

(4) ابن خلدون 201/6 ؛ زينب أحمد على هاشم . علاقة مصر بالدول الإسلامية فى حوض نهر النيجر رسالة ماجستير غير منشورة (القاهرة : جامعة القاهرة ،معهد البحوث والدراسات الافريقية)، صـ84 .

* ناقشت بعض المراجع التاريخية الحديثة مسألة تقليد الاسكيا محمد الكبير بالخلافة فى بلاد السودان الغربى متساءلة ماهو المكان الذى تم فيه ذلك التقليد ؟ أهو مكة المكرمة ؟ أم القاهرة ؟وهل تم ذلك على يد شريف مكة؟ أم على يد الخليفة العباسى ؟ . ولمن يريد الإطلاع على هذه الاستفسارات واجاباتها يمكنه ☜

وشخصيته وتعزيزها فى منطقة السودان الغربى خاصة وغرب افريقيا عموما، وتحصل بفعل هذا التقليد على الشرعية الدينية التى أستند عليها فى توسيع رقعة الإسلام فى المنطقة وممارسة الجهاد الإسلامى ضد القبائل الوثنية فى الجنوب وقام بفتوحات جهادية كثيرة ، حتى أن دولته جاوزت حدود مملكة مالى التى سبقتها وضمت مناجم الملح فى تغازا وشملت شرقا بعض إمارات الهوسا ، حتى تاخمت بورنو ، وشمالاالى حدود المغرب الاقصى (1) ويبدو أن مماليك مصر قد فطنوا للدور البارز الذى يلعبه الاسكيا محمد الكبير فى مسار الأحداث فى السودان الغربى . ولذا ، حرصوا على توثيق الروابط والعلاقتق بينهم وبين مملكة سنغاى الإسلامية ، الأمر الذى أثار حفيظة السعديين فى المغرب الاقصى ، الذين أرسلوا السفارات الى الاسكيا محمد الكبير عقب عودته من رحلة الحج مستهدفين توطيد عرى الصداقة والتحالف معه لاغراض أمنية واستراتيجية .

2- بنو مرين والسعديون فى المغرب الاقصى

يبدو انه رغم قدم العلاقات السياسية بين السودان الغربى والمغرب الاقصى فإن الدفعة القوية لهذه العلاقات السياسية بين الطرفين قد أبتدأت تقريبا مع بداية فترة هذه الدراسة ، وبالتحديد فى عهد السلطان المرينى ابى الحسن بن

☞ الرجوع ، على سبيل المثال ، الى : عمر عبدالرازق النقر .الحج فى غرب افريقيا، دراسة تاريخية بإشارة خاصة للقرن التاسع عشر، ترجمة : صفية صالح عيسى . جامعة الخرطوم ، كلية الاداب ، وحدة الترجمة والتعريب ،مرقونة على الالة الكاتبة ، من صـ40 الى صـ46 ؛ زينب أحمد هاشم ، المرجع السابق ، صـ78-79-80 ؛ جميلة التكتيك المرجع السابق ، صـ53-54 وغيرها .

(1) قمر الدين محمد فضل الله ، المرجع السابق ، صـ219 .

عثمـان (732-752 هـ /1331-1351م)، سـلطان المغـرب الاقصـى ونظـيره السلطان منسا موسى (712-738هـ /1312 -1337م)، الذى يعـد مـن أعظـم سلاطين مملكة مالى الإسلامية. ويقال إنه من ضمن الأسباب التى دعت السلطان المرينى ابى الحسن بن عثمان الى الإهتمام بعلاقاته مع السودان الغربى ، هى تربيته الدينية التى حدت به ان يكون متمسكا بأصول الدين الإسلامى منشئا للخـلاوي والمدارس الدينية (1) .

ومن الاشارات التى تمدنا بها المصادر التاريخية عن تطور العلاقات السياسـية بـين السلطان المرينى والسلطان المالى منسا موسى هـى : أن منسـا موسـى قـد أرسـل وفدا الى السلطان المرينى مهنئا ايـاه علـى هزيمتـه لبنـى عبدالـواد واسـتيلائه علـى تلمسان وجملة مناطق المغرب الاوسط، وكان على رأس الوفد المالى(فرافقيس)، وارفقه بمترجم من الملثمين المجاورين لمملكة مالى الإسلامية. وقـد أكـرم السـلطان المرينى وفادة الوفد المالى وأحسن إقـامتهم ويبـدو انـه أثنـاء وجـود الوفـد المـالى بالمغرب وصلت أخبار وفاة منسا موسى.وتـولى منسـا سـليمان مقـاليد الأمـور ، فأنتهز السلطان ابى الحسن الفرصة وأرسل وفدا كبيرا على رأسـه كـاتب ديوانـه أبو طالب بن محمد ابن ابى مرين ومولاه عنبر الحفصـى ، وكلـف قبـائل المعقـل بحراسة الوفد ذهابا وايابا ، ووصل الوفد المغربى الى مالى حيث قـابلهم السـلطان منسا سليمان ، وتقبل منهم التعازى فى وفاة سلفه منسا موسـى والتهـانى بتوليـه زمام الأمور فى مملكة مالى وتقبـل هدايـا السـلطان ابـى الحسـن المرينـى وشملهـم برعايته وكرمه (2). وفى عام 752هـ/1351م وصل ابن بطوطة الى مملكة مالى

---

(1) ابراهيم حركات.المغرب عبر التاريخ .(الدار البيضاء :دار الرشاد الحديثة ، 1984) ؛ج2 ،ص36 .

(2) ابن خلدون 266/7 ؛محمد العزبى المرجع السابق ، صـ49-50 .

مرسلا من قبل السلطان ابوعنان فارس المتوكل (749-759هـ/1348 -1358م) سلطان بنو مرين، الذى كان قد اغتصب العرش من ابيه صاحب السفارة السابقة (1) ورغم الغموض الذى يكتنف الأهداف الاساسية التى كان يهدف اليها ابوعنان من إرساله سفارة ابن بطوطة الى مملكة مال ، فيبدو وانها كانت تهدف الى دراسة الطرق التجارية، والوقوف على مدى حجم تجارة الذهب وغيرها المتبادلة بين السودان الغربى ومصر ، وذلك للعمل على تحويل مايستطيع تحويله الى بلاده (2). وبعد تولى منسا جاطة (1360-1374م) السلطنة فى مالى، أرسل سفارة الى بنى مرين وضم اليها الزرافة الحيوان الغريب الشكل ، العظيم الهيكل ، الذى كان مثار اعجاب واستغراب اهالى المغرب الاقصى. وقد استقبلت السفارة من قبل السلطان المرينى ، آنذاك ، انبو سالم ابراهيم بن ابى الحسين ، الذى أراد أن يتخذ من الهدية كسبا سياسيا ، فأقام لها احتفالا ضخما فتبارى الشعراء * فى مدح السلطان ووصف الزرافة (3) .

---

(1) ابراهيم طرخان ، دولة مالى الإسلامية ، صـ96 .

(2) المرجع نفسه ، صـ96 .

* وقد كان ابن خلدون من بين الحاضرين لذلك الحفل ، وأجادت قريحته بقصيدة كان مطلعها .

قدحت يد الاشواق من زند

وهتف بقلبى زفرة الوجد

وللمزيد انظر : 1- عبدالرحمن بن خلدون .التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، تحقيق : محمد بن تاويت الطنجى . (القاهرة : نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1370هـ/1951م) ، صـ74 .

2- السلاوى الناصرى 35/4 .

(3) الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ82-83 .

وقد وصف ابن خلدون ذلك الحفل بقوله : "... وكان يوم وفادتهم يوما مشهودا جلس لهم السلطان ببرج الذهب بمجلس العرض ونودى فى الناس بالبروز الى الصحراء فبرزوا ينسلون من كل حدب حتى غص بهم الفضاء وركب بعضهم بعضا فى الازدحام على الزرافة اعجابا بخلقتها وأنشد الشعراء فى معرض المدح والتهنئة ووصف الحال وحضر الوفد بين يدى السلطان وأذوا رسالتهم بتأكيد الود والمخالصة ..." (1) .ومن هنا نستطيع ان نؤكد أن العلاقات السياسية بين مملكة مالى والمغرب الاقصى فى عهد بنى مرين كانت علاقات ودية ، حيث شهدت تبادل السفارات والوفود والهدايا بين الطرفين الشيء الذى يدل على متانة العلاقات السياسية بينهما. ومن بعد بنى مرين آل حكم المغرب الاقصى الى الدولة الوطاسية. ونظرا لضعف هذه الدولة وانحلالها تمكنت سنغاى، التى ورثت حكم السودان الغربى ، من مد حدودها الشمالية على حساب المغرب الاقصى ، واستولت على معادن الملح فى تغازا وتاودينى وغيرهما (2)، وبمجيء السعديين الى الحكم فى المغرب الاقصى نشطت العلاقات السياسية بينهم وبين سنغاى .

ويبدو أن سلاطين الدولة السعدية وعوا مبكرا أهمية السودان الغربى ، وضرورة تنمية علاقاتهم معه والدليل على ذلك أن مولاى محمد القائم ، مؤسس الاسرة السعدية ، قد ارسل فى حوالى عام 1510–1511م سفارة الى الاسكيا محمد الكبير سلطان سنغاى الشهير ، وكان على رأس هذه السفارة عم الحسن الوزان.

---

(1) ابن خلدون 310/7 .

(2) محمد مزين ." المغرب وبلاد السودان خلال القرنين 16–17م الميلاديين "، المؤرخ العربى بغداد :31 (1987م) ، صـ216 .

وكان الحسن الوزان ذاته عضوا فيها (1) .وغني عن البيان الدور الهام الذى لعبه الوزان فى التعريف ببلاد السودان الغربى وغيرها من خلال كتابه الشهير: (وصف افريقيا) ، الذى أعتمدت عليه كثيرا فى هذا الكتاب . وبالإطلاع على الأحوال السياسية التى كان يمر بها المغرب من جراء تعرضها لضغوط برتغالية واسبانية بالإضافة الى ظهور الاتراك واكتساحهم المشرق العربى، أما سنغاى فقد عقدت فى هذه الأثناء تحالفا مع المماليك فى مصر خلال رحلة الاسكيا محمد الكبير الى الحج .ومن هنا يبدو أن سفارة السلطان السعدى محمد القائم الى سنغاى والتى كان على رأسها عم الحسن الوزان ، كان الهدف الحقيقى منها هو معرفة التوجه الحقيقى للاسكيا محمد الكبير من خلال علاقاته الناشئة مع مصروامكانية التحالف معه للوقوف معا ضد التهديدات المسيحية فى الغرب من قبل اسبانيا والبرتغال والتهديدات التركية فى الشرق .ويقال إن السلطان السعدى أحمد الاعرج قد تدخل عام1526م فى توات ، وطالب سنغاى بتسليم معدن تغازا (2) . ولم يكتف الاعرج بذلك بل أرسل رسالة شديدة اللهجة ، يدعو فيها الاسكيين الى الانصياع للامر الواقع وتسليم مناجم تغازا للمغاربة. وقد قابل الاسكيا اسحاق الاول (1539-1549م) هذا الإنذاربتصلب، ورد عليه بحملة عسكرية من المهرية * الطوارق للإغارة على درعة غربى

---

(1) الوزان . وصف افريقيا ط 2 . ترجمة : محمد حجى ومحمد الاخضر .(بيروت : دار الغرب الاسلامى . منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر)، ص9.

(2) محمد مزين ، المرجع السابق ، ص216 .

* المهرية : نسبة للمهرى وهى نوع من الجمال السريعة العدو ، والمعدة للركوب خاصة ، ونقل البريد لقدرتها على قطع المسافات الطويلة بسرعة قد تتجاوز 30 كم فى الساعة احيانا . أنظر : عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، ص88 .

سجلماسة ، وأمرهم بنهب مايصادفونه فى الاقليم على الا يقتلوا أحدا ،وأن يصلوا الى أسوار مراكش أن استطاعوا (1) . ويبدو أن العلاقات السياسية بين مملكة سنغاى والمغرب الاقصى كانت فاترة ويشوبها التربص والحذر فسقوط غرناطة عام 1492م وتصاعد الحروب القاسية والمستمرة بين المسلمين والمسيحيين الصليبيين من اسبان وبرتغال على شواطىء البحر الابيض المتوسط الجنوبية والمحيط الاطلسى ، قد صرفت الانظار الى حد كبير عن إقامة علاقات سياسية مماثلة لتلك التى كانت سائدة بين مالى والمغرب الاقصى وغيرها من أقطار الشمال الافريقى . ومن الاسباب التى جعلت العلاقات السياسية بين سنغاى والمغرب الاقصى تمر بمرحلة فتور ، هو ان المغرب الاقصى فى مستهل القرن السادس عشر الميلادى كان يعانى من ضعف كبير فى السلطة المركزية للدولة الوطاسية التى خلفت بنى مرين فى الحكم ، حيث شهد المغرب الاقصى حالة من الانقسامات الى وحدات سياسية صغيرة مستقلة حفزت كل من البرتغال والاسبان على التوسع على حساب اراضيه المطلة على البحر المتوسط والمحيط الاطلسى (2) . أما الانتقام من حملة الاسكيا اسحاق الأول فيبدو انه قد تأخر الى حين تولى الاسكيا داؤود (1549-1582م) مقاليد الامور فى مملكة سنغاى . وفى عهده قام الشريف محمد القائم بالانتقام لحادث نهب درعة ، فبعث بجماعة من فرسانه الاشداء لغزو تغازا وقتل حكامها ، وطائفة من الطوارق كانوا

---

(1) عبدالرحمن زكى . تاريخ الدول الاسلامية السودانية بافريقيا الغربية .(القاهرة : المؤسسة العربية الحديثة للنشروالطبع والتوزيع ، 1961م) ، ص145؛عبد القادرزبادية ، مملكة سنغاى ، صـ88 .

(2) اخوان الزهراء ."الوجود الاجنبى البرتغالى وبعض عواقبه فى القرن 16م المؤرخ العربى ، بغداد : 31 (1987م) ، صـ84 .

يعملون فى نقل الملح على الابل (1). ونتيجة لهذه العملية قام اسكيا داؤود بتحويل مناجم التعدين الى تاودينى وجنوب تغازا، حسب نصيحة الطوارق (2). وبتولى السلطان أحمد المنصور السعدى السلطنة فى المغرب عام 986هـ /1578م، دخلت العلاقات السياسية بين المغرب الاقصى وسنغاى مرحلة جديدة تميزت بالرغبة الاكيدة لأحمد المنصور فى الاستيلاء على سنغاى ، خاصة وهو مزهو بالانتصار السياسى والعسكرى اللذين حققهما فى معركة القصر الكبير عام 986هـ/1578م. وقد ابتدأ أحمد المنصور علاقاته السياسية مع سنغاى بإستخدام الاساليب السياسية والدبلوماسية ، فأرسل الى اسكيا داوود يقترح عليه أن يؤجر له مناجم تغازا لمدة عام (3) . وقد أرسل السلطان أحمد المنصور السعدى الى الاسكيا داؤود وهى عبارة عن عشرة الاف اوقية من الذهب ، وقد قبل الاسكيا داؤود هدية المنصور وقبل اقتراحه بأن يؤجر له ممالح تغازا لمدة عام واحد وتصادق الملكان بعد هذا الاتفاق طيلة فترة حكم الاسكيا داؤود (4) . وبتولى الاسكيا محمد الثالث 990-995 هـ /1582-1586م مقاليد السلطنة فى مملكة سنغاى ، أرسل اليه أحمد المنصور رسولا محملا بهدايا نفيسه ، مبلغا اياه تهانى المنصور بتولى السلطنة وقد رحب الاسكيا محمد بالرسول المغربى ترحيبا لائقا ، ورد الهدية بأضعاف ماقدمه اليه الوفد المغربى (5) . ويبدو أن الغرض

---

(1) المرجع نفسه ، صـ284 .

(2) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ46.

(3) الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ88 .

(4) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ48 .

(5) عبدالرحمن زكى ، تاريخ الدول الاسلامية السودانية ، صـ146 .

الحقيقى لهذا الوفد ليس تقديم التهنئة ، ولكـن دراسـة واستقصاء أحوال مملكـة سنغاى تمهيدا لغزوها. ومعروف ان السلطان أحمد المنصور السعدى ومنذ توليه الحكم ، كان يبيت النيـة لاحتـلال منطقـة السـودان الغربـى وذلـك كمـا سـبق الايضاح. وقد تحقق هذا فعلا ، حيث أرسل حملته الشهيرة الى السودان الغربى * عـام 1000هـ /1591م وتمكـن مـن احتـلال المنطقـة واسـقاط مملكـة سـنغاى الاسلامية ، وهذا هو التاريخ الذى حدد لنهاية هذه الدراسة .

أما عن العلاقات مع الحفصيين فى المغرب الادنى (تونس) فانه رغم قيام علاقات مختلفة بين المنطقة التى كانت تعـرف باسـم المغـرب الادنـى وهـى تونـس الحاليـة وخاصة فى عهد الحفصيين وبين المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى ،الا انـه يبدوان اهم هذه العلاقات كانت مع منطقة السودان الاوسـط ** وذلـك بحكـم مصاقبتها وقربها جغرافيا من منطقة المغـرب الادنـى . ولم يتمكـن البـاحث مـن الحصول على مادة تاريخية تؤكـد انتظـام علاقـات سياسية بـين هـاتين المنطقتـين وخاصة فى فترة هذه الدراسة .

---

* للمزيد من التفاصيل حول حملة أحمد المنصور على بلاد السودان الغربى راجع :-

الفشتالى . مناهل الصفا فى مآثر موالينا الشرفاء ، دراسة وتحقيق : عبدالكريم كريم .(الربـاط : مطبوعـات وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية والثقافية ، 1972م) ؛ السلاوى الناصرى 95/5 ومابعدها

Joseph Cuoq ,Histoire de l,Islamsation de l`Afrique de l`ouest,(Paris,1984),P.223

وعن الاثار التى خلفتها هذه الحملة . راجع : محمد احمد العزبى ، المرجع السابق .

** حول علاقات السودان الاوسط مع مناطق الشمال الافريقـى . انظـر : صـالح الصـادق السـبانى المرجـع السابق ، صـ117 ومايليها .

أما عن العلاقات مع دولة بنى عبدالواد الزيانية فقد قامت هذه الدولة فى المنطقة التى كانت تعرف بالمغرب الاوسط . وأستمرت تحكم المنطقة لأكثر من ثلاثة قرون خلال الفترة فيما بين 1236-1554م، وكانت عاصمتها مدينة تلمسان *.
ونظرا للإضطرابات السياسية التى عانت منها هذه الدولة فقد حصرت اهتماماتها ، فيما يبدو ، فى مشاكلها الداخلية وصراعاته المتصلة فى الشمال الافريقى مع كل من المرينيين فى المغرب الاقصى والدولة الحفصية بتونس . وقد عمل كل من المرينيين والحفصيين على التدخل فى شئون الدولة الزيانية الداخلية فى محاولة منهما للسيطرة عليها وازالتها من الوجود ، ثم تعرضت دولة بنى عبد الواد الزيانيين فيما بعد للصراع مع الاسبان الذين هددوها من الشمال واخيرا مع العثمانيين الذين وضعوا نهاية لهذه الدولة (1) . ولذا ، يبدو انه لم يتسن لهذه الدولة إقامة اتصالات وعلاقات سياسية وغيرها عبر الصحراء الكبرى مع ممالك السودان الغربى وصفوة القول ، ان مظاهر التأثير السياسى العربى الاسلامى فى السودان الغربى خلال القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين قد كان واضح المعالم فى شتى المجالات . وقد استمدت النظم السياسية والادارية والقضائية والحربية مقوماتها من مرتكزات عربية اسلامية متأثرة فى مسارها بما كان سائدا فى الشمال الافريقى ومصر نتيجة للعلاقات المتينة والازلية التى استمرت بين هاتين المنطقتين العربيتين وبلاد السودان الغربى .

---

* للمزيد حول نشأة هذه الدولة وازدهارها ، أنظر : ابن خلدون 7/78-150 ؛ يحى بوعزيز المراحل والادوار التاريخية لدولة بنى عبدالواد الزيانية . مجلة الاصالة ، الجزائر:4:26 (1395هـ-1975م) ، صـ3 ومايليها .

(1) المرجع نفسه ، صـ12 .

وبديهى ، ان يكون التأثير السياسى العربى الاسلامى منطلقا لإعطـاء دفعـة قويـة للعلاقات الاقتصادية مع السودان الغربى ، وهى علاقات سابقة لهذا التأثير نفسه. فيرجع الفضل للعلاقات الاقتصادية بين شمال القارة الافريقيـة وغربهـا فـى تدفـق الهجرات البشرية وتأسيس المراكز التجارية ، وبالتالى فى نقل المؤثـرات السياسـية والثقافيـة والاجتماعيـة .والفصـل الـذى يلـى سيكشـف عـن مـدى دور التأثـير الاقتصادى فى إقامة السودان الغربى لعلاقات طيبة مع المنطقـة العربيـة الاسـلامية التى أثرت تراثه الحضارى .

الفصل الثالث

التأثير الإقتصادى

أولا : - أهم طرق القوافل التجارية.

ثانيا : - أهم المراكز التجارية.

1- المراكز التجارية على الطرف الشمالى للصحراء الكبرى .

2- المراكز التجارية على الطرف الجنوبى للصحراء الكبرى .

ثالثا : - أهم السلع التجارية :-

1- سلع واردة الى السودان الغربى .

2- سلع صادرة من السودان الغربى .

رابعا :- نظم التعامل : -

1- المقايضة .

2- العملات .

أ- النقود الذهبية .

ب- النقود الفضية والنحاسية .

ج- الودع .

د- المنسوجات القطنية .

3- المقاييس والمكاييل والموازين .

4- الوكالات التجارية .

خامسا : - التأثير فى مجال الزراعة والثروة الحيوانية .

سادسا : - التأثير فى مجال الصناعة والحرف والثروة المعدنية.

لقد دخلت المؤثرات العربية الإسلامية الى السودان الغربى بصورة رئيسية من الشمال الإفريقى عبر الصحراء الكبرى ، وسهل تقدمها وتوسيع رقعتها فى تلك البقاع تصاعد النشاط التجارى وإزدهار طرق القوافل التجارية بين شمال القارة وغربها . وأصبح دور العرب المسلمين واضحا فى فتح المراكز التجارية فى الأماكن التى أرتادوها ، فضلا عن توثيق علائقهم الإقتصادية مع الوطنيين الأفارقة الذين وجدوا منهم ترحيبا وإحتراما كبيرين لما تحلوا به من صدق وأمانة فى تعاملهم وفى تصرفاتهم . ويمكن أن يقال إن الحركة الإقتصادية فى السودان الغربى مابين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين أرتبطت ارتباطا قويا بنشاط العرب المغاربة التجارى . وإليهم يرجع الفضل فى وضع أسس مفاهيم إقتصادية لم تكن معروفة لدى أهالى السودان الغربى ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر ، نظام العملات والمقايضة ونظام المقاييس والمكاييل والموازين ونظام الوكالات التجارية الخ ... ومن ناحية أخرى ، لايخفى دور التأثير الإقتصادى فى تطوير الموارد الإقتصادية المختلفة . فأنتعشت السلع السودانية وتم تصديرها للخارج . كما أستغلت الموارد الزراعية والثروة الحيوانية والثروة المعدنية بطرق مرشدة . وبالإضافة الى ذلك شهدت المنطقة أساليب جديدة فى رفع مستوى الصناعات والحرف السائدة هنالك ، ولإرتباط نشر الإسلام والثقافة العربية فى السودان الغربى بعامل التأثير الإقتصادى ، فإن هذا الفصل سيعالج موضوعاته كما يلي :-

أولا: أهم طرق القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى .

الناظر الى الخرائط التاريخية لمنطقة السودان الغربى عبر التاريخ والى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى يتبين له أن شبكة من طرق القوافل كانت تشق الصحراء الكبرى منطلقة من الحواضر العربية على الساحل مثل : الإسكندرية وطرابلس وتونس والجزائر وغيرها أو من المراكز الصحراوية مثل : القيروان وفاس وتوات وتلمسان وغرداية ومراكش وسجلماسة والجغبوب وجبل نفوسة وأوجلة وغدامس وغات وفزان ومرزق وودان وزويلة وزلة وغيرها بإتجاه السودان الغربى والأوسط ، وحتى حزام الغابات الإستوائية فى الجنوب . وتتأكد أهمية هذه الطرق التجارية ، إذا ماعرفنا أن موانىء وسواحل الوطن العربى ، وخاصة الواقعة فى الشمال الإفريقى ، كانت تلعب دور الوساطة التجارية بين مناطق الإنتاج المدارى والإستوائى فى الجنوب وبين شعوب البحر الأبيض المتوسط فى الشمال (1) . وقد تم عن طريق هذه الموانىء توريد كل ماتحتاجه مناطق السودان الغربى من أوربا وآسيا والمشرق العربى والشمال الافريقى وتصدير الصادرات الافريقية وبالذات الذهب والرقيق الى تلك المناطق . ومن المعروف أن التجار العرب المسلمين قد أحتكروا الإتصال ببلاد السودان لأسباب دينية وتجارية وإستراتيجية وكانوا صلة الوصل بينها وبين جنوب أوربا (2) . ولم تكن القوافل التجارية تحمل السلع التجارية فقط،بل حملت معها الدين الإسلامى والثقافة العربية وكل ماحتكت به من روافد المعرفة والحضارة الإنسانية . ومع أن نطاقا صحراويا مقفرا يفصل بين منطقة الشمال الإفريقى وبين السودان الغربى،

---

(1) أبراهيم طرخان ، امبراطورية غانة الاسلامية . صـ 24 .

(2) ابراهيم طرخان،أمبراطورية غانة الإسلامية، ص42 ؛ بازل دافدسن،المرجع السابق ،ص124.

إلا أن هذا الحـاجز لم يقـف جسـرا يسـتحيل عبـوره ، إذ لعبـت حركـة التبـادل التجارى والإتصال السكانى دورا كبيرا فى تواصـل وتنميـة العلاقـات الحضاريـة والتبادل الإقتصادى ، الأمر الـذى أعطـى الصحـراء الكـبرى أهميـة قصـوى فـى مسار تاريخ المناطق الواقعة شمالها وجنوبها (1) . و لم تحجب الصحراء الكـبرى ، رغم وعورة مسالكها ودروبها هذا التواصل الحضارى ، بـل ظلـت بمثابـة البحـر المحيط الذى يربط بين ساحلين. وكانت سفن الصحراء (الإبل) وسيلة الإتصال الهامة منذ القرون الميلادية الاولى وحتى القرن العشرين (2) . ورغم قسوة بعـض العوامل الطبيعية فأن طرق القوافل عبر الصحراء الكبرى لعبت دورا هاما فى نقل المؤثرات الحضارية الى قلب القارة الإفريقية والى أقسامها الغربية ، كما كـانت ، أيضا طرقا سلكتها الهجرات المتتابعةوالمتبادلة بين شمال الصحراءوجنوبهـا نتيجـة لعوامل متنوعة سبق ذكرها *وبإتساع نطاق الهجرة والإستيطان قوى أثر العـرب فى حياة أهالى السودان الغربى ، كما ترسخت المؤثرات العربية الاسلامية نتيجـة لإعتناق نسبة كبيرة منهم للدين الإسلامى،كما أتخـذت مجموعـات كبـيرة منهـم اللغة العربية وسـيلة للتخـاطب والتفـاهم فضـلا عـن أنهـا أصبحـت لغـة الثقافـة والعلم .

وقد شهدت منطقة السودان الغربى قيام بعض الممـالك الوطنيـة وثنيـة كـانت أم اسلامية (3) . وقد حرصت هذه الممالك على تقوية صلاتها وروابطها بمناطق

---

(1) بوفيل ، المرجع السابق ، صـ28 .

(2) يوسف فضل حسن ، إنتشار الإسلام فى إفريقيا ، صـ5 .

* أنظر : الفصل الأول من هذه الدراسة .

(3) جمال زكريا قاسم . الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية .(القاهرة : معهد البحوث والدراسـات العربية ، 1975م) ، صـ160 .

شمال الصحراء ، وهى مناطق ذات جذور حضارية عريقة . وقد لعبت طرق القوافل التجارية دورا بارزا فى دعم أواصر هذه العلائق خاصة بين الوطن العربى وبين بلاد السودان الغربى والأوسط ، ومن أبرز هذه الطرق :-

1- الطريق الغربى ويمتد من سجلماسة الى ولاته ثم الى تمبكتو وجنى وجاو(1) .

2- الطريق الذى يمتد فى المنطقة التى أصطلح الباحثون على تسميتها (المغرب الأوسط) ، وهى الجزائر الحالية ، ويمتد من تلمسان الى توات الى تمبكتو (2) .

3- الطريق الذى يبدأ من ورقلة الى جاو ، ويتصل هذا الطريق ببعض الموانىء الجزائرية على ساحل البحر المتوسط ومنها بجاية وسكيكدة وغيرها (3) .

4- هناك ، أيضا ، الطريق الذى ينطلق من واحة الجريد بتونس وغالبا ماتمر قوافله بورقلة أو سوف أو غدامس (4) .

5- كذلك الطريق الذى يبدأ من طرابلس الغرب على الساحل الليبى ويمر بغدامس ويمر فرع منه بفزان وينتهى الى بورنو وجاو (5) .

6- وهناك ، أيضا ، طريق يبدأ من مصر مارا بواحة سيوة وزويلة فتادمكة فجاو الى تمبكتو (6) .

---

(1) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ214 .

(2) الشيخ الأمين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ125 .

(3) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ214 .

(4) المرجع نفسه ، صـ214 .

(5) الصفحة نفسها .

(6) Fage : OP.Cit .P 22 .

وقد أعطى الرحالة والجغرافيون العرب أهمية كبرى لمعالجة موضوع طرق القوافل ، فمنهم من قدر المسافات بالمراحل والأيام كالبكرى (1) ، ومنهم من قدرها بالأميال مثل ابن خردداية (2) .

وكانت أهمية طرق القوافل العابرة للصحراء تتغير طبقا لقيام الدول وإنهيارها ، وانتقال مراكز الثقل السياسى والإقتصادى ، ففى عهد مملكة غانة كانت الطرق الغربية أكثر أهمية ، وبانهيارها وقيام مملكة مالى أنحرفت هذه الطرق شرقا ، وبقيام مملكة سنغاى زاد إنحراف هذه الطرق ناحية الشرق وأصبحت نهاية الطرق تمبكتو وجاو ، وعقب سقوط مملكة سنغاى عام 1000 هـ/ 1591م ، قلت أهمية الطرق الغربية ونشطت الطرق الشرقية عند قيام ممالك الهوسا (3) . ومن هنا يتضح أن بلاد السودان الغربى قد ربطت مع الشمال الإفريقى بشبكة من الطرق المختلفة والتى عبرت دروبها القوافل التجارية والهجرات البشرية المختلفة مما كان سببا فى تدفق المؤثرات العربية الإسلامية المختلفة صوب تلك البقاع.

---

(1) صالح عبدالقادر نورالدين ، المرجع السابق ، صـ115 .

(2) المرجع نفسه ، صـ115 .

(3) الشيخ الأمين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ224 ؛ قمر الدين محمد فضل الله ، المرجع السابق ، صـ212 ومايليها .

ثانيا: أهم المراكز التجارية :

نظرا للحركة التجارية المزدهرة التـى أنتظمـت بـين بـلاد السـودان الغربـى وبين منـاطق الوطـن العربـى ، أقيمـت العديـد مـن المـدن التجاريـة علـى جـانبى الصحراء الكبرى ، وبالذات في المناطق التي كانت تمر بها طرق القوافل التجارية الرئيسية العابرة للصحراء . وقد كانت هذه المدن بمثابـة مراكـز اسـتقرار للتجـار الذين يقومون بنقل وتوزيع المنتجـات المتداولـة بـين الشـمال الافريقـى وجنـوب أوربا والمشرق العربى وبين السودان الغربى . وقد شكلت هذه المراكز والمحطـات التجارية شريانا للمعاملات الإقتصادية بين المنطقتـين وأمـاكن لإمـتزاج الأفكـار تـأثرا وتأثـيرا ، وذلـك بفضـل ماتقدمـه للمسـافرين مـن مـأوى وسـبل للراحـــة والاستجمام .

وتهتم هذه الدراسة بإلقاء الضوء على نماذج من هذه المراكـز لأهميتهـا فـى دفـع المؤثرات العربية الإسلامية الى السودان الغربى وهـذه المراكـز هـى : مراكـز تقـع على الجانب الشمالى للصحراء ومراكز على الجانب الجنوبى ، وذلك على النحو التالي :-

1 – المراكز التجارية على الجانب الشمالى للصحراء الكبرى .

غدامس :–

تقع غدامس عند إلتقاء الحدود الليبية مع كل من تونس والجزائر . ولغدامس تاريخ قديم يرجع الى العصر الفنيقى والرومانى فقد كانت مركزا تجاريا وحصنا حربيا لروما على طريق جرمه (1) وقد دخلت ضمن حدود الدولة الإسلامية فى أثناء حملات عقبة بن نافع المشهورة على الشمال الافريقى وأشتهرت غدامس كمركز تجارى هام ، حيث أصبحت ملتقى لطرق القوافل التجارية القادمة من بعض المدن ، بسواحل الشمال الافريقى ، ثم تتفرع منها عدة إتجاهات نحو بلاد السودان الأوسط والغربى . وقد تحدث عنها صاحب كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار بقوله :" مدينة لطيفة قديمة أزلية واليها ينسب الجلد الغدامسى ... فيها غرائب من البناء والآزاج المعقودة تحت الارض مايحار فيه الناظر اليها إذ تأملها ، تنبىء أنها آثار ملوك سالفة وأمم دارسة ، وأن تلك الأرض لم تكن صحراء وإنما كانت خصيبة عامرة. وأكثر طعامهم التمر ... ومن غدامس يدخل الى تادقلة وغيرها من بلاد السودان "(2) والى جانب خدمة القوافل التى أشتهرت بها غدامس فقد اشتهرت أيضا بصناعة الجلود ، وقد وصفها بذلك أبو الفداء حيث قال :"وبغدامس الجلود المفضلة وهى على

---

(1) محمد سليمان أيوب ."جرمة فى عصر إزدهارها من 100 م الى 450م" . ليبيا فى التاريخ . بنغازى : كلية الآداب جامعة بنغازى 1968م ، صـ192 .

(2) الإستبصار فى عجائب الأمصار ، صـ145ومايليها .

طريقة بلاد السودان المعروفين بالكانم "(1) . كما تحدث عنها الحسن الوزان بقوله : "... غدامس منطقة كبيرة مسكونة ، حيث القصور العديدة ، والقرى المأهولة ، على بعد نحو ثلاثمائة ميل من البحر المتوسط . سكانها أغنياء ، لهم بساتين نخل وأموال،لأنهم يتجرون مع بلاد السودان.يدبرون شئونهم بإنفسهم، ويؤدون خراجا الى الأعراب " (2) وقد أشتهرت غدامس بإتصالاتها المتعددة مع بلاد السودان الغربى ، وقد كانت قوافلها التجارية تجوب بلاد السودان ، وقد سافر ابن بطوطة صحبة أحد هذه القوافل (3) .

وعند الحديث عن غدامس وصلاتها مع بلاد السودان الغربى لابد من الإشارة الى الجالية الغدامسية بتمبكتو التى أحتلت أهمية كبيرة ، ويرجع ذلك للأثر المهم والعريق الذى لعبه أفراد تلك الجالية الذين كانوا من الكثرة بحيث أنهم شيدوا حيا خاصا بهم فى تمبكتو وهو من أرقى الأحياء فى هذه المدينة ، ويقع فى جنوبها الشرقى ، ويبلغ طوله حوالى نصف كيلومتر ، وكان على درجة من الأناقة وحسن البناء والتناسق فى شوارعه (4) . ونتيجة لذلك فقد إختاره قائد الحملة المراكشية على سنغاى عندما أحتل تمبكتو كمقر لإقامة قصبة حكمه . وقد حكى ذلك السعدى بقوله : "... ثم أنهم دخلوا فى داخل المدينة يوم الخميس السادس من شعبان المنير وكانوا فى المدينة وطالعوها ووجدوا أكبرها عمارة حومة الغدامسيين فأختاروها للقصبة وشرعوا فى بنائها ." (5) . وقد نال

---

(1) أبوالفداء ، المصدر السابق ، صـ147 .

(2) الوزان 146/2 .

(3) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ452 .

(4) السعدى ، المصدر السابق ، صـ142 .

(5) المصدر نفسه ، صـ142 .

أفراد الجالية الغدامسية حظوة كبيرة حيث كانوا ذوى مراكز إجتماعية وسياسية مرموقة ، فقد ورد عن هذه الجالية أنها كانت أول مجموعة تعطى البيعة للعساكر المراكشية وللسلطان أحمد المنصور السعدى عندما أحتلت عساكره تمبكتو عام 1000هـ/1591م (1) ، وعندما توفى فياض الغدامسى خرج للصلاة عليه أشهر فقهاء تمبكتو (2) . والذى جعل حى الغدامسية بهذه البرجة من الأهمية هو ذلك الثراء الكبير الذى كان يتمتع به تجار غدامس بالنسبة لسكان السودان الغربى ، وهذا أمر طبيعى نظرا لإهتمامهم الواسع بالتجارة . ولم تقتصر معاملات الغدامسيين على مدينة تمبكتو فقط بل تجاوزوها الى غيرها فتعاملوا مع تادمكة (السوق) وجاو وجنى وغيرها من الأماكن الاخرى (3) ومن هنا يتضح الدور الهام الذى لعبته غدامس فى دفع المؤثرات العربية الإسلامية صوب السودان الغربى ، سواء بتسهيلها التواصل المستمر أو من خلال ماقامت به الجاليات الغدامسية الأصل والتى هاجرت وعاشت بالمنطقة .

---

(1) أحمد سعيد الفيتورى."الجاليات العربية المبكرة فى بلاد السودان،دراسة أولية وبعض الملاحظات" مجلة البحوث التاريخية ، طرابلس : 3 : 2 (1981م)،صـ249.

(2) السعدى ، المصدر السابق ، صـ59 .

(3) الاروانى ، مخطوطة ، "الترجمان فى تاريخ الصحراء والسودان وبلد تنبكت وشنجيط واروان ونبذة من تاريخ الزمان فى جميع البلدان . رقم (760) تمبكتو – مالى : مركز أحمد بابا ، ورقة 4 .

توات :-

تعتبر توات من أبـرز المراكـز التجاريـة التـى تقـوم بتنظيـم القوافـل التجاريـة وتوفير مواردها . وقد أشار اليها ابن خلدون (1) ، مما يؤكد أنها كانت مزدهرة فى عهد مملكة مالى الإسلامية ، وأكد على دورها الهـام فـى تنشيط التجـارة الى بلاد السودان . ويبدو أن توات ظلت ذات أهميـة قصـوى فـى تنشيط التجـارة الصحراوية حتى فى أيام مملكة سنغاى الإسلامية ، إذ أنها تعتـبر مركـزا لإنعـاش التجارة الصحراوية لأنها تقع فى واحـة غنيـة يتزود فيهـا التجـار بـالغذاء والمـاء العذب ، كما يتم فيها تغيير الادلاء والجمال ، وأنها كانت مركزا يقصـده تجـار الشمال الافريقى وجنوب اوربا لعرض وترويج بضاعتهم (2) . ويعتقـد انـه مـن الأمور التى أعطت لتوات أهمية كبرى هو وقوعهـا فـى الطريـق التجـارى الهـام الذى يربط تلمسان مع بلاد السـودان الغربـى . * ونظـرا لكونهـا مركـزا تجاريـا هاما وملتقى للقوافل التجارية ، فقد أمتهـن أهلهـا التجـارة وجنـوا منهـا أرباحـا طائلة ، وهاجروا من أجلها وأستقروا فى بعض مناطق السودان الغربى . وتوجـد بعض الإشارات التاريخية تؤكد أن عددا من التواتيين هـاجروا الى مـدن السـودان الغربى الرئيسية واستطاع هؤلاء المهاجرون أن يكونوا جاليات كبيرة فى كل من تمبكتو وجاو وغيرهما ، وقد التقى الفقيه محمد بن عبدالكريم المغيلى بأفراد هذه

---

(1) ابن خلدون 6/117-118 .

(2) الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ133 .

* للمزيد من المعلومات حول الطريق التجارى بين تلمسان وبلاد السودان الغربى .أنظر :

1-.Mauny :Op.Cit.

2- Fage .OP.Cit .

الجالية عندما زار مملكة سنغاى فى عهد الاسكيا محمد الكبير حوالى عام 1502م، ووجدهم يشكلون نسبة كبيرة من التجار والفقهاء العرب هنـاك (1) . وقـد زار الرحالة الجنوى مالفانت (Malfante) توات حوالى عام 1447 م ويبدو أنه كان أول أوربى يصل فى العصور الوسطى الى تلك المناطق ، وكان هدفه الوصول الى بلاد السودان الغربى ليتعرف، على حد قوله، على بلاد الذهب التى يجنـى منهـا التجار المغاربة ارباحا كثيرة . وربما يكون قد وصل اليهـا عـن طريـق تلمسـان ، فقد كان بمرفأ حنين فى ذلك الوقت نشاط كبير للتبادل التجارى بين اوربا وبين مملكة تلمسان ، والذى تمر به البضائع المختلفة لتأخذ طريقهـا الى بـلاد السـودان عبر توات (2) . وقد وصف الحسن الوزان توات قائلا :" ... تحتوى على أربعـة الاف عائلة ولها تربة خصبة لزراعة الحبوب وخاصة الشعير ... ويزرعون قصـب السكر بكميات كبيرة تكفى حاجاتهم ويصدرون الباقى لتجار المغرب والسودان وعندهم كمية كبيرة من التمر ." (3) وقـد لعـب التواتيـون دورا هامـا كوسيط تجارى مع بلاد السودان الغربى ، كما قامت العناصر التى عاشت منهم فى بـلاد السودان الغربى بدورا هاما فى دفع المؤثرات العربية الإسلامية الى تلك المناطق .

---

(1) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ216 ؛ جميلة التكيتك ، المرجع السابق ، صـ116.

(2) عبدالقادر زبادية ." التلمسانى محمد بن عبدالكريم المعيلى ، بعض آثاره وأعماله فى الجنوب الجزائرى وبلاد السودان " ، مجلة الأصالة ، الجزائر :26:4 (1975) ، صـ209 .

(3) الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ133 .

تغـازا *:-

حدّد الفشتالى موقع تغازا بقوله :" ... تغازى هـى بلـد تتوسـط القفـر بـين المغرب وبلـد السـودان ."(1). وازدادت أهميتهـا لوقوعهـا علـى طريـق القوافـل التجارية الوافدة من الشمال الافريقي حتى تمبكتو ، وهو الطريق المعـروف باسـم (طريق الذهب) (2) . وشهرة تغازا ، كما هو معروف فـى المصـادر التاريخيـة ، هيأنها مصدر أساسى للملح السلعة ذات الأهمية التجارية الكبيرة عـبر العصـور المختلفة. وقد زار ابن بطوطة تغازا ، فى منتصف القرن الثـامن الهجـرى / الرابـع عشر الميلادى ، وهو فى طريقه الى بلاد السودان ووصفها بقوله :"... هى قريـة لاخير فيها ، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح ، وسـقفها من جلود الجمال . ولاشجر بها ، وإنما هى رمل فيه معدن الملح ، يحفر عليه فـى الارض ، فيوجد منه الواح ضخام متراكبـة ، كأنهـا قـد نحتـت ووضعـت تحـت الأرض ، يحمل الجمـل منهـا لوحـين ." (3) .تشـير هـذه الشـواهد التاريخيـة الى طريقة استخراج الملح بتغازا والى وفرته بها الى درجة استخدامه فى بنـاء البيـوت والمساجد وغيرها . أما عن أهمية الملح وتوفره بقرية تغـازا يقـول ابـن بطوطـة : "... وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهـب والفضة ، يقطعونـه قطعـا ويتابعون به ." (4) .

---

* تغازا : تكتب أحيانا تغازى وتغازة Thagaza .

(1) الفشتالى ، المصدر السابق ، صـ55 .

(2) جميلة التكتيك ، المرجع السابق ، صـ128 .

(3) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ441 .

(4) المصدر نفسه ، صـ441 .

وقد ظلت تغازا المصدر الهام للملح لعدة قرون ، و لم تدخل تحت سيطرة أحد ، بل كانت السيطرةفيها لقبيلة مسوفة الصنهاجية ، حيث يقوم الرقيق التابعون لها بتعدين الملح بها (1) . كما كانت تغازا ، أيضا مركزا هاما لتجارة الذهب ، حيث تتم فيها مبادلته بالملح ، وقد أوضح ذلك ابن بطوطة حيث قال :"... وقرية تغازا على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من الذهب ." (2) . وفى بداية القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى أبرز الحسن الوزان الأهمية التجارية التى كانت تلعبها تغازا فى التجارة مع بلاد السودان ، حيث ذكر أن ملحها كان ينقله التجار الى تمبكتو ، ولولا ذلك لحصلت ندرة شديدة فى الملح(3) . ومن المعروف أن تغازا لم تقع تحت سيطرة سلطة مركزية قبيل استيلاء الاسكيين عليها زمن الاسكيا محمد الكبير ثم محاولة السعديين ، فيما بعد ، الاستيلاء عليها . أما قبل ذلك فإنها كانت تدار من قبل قبيلة مسوفة الصنهاجية، كما سبقت الإشارة الى ذلك .ونظرا لأهمية تغازا كمركز تجارى وتعدينى فقد كانت مسرحا للصراع الاسكى-السعدى وذلك طيلة القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى تقريبا . والمعروف أن الاسكيين قد سيطروا على مما لح تغازا . وفى هذا الصدد يقول المؤرخ عبدالعزيز الفشتالى ، الذى كان يشغل وزير القلم الأعلى فى بلاط المنصور السعدى :"... كانت فى القديم من ممالك سكيةوأعماله وبها معدن الملح الذى يمتار منه سائرالسودان ." (4)

---

(1) الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ130.

(2) ابن بطوطة، المصدر السابق،441.

(3) بوفيل ، المرجع السابق ، صـ270 .

(4) الفشتالى ، المصدر السابق ، صـ55 .

وكانت أطماع السعديين فى الاستيلاء على تغـازا مبكـرة ، أى ترجـع الى عهـد القائم بأمر الله السعدى وأحمد الأعرج الذى تدخل عام 1526م فى توات مطالبا سنغاى بتسليم معدن تغازا (1) . وقد تضاعفت أطماع السعديين فـى الإستيلاء على تغازا منذ عهـد الاسـكيا اسـحاق الأول 1539 - 1549م ، وبلغـت ذروة هذه الأطماع فى عهد أحمد المنصور السعدى الـذى أقـدم علـى الإستيلاء علـى سنغاى عموما عام 1591 م .ومـن خـلال مـاتقدم تـبرز الأهميـة القصـوى التـى كانت تتمتع بها تغازا كمركز تجارى هـام يؤمـه التجـار مـن الشـمال الافريقـى ليرفدوا منها الملح باتجاه المراكز التجارية السودانية فى الجنـوب ، ويؤمهـا التجـار السودانيون لترويج مادة الذهب وغيرها من المنتجات السودانية والتزود مايمكنهم من واردات الشمال الافريقى وغيرها مـن السـلع والبضـائع التجاريـة التـى كـان ينقلها التجار العرب المغاربة الى هناك وعن طريق هذه المبادلات انتقلت المؤثـرات العربية الإسلامية وخاصة فى مجال الحياة الإقتصادية الى تلك المناطق .

---

(1) محمد مزين ، المرجع السابق ، صـ216 .

2- المراكز التجارية على الجانب الجنوبى للصحراء الكبرى .

ولاتــه :-

تقع مدينة ولاته الى الشمال الغربى من تمبكتو ومعناها الأرض المرتفعة (1). ويقال إن مدينة ولاته أقيمت على أنقاض مدينة قديمة تسمى (بيرو) (2)، ولذلك أحيانا يشير اليها بعض المؤرخين باسم بير أو بيرو (3) . وقد أشتهرت مدينة ولاته بتنظيم العلاقات التجارية واستقبال القوافل التجارية القادمة من الشمال الافريقى وهى فى طريقها الى السودان الغربى. وتحدث عنها السعدى بقوله:"... وكان التسوق قبل بلد بير واليه يرد الرفاق من الافاق وسكن فيها الأخيار من العلماء والصالحين وذوى الأموال من كل قبيلة ومن كل بلاد من أهل مصر ووجل وفزان وغدامس وتوات ودرعه وتفلالـه وفاس وسوس وبيط الى غير ذلك ." (4) وتعرف ولاته باسم (ايوالاتن) . وقد ذكرها بهذا الاسم ابن بطوطة الذى زارها وقال عنها :"... ثم وصلنا الى مدينة ايوالاتن فى غرة شهر ربيع الأول ، بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة وهى أول عمالة السودان ... ولما وصلنا جعل التجار أمتعتهم فى رحبة ، وتكفل السودان بحفظها ."(5).

---

(1) أحمد شلبى.موسوعة التاريخ الاسلامى.(القاهرة:مكتبة النهضةالمصرية،1978م)ج 6، ص198

(2) بول مارتى . كنته الشرقيون ، ترجمة وتعليق : محمد محمود ودادى .(دمشق :مطبعة زيد بن ثابت 1985م) ، صـ15 .

(3) السعدى ، المصدر السابق ، صـ21 .

(4) المصدر نفسه ، صـ21 .

(5) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ442 .

وتبدو ولاته من خلال وصف ابن بطوطة لها بمثابة مركز للتجار من سودانيين ومغاربة على حد سواء. وبحكم موقعها كانت تعد مركز استقبال للقوافل التى فى طريقها الى السودان الغربى(1) . وابن بطوطة نفسه وصل اليها فى صحبة إحدى هذه القوافل التجارية. وتوضح الإشارة السابقة التى أوردها ابن بطوطة أن سكان ولاته يهرعون لإستقبال القوافل التجارية بالماء والزاد ويقومون بحفظ وحراسة أمتعة التجار، ويقوم كبار التجار فى ولاته باستقبال أصدقائهم القادمين ضمن القوافل التجارية ويزودونهم بوسائل التوصية للولاة ، كما يحيطونهم علما بمستوى أسعار البضائع ويسجل ابن بطوطة قيام بعض رجال قبيلة مسوفة الصنهاجية بمهمة (التكشيف) أى دور الادلاء للتجار فى الصحراء ، ونظرا لأهمية هذه العملية فى تأمين وصول القوافل الى ولاته ، فقد كانت أجرة الذين يقومون بها عالية وفى ذلك يقول ابن بطوطة : "... واكترينا التكشيف فى هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب ، وهو من مسوفة ." (2) . وكان من بين التجار العرب المغاربة الذين استوطنوا ولاته حوالى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، أثنان من أسرة آل المقرى ، وهما : عبدالواحد وعلى وكلاهما بنى لنفسه منزلا فخما من الحجر فى المدينة وتزوج بسيدة من أعيانها وكان يملك

---

(1) جمال زكريا قاسم ." الروابط العربية الافريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية " العلاقات العربية الافريقية، دراسة للآثار السلبية للاستعمار ، (القاهرة : المنظمة العربية للثقافة والعلوم والفنون ، 1977م) صـ37 ومايليها .

(2) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ442 .

العديد من العبيد(1) .والدليل على هذه الأهمية التجارية التى كانت تتمتع بها مدينة ولاته أنه كان بها وظيفة عرفت باسم (منشاجو) أى المشرف على الشئون التجارية وقد قابله ابن بطوطة وتحدث عنه كما انه قابل أيضا نائب سلطان مالى بالمدينة (فربا حسين) الذى كان له حراس يحرسون القوافل التجارية بالمدينة (2), ويبدو أن ولاته بدأت تفقد أهميتها ببروز تمبكتو كحاضرة تجارية وثقافية . وقد هاجر كثير من سكان ولاته الى تمبكتو ، والدليل على ذلك أن حسن الوزان ، الذى زارها فى بداية القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى وصفها بأنها مملكة صغيرة خاملة لا نشاط لها وليس لها من الاماكن المسكَونة سوى ثلاث قرى وأكواخ متفرقة بين حدائق النخيل ، وإن التجار قد تركوها شيئا فشيئا وذهبوا الى المراكز الاكثر ازدهارا مثل : تمبكتو وجاو ، وبذا أصبح أمير ولاته فقيرا لا سلطة له ، بل إن هذا الأمير صار يدفع الخراج لملك تمبكتو (3) .

تمبكتو:—

من المعروف أن تمبكتو قد أسستها احدى قبائل الطوارق حوالى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وذلك كما سلف . هى تقع عند الأطراف الجنوبية للصحراء الكبرى ، فى شمال جمهورية مالى الحالية . وقد حدد الحسن الوزان موقعها بقوله :"... على بعد اثنى عشر ميلا من أحد فروع

---

(1) اسماعيل العربى .الصحراء الكبرى وشواطئها .(الجزائر :المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1983م) ص—294 .

وسوف نشير الى دور هذه الأسرة فى تأسيس مانسميه حاليا بالوكالات التجارية فى فقرة (نظم التعامل) ضمن هذا الفصل من هذه الدراسة.

(2) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص—442 .

(3) الوزان 161/2ومايليها .

النيجر ." (1) مما أكسبها موقعا ممتازا فى منحنى نهر النيجر كونها أقرب محطة للقوافل التجارية القادمة من الشمال الافريقى كما أن موقعها جعلها حلقة اتصال بين تجارة بلاد السودان وبين تجارة الشمال الافريقى(2) وقد وصف السعدى أهمية مركز تمبكتو الاقتصادى والتجارى بقوله :"... ويأتيه الناس من كل جهة ومكان حتى صارسوقا للتجارة، وأكثر الناس ورودا للتسوق أهل وغد ثم أهل تلك الجهة كلها. (3) وجاء ازدهار تمبكتو الاقتصادى والتجارى أساسا من تجارة المرور ، لاسيما تجارة الذهب والملح . وساعد موقعها على طرق الصحراء أن غدت ميناءا داخليا لأراضى السافانا والغابات الداخلية (4) . وقد زارها الحسن الوزان فى بداية القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، ووصف ازدهار الحياة فيها وخاصة من الناحية التجارية ، حيث يوجد بها دكاكين كثيرة للصناع والتجار والحياكين ، وتصل اليها الأقمشة الاوربية عن طريق التجار العرب المغاربة (5) . وكانت تمبكتو ، آنذاك ، مقسمة الى أحياء يسكن كل حى من هذه الأحياء تجار بلد من البلدان التى كانت قوافلها تقصد السودان الغربى . فهناك حى خاص بتجار غدامس وحى خاص بتجار توات ،

---

(1) المصدر السابق 165/2

(2) الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ136-137 .

(3) السعدى ، المصدر السابق ، صـ21 وقد فصل السعدى فى كتابه (تاريخ السودان) الكلام عن تأسيس تمبكتو والتطورات التى عرفتها عمرانيا وبشريا وسياسيا الى عصره (منتصف القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى) أنظر : السعدى ، المصدر السابق ، صـ20 ومابعدها .

(4) الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ137 .

(5) الوزان ، 2 /165ومايليها .

وهناك حي يسكنه خليط من التجار الآخرين (1) . هذا الى جانب كونها سوقا لبيع الخيول العربية الأصيلة التى تصل اليها مع القوافل التجارية ، وتعرض على الملك لينتقى منها حاجته ، ويعرض الباقى فى الاسواق للبيع (2) .وبصفة عامة يمكن القول بأن تمبكتو كانت على درجة كبيرة من الإزدهار التجارى ، ولقد ساعد موقعها على طرف الصحراء أن تصبح متحكمة فى تجارة الذهب والملح ، كما كانت سوقا تجارية هامة تقوم بعرض منتجات السودان للتجار العرب،وتستقبل منتجات المغرب لتصديرها الى مناطق السودان الداخلية (3) وعلى الرغم من تنوع وتعدد المواد التجارية ، المعروضة بتمبكتو ، فقد كان أهمها الملح والذهب :" ... وتدين تنبكت بانتعاشها الإقتصادى لتجارة الذهب والملح ، فضلا عن موقعها الممتاز على طريق تغازة حيث يجلب الملح ، وطريق جنى حيث يرد الرقيق والذهب بالقوارب ، أما بلدة كبرا ، الميناء الرئيسى لتنبكت ، فكانت تستقبل الملح من تنبكت لتصدره الى المناطق الداخلية بالسودان الغربى، كما يجلب عن طريقها الذهب والدقيق من مناطقه الى تنبكت".(4) وقد تميزت أسواق تمبكتو بطابعها العربى الإسلامى ، حيث كان يغلب على نظام الأسواق فى المدن العربية الإسلامية الكبرى تقسيمها الى أقسام حيث يختص كل قسم بنوعية معينة من البضائع . وقد كانت تتوافد على أسواق تمبكتو العديد من القوافل التجارية المحملة بشتى أصناف البضائع وقد وصف ابن خلدون هذه

---

(1) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ102 .

(2) المرجع نفسه ، صـ167 .

(3) الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ137 .

(4) الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ138 .

الحركة التجارية بقوله :" وهابتهم أمم السودان وارتحل الى بلادهم التجار من بلاد المغرب وافريقيا ". (1) .وقد أقيمت فى مدن السودان الغربى التجارية ، ومنها تمبكتو ، أسواق تجارية فى أيام معلومة من كل أسبوع ، وذلك تقليدا لأسواق المغرب العربى(2).

جاو *:-

تعد جاو من المراكز التجارية الهامة بالسودان الغربى ، وتقع على الضفة اليسرى لنهر النيجر حيث يتصل به وادى تلمسى (Tilmsi) الذى ينحدر اليها من قلب الصحراء (3) .ويتحدث اسماعيل العربى عن نشأة جاو بقوله :" ونحن لانعرف متى بنيت مدينة جاو على وجه التحديد ، ولكننا نعلم أن والد أبى يزيد الخارجي ، صاحب الحمار ، قد عاش فى هذه المدينة فى شبابه ومارس التجارة فيها ، حسبما يروى ابن حماد فى تاريخ العبيديين . وبما أننا نعرف أن أبا يزيد ولد حوالى 272هـ 883م ، فإن من السهل الإستنتاج ، أن مدينة جاو التى يسميها العرب كوكو كانت قائمة فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ." (4) . ولاشك أن هذا الاستنتاج صائب بالإضافة الى أن هذا النص يؤكد إستيطان العديد من الهجرات العربية الإسلامية بجاو منذ زمن مبكر. وما أبويزيد الخارجي الذى هو تاجر عربى من زناته الا مثال على ذلك .

---

(1) ابن خلدون 200/6 .

(2) نعيم قداح ، المرجع السابق ، صـ140 .

* تكتب جاو وحاغ وكاغ وكوكو ، أنظر : السعدى وكعت صفحات متفرقة .

(3) اسماعيل العربى ، المرجع السابق ، صـ317 .

(4) المرجع نفسه ، صـ317- ومايليها .

وقد تحدث البكري عن جاو قائلا :" ... وأهلها مسلمون وحواليها المشركون وأكثر مايتجهر اليها بالملح والودع والنحاس المسبوك والتاكوت وهوأنفق شيءعندهم الدبغ وحواليها معادن التيروهي أكثربلادالسودان ذهبا." (1) .

وكانت الحركة التجارية في جاو مزدهرة حيث تصلها السلع من الشمال الافريقي ومناطق الشرق العربي (2) ومن اوربا والهند ومناطق أخرى (3) وقد أزدهرت بالمدينة تجارة النحاس المسبوك ، كما سبق أن أشار البكرى الى ذلك . وكان النحاس يصل اليها من مناجم تكدا. ونظرا لشهرة جاو بأنها العاصمة السياسية والإقتصادية لمملكة سنغاى الإسلامية ، فقد كان رجال الدولة والتجار يشكلون الأغلبية قياسا بطلاب العلم والفقهاء والمعلمين (4) . وأشتهرت جاو ايضا بكثرة عدد سكانها ، فقد قدر عددهم ، وقتئذ ، بخمسة وسبعين الفا ؛ في حين لم يزد عدد سكان تمبكتو على الثلاثين الفا ، لأنها عاصمة مملكة سنغاى الإسلامية ، مما جعلها تصبح المدينة الأولى في عدد السكان (5) .

وتوضح هذه الشواهد التاريخية أهمية جاو وارتفاع عدد سكانها وفي كونها العاصمة السياسية والإقتصادية لسنغاى ، أكثر من كونها دار ثقافة وعلم . ونتيجة لموقع هذه المدينة في ملتقى طرق القوافل التجارية الوافدة من الشمال الافريقي والمشرق العربي ، فقد أصبحت تعج بالتجار العرب المسلمين ، لاسيما

---

(1) الاستبصار في عجائب الامصار ، ص222

(2) عبدالقادر ربادية ، مملكة سنغاى ، صـ109 .

(3) الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ139 .

(4) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ108 .

(5) المرجع نفسه ، صـ109 .

من صنهاجة الصحراء ، الذين لعبوا دورا هاما فى دفع المؤثرات الحضارية العربية الاسلامية نحو السودان الغربى .

وتدل إشارات الحسن الوزان على ارتفاع حجم المعروضات التجارية فى أسواق جاو ، حيث تعرض فيها منتجات السودان الغربى وخاصة الذهب والرقيق ، والمنتجات الواردة من الشمال الافريقى واوربا (1) .

وخلال فترة ازدهار الطرق التجارية بين الشمال الافريقى والسودان الغربى ، كانت القوافل التجارية تصل الى تمبكتو ومنها تتجه الى جاو ، غير أن تلك الطرق تغيرت فى أواخر مملكة سنغاى الإسلامية ، وأصبحت القوافل التجارية تصل الى جاو ومنها الى تمبكتو ، والدليل على ذلك ماتشير اليه أبيات احمد بابا التمبكتى التى قالها أثناء وجوده بمراكش فى أعقاب الغزوة المراكشية للسودان الغربى ، حيث قال :

أيا قاصدا كاغوفعج نحو بلدتى وزمزم لهم باسمى وبلغ أحبتى

سلاما عطيرا من غريب وشائقى الى وطن الأحباب رهطى وجيرتى (2) .

تادمكة *:-

تحدث البكرى واصفا تادمكه بقوله : "... وتادمكة أشبه بلاد الدنيا بمكه ومعنى تادمكه هبة مكة وهى مدينة كبيرة بين جبال وشعاب وهى أحسن بناء من مدينة غانة ومدينة كوكوا ، وأهل تادمكة بربر مسلمون وهم يتنقبون كما يتنقب بربر

---

(1) الوزان ، 169/2 .

(2) عبدالقادر زبادية، مملكة سنغاى، ص158؛ الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ص140.

* تقع آثار مدينة تادمكة (السوق) ، كما كانت تسمى ، على بعد (25) خمسة وعشرين كيلومتر تقريبا من مدينة كيدال الحديثه ، التى تقع ضمن الحدود السياسية لجمهورية مالى الحالية ، وتشكل إحدى الولايات الثلاث لشمال مالى وهى : تمبكتو وجاو وكيدال .

الصحراء " (1) . يتضح من هذه الإشارات التاريخية الأهمية الكبرى التى تتمتع بها تادمكة ، وأن بناءها حسن وتفوق فى ذلك كل من غانه وكوكو . وأن امتداد الهجرات العربية الإسلامية قد وصل الى تادمكة منذ ماقبل القرن الحادى عشر الميلادى ، وهو التاريخ الذى كتب فيه البكرى مصنفه الكبير (المسالك والممالك) . وأنها ضمت خليطا من العناصر الافريقية والعرب المغاربة ، فقد ذكر ابن حوقل ان ملوكها :" سودان ابيضت ابشارهم والوانهم " (2) .

ويدل هذا على اختلاط العناصر السكانية والإقبال على الإستقرار فى تادمكة ، وتحسن الوضع الإقتصادى والأمنى فيها حتى صارت فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى ، أحسن بناءً من مدينة غانه وكوكو . ورغم أن ابن بطوطه لم يتعرض لتادمكة بعد خروجه الى تكدا من كوكو ثم شمالا نحو الصحراء الكبرى ، ويبدو ان ذلك لم يكن لضعف أهمية تادمكة ، وانما لأن ابن بطوطة تلقى رسالة السلطان بفاس ، فسارع لتلبية أوامره وقفل راجعا ، ولم يكمل زيارته للمنطقة واستقصاء اخبارها ووصف أحوالها (3) . ولايعنى عدم تعرضه لتادمكة أنها فقدت مركزها التجارى نهائيا ، حيث أنها ظلت سوقا تجاريا هاما حتى أواخر القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى (4) .

---

(1) البكرى ، المصدر السابق، ص181؛الاستبصار فى عجائب الامصار،المصدرالسابق، صـ223 .

(2) ابن حوقل ، المصدر السابق ، صـ105 .

(3) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ454 .

(4) أحمد الياس حسين ، الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر كما عرفها الجغرافيون العرب ، رسالة لنيل درجة الماجستير فى التاريخ الإسلامى ، غير منشورة (جامعة القاهرة ، كلية الاداب ، 1977م) ، صـ137 .

ثالثا : أهم السلع التجارية

أدى النشاط الاقتصادى الى إزدهار المراكز التجارية والى توسع حركة تبادل السلع التجارية بين المنطقتين . كما تنوعت مصادر هذه السلع وأنواعها ، وهى : سلع واردة من مناطق الشمال وسلع صادرة من مناطق السودان الغربى ، وهى كما يلى :-

1) السلع الواردة الى السودان الغربى .

وصلت الى السودان الغربى أنواع متعددة من السلع بعضها من البحر الابيض المتوسط وبعضها الآخر من الصحراء ومن أهم هذه السلع :

الملح :-

كان الملح يشكل مادة تجارية وذلك للحاجة الماسة اليه وقد أشار الى ذلك الكثير من الجغرافيين والرحالة والمؤرخين ومنهم ابن بطوطة الذى أشار الى أهمية الملح بقوله :"... وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة ، يقطعونه قطعا ويتبايعون به ." (1) . وكان الملح يستخرج من منجمى اوليل وتغازا اللذين تحدث عنهما البكرى بقوله :"... ومن غرائب تلك الصحراء معدن ملح على يومين من المجابة الكبرى وبينه وبين سجلماسة مسيرة عشرين يوما تحفر عنه الارض كما تحفر عن سائر المعادن والجواهر ويوجد تحت قامتين أو دونهما من وجه الارض ويقطع كما يقطع الحجارة ويسمى هذا المعدن تاتنتال وعليه حصن مبنى بحجارة الملح وكذلك بيوته ومشارفه وغرفه كل ذلك ملح ومن هذا المعدن يتجهز بالملح الى سجلماسة وغانه وسائر بلاد السودان والعمل فيه متصل والتجار اليه متسايرون وله غلة عظيمة ومعدن للملح اخر عند بنى

---

(1) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ441 .

جدالة بموضع يسمى اوليل على شاطىء البحر ." (1) . ويبدو أن الملح كان مادة ذات أهمية كبيرة لدى السودانيين ، ولاتقل أهميته عن اهتمام العالم بالذهب في ذلك الوقت . ويؤكد بارث هذه الحقيقة بقوله :" ... والصنف الثاني الذى يشكل أهمية قصوى فى تجارة تمبكتو وفى بعض الأحيان أهم من الذهب نفسه هو الملح ، والذى أصبح يشكل مع الذهب أصناف المبادلة على طول النيجر ، منذ زمن موغل فى القدم ." (2) . وبالإضافة الى أوليل وتغازا كانت هناك بعض المصادر الاخرى للملح ، ولكن يبدو أنها كانت أقل أهمية . وقد كان الملح يحمل من الصحراء الى مراكز التجارة الكبرى على طرق الصحراء الجنوبية حيث يوضع فى الداخل . وبسبب المسافة التى يقطعها عبر الصحراء على ظهور الجمال وازدياد الطلب عليه من داخل السودان ارتفعت قيمته الشرائية بصورة كبيرة (3) . وقد اتفق الجغرافيون العرب على أن الملح كان السلعة الأولى التى يدفع السودانيون الكثير فى سبيل الحصول عليها . وكانت الممالك والمراكز التجارية على طرق الصحراء الجنوبية توليه أهتماما كبيرا ، وتيسير كل السبل للحصول عليه ولقد لعبت تجارة الملح دورا بارزا فى العلاقات بين الممالك ... فكانت غانه وجاوتداومان على ضرورة تحسين علاقاتهما باوداغست لضمان

---

(1) البكرى ، المصدر السابق ، ص171 . أما لفظ تانتال الوارد فى النص فيبدو أن المقصود منه هو معدن تغازا ، حيث حدد البكرى موقعه على بعد يومين من المجابة الكبرى ، وبينه وبين سجلماسة مسيرة عشرين يوما . راجع البكرى ، النص المشار اليه .

(2) نقلا عن : الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ، ص148 .

(3) أحمد الياس حسين ."سلع التجارة الصحراوية"، الصحراءالكبرى،ترجمة: عماد غانم(طرابلس : منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، سلسلة الدراسات المترجمة ، 1979م)، ص208 .

وصول الملح عبرها (1) وعلى العموم يتضح أن الملح كان مادة مهمة وتستهلك في السودان الغربى على نطاق واسع ولاغراض متعددة ، وبالتالى شكل اهم سلعة تجارية تصدر من الشمال لتستهلك فى الجنوب وتليها فى الاهمية النحاس.

النحاس :-

حرص اهالى السودان الغربى على الحصول على النحاس ، الذى استخدموه فى اغرض مختلفه . وقد حصلوا عليه من خلال مبادلاتهم مع لتجار العرب المغاربة ، وقد توفر معدن النحاس فى كل من السوس وتادلى وتكدا . وتحدث عنه ابن بطوطة قائلا :" ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عنه الأرض ويأتون به الى البلد ، فيسكبونه فى دورهم " (2) . وقد تحدث ابن بطوطه عن إستخدام النحاس كعملة تستخدم فى البيع والشراء فقال : "... فإذا سبكوه نحاسا أحمر ، صنعوا منه قضبانا فى طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ ، فتباع الغلاظ منها بحساب اربعمائة قضيب بمثقال ذهب ، وتباع الرقاق بحساب ستمائة بمثقال ، وهى صرفهم ، يشترون برقاقها اللحم والحطب ، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح "(3) . واستخدم النحاس أيضا فى الزينة كحلى وصنعوا منه الأقنعة والتماثيل .

وكان النحاس يحول الى الواح وخيوط وخواتم ، وتصدر كميات كبيرة منه الى بلاد السودان ويضيف قائلا : ويحملون النحاس منها الى مدينة كوبر ، من بلاد الكفار ، والى زغاى ، والى بلاد برنو ، وهى على مسيرة اربعين يوما من

---

(1) ابن حوقل ، المصدر السابق ، صـ101 .

(2) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ453 .

(3) المصدر نفسه ، صـ453 - 454 .

تكدا "(1) . وبهذا يتضح الدور الهام الذى لعبه النحاس فى المبادلات التجارية بين السودان الغربى والشمال الافريقى ، الى جانب مواد أخرى مثل الأقمشة .

الأقمشة والأصباغ :-

شغف أهالى السودان الغربى بإقتناء الأنواع المختلفة من الأقمشة والمنسوجات البديعة الصنع الواردة من الشمال الأفريقى والمشرق العربى وحوض البحر الابيض المتوسط . رغم أنهم قد تعلموا صناعة النسيج ، وذلك بسبب توفر القطن الذى أستوردوا بذرته من الشمال الأفريقى ، لكن يبدو أن الكميات التى أنتجوها لم تكن فى مستوى من الكثرة والجودة حتى تكفيهم . مما دعاهم الى إستيراد هذه المنتجات عبر القوافل التجارية الوافدة على بلادهم من الشمال الافريقى . وقد وصف البكرى أهالى تادمكة وملكهم بقوله :" ... ويلبسون الثياب المصبغة بالحمرة من القطن والفولى وغير ذلك وملكهم يلبس عمامة حمراء وقميصا أصفر وسراويل زرقاء ." (2) كما وصف ابن بطوطة ملابس أهل ولاته بأنها : "ثياب مصرية حسان" (3) ، ولاحظ ابن بطوطة أيضا أن أهل تكدا يتاجرون مع مصر ويجلبون منها الثياب الحسان (4) .

وقد أشتهرت مدينة سوسة بصناعة المنسوجات القطنية الرفيعة (5) وكانت هذه الملابس تعرف بالسوسية وقد وصلت الى السودان الغربى . كما كانت القوافل

---

(1) الصفحة نفسها .

(2) البكرى ، المصدر السابق ، صـ181 .

(3) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ442 .

(4) المصدر نفسه ، صـ453 .

(5) الإستبصار فى عجائب الأمصار ، المصدر السابق ، صـ119 .

التجارية تتزود بالمنسوجات الصوفية من أجدابية فتصل الى بلاد السـودان الغربـى عبر الطرق الصحراوية (1) .وكانت مصنوعات المغرب الأقصى من المنسـوجات الصوفية تصل الى السودان الغربى ومنها : "الأكسية وثياب الصـوف والعمـائم والمآذر " (2) كما كانت تصل الى أوداغست الثياب الملونة (3) .

الكتب :-

كانت الكتب من أبرز السلع المتداولة ويجنى منها التجار أرباحـا طائلـة بسبب الإقبال الشديد لأهالى المنطقة على اقتنائها وقد كانت أسـعارها مرتفعـة وسـوقها رائجة . وكانت الكتب ترد من المغـرب ومصـر والمشـرق العربـى . وقـد عـرف السـودان الغربـى معظـم المؤلفـات المعروفـة آنـذاك فـى الوطـن العربـى والعـالم الإسلامى ، وذلك كما سيتضح *.ورغم إنتشـار حرفـة الوراقـين كتقليـد لواقـع الحال فى المغـرب ومصـر وقيـام السـودانيين بوضـع العديـد مـن المؤلفـات وفـى شتىصنوف المعرفة ؛ غير أن عملية استيراد الكتب والمتاجرة فيها لم تتوقـف. (4) وقد أرتفعت أسـعار الكتـب وذلـك بسـبب إقـدام عـدد كبـيرمن أهـالى المنطقـة وأثريائهـا عـلى إقتنـاء أعـداد كبيرة منهـا (5). وقـد أكـد الحسـن الـوزان على

---

(1) أحمد الياس حسين ، سلع التجارة الصحراوية ، صـ210 .

(2) الادريشى ، المصدر السابق ، صـ3 .

(3) البكرى ، المصدر السابق ، صـ159 .

* أنظر : الفصل الرابع من هذه الدراسة "التأثير الثقافى".

(4) جمال زكريا قاسم ، الروابط العربية الافريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية، صـ44-45 .

(5) بازل دافدسن ، المرجع السابق ، صـ148 .

أن هناك مخطوطات كثيرة تأتى الى المنطقة من الشمال الأفريقى وتدرأرباحا تفوق أرباح سائرالبضائع (1).

سلع أخرى :-

وصلت الى السودان الغربى عبر الصحراء الكبرى بعض السلع الأخرى مثل : القمح الذى كان يزرع فى بعض مناطق السودان الغربى ولكنه لايكفى حاجة الإستهلاك ، ومع انه لم يكن الغذاء الرئيسى للسكان ، آنذاك ، إلا انه كان لابد من سد النقص الذى عانى منه السكان . فلجأ التجار الى استيراده من بعض أقاليم الوطن العربى . وقد أشار البكرى الى أن القوافل التجارية كانت تحمل القمح والزبيب والتمور الى اوداغست (2) . وقد وصلت الى المنطقة التمور وبعض أدوات الزينة مثل العطور والأصداف (3) والخرز والاسورة والختم (4) والودع (5) ، والفخار والاداوات الخزفية الراقية الملونة والتحف المعدنية (6) والخيول (7) .

---

(1) الوزان 167/2 .

(2) البكرى ، المصدر السابق ، صـ158 .

(3) الادريسى ، المصدر السابق ، صـ66 .

(4) القزوينى ، المصدر السابق ، صـ19 .

(5) البكرى ، المصدر السابق ، صـ179 .

(6) السيد عبدالعزيز سالم .المغرب الكبير فى العصر الاسلامى .(القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر ، 1966م)، صـ573 .

(7) القلقشندى 5 / 287 .

2) السلع الصادرة من السودان ألغربي

الذهب :-

لعب الذهب دورا إقتصاديا هاما فى حياة بلاد السودان الغربى ، وكان وراء تنشيط حركة التبادل التجارى عبر الصحراء الكبرى منذ أيام مملكة غانة ، التى أشتهرت باسم بلاد الذهب (1) .

وكان ذهب السودان الغربى ينتج من مناجم ونجاره ، ويبدو أن أهمية الذهب فى السودان الغربى قد ازدادت فى عهد مملكة مالى ، وذلك نتيجة للشهرة التى اكتسبتها هذه المملكة على أثر حجة عاهلها منسا موسى المشهورة الى الاراضى المقدسة ، وقد أدى ذلك الترف الذى ظهر به العاهل المالى منسا موسى الى توافد التجار والعلماء والصناع الى السودان الغربى ، مما أدى الى بروز الأهمية العالمية لمملكة مالى وظهرت فى الخريطة القطالونية ، التى رسمها ابراهيم كريسك الميورقى حوالى عام 1375 (2) .وأصبحت المنطقة معروفة فى اوربا بأنها مصدر الذهب ، وقد لفتت هذه الأهمية أنظار القوى الإستعمارية الأوربية التى وضعت خططها لإستعمار المنطقة واستنزاف ثرواتها.ويزعم العالم الاثرى مونى أن حجم ماتصدره تلك المناطق من الذهب كان مايقارب تسعة أطنان من الذهب سنويا (3) .

وقد شد الذهب إنتباه الكثيرين من الرحالة والجغرافيين والمؤرخين العرب ، الذين توافدوا على المنطقة منذ حوالى القرن الثالث الهجرى /التاسع الميلادى ،

---

(1) بازل دافدسن ، المرجع السابق صـ137 .

(2) أمين الطيبى ، المرجع السابق صـ312 .

(3) بازل دافدسن ، المرجع السابق ، صـ136 .

وتحدثوا عن وفرته وأماكن تواجده . يقول ابن بطوطه واصفا وفرة الذهب بالسودان الغربى ، وبالذات فى تغازا :"... وقرية تغازا على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر ." (1) . وتحدث الحسن الوزان عن وفرة الذهب والثراء الكبير الذى ظهر به ملوك السودان الغربى بقوله : "... ويملك الملك خزينة كبيرة من النقود والسبائك الذهبية " (2) .ورغم أن مناجم الذهب كانت تقع فى الاجزاء الجنوبية من بلاد السودان الغربى ، والتى كانت فى أحيان كثيرة خارج سيطرة الممالك الإسلامية فى السودان الغربى ؛ غير ان هذه الممالك كانت تسيطر على الطرق المؤدية الى مناطق الذهب . فقد سيطرت مملكة مالى ثم مملكة سنغاى على هذه الطرق وأقامت علاقات تجارية مع الشمال الافريقى . وفى أواخر القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى رأى الأشراف السعديون فى المغرب الأقصى أن الظروف مواتية للسيطرة على مناطق الذهب والطرق المؤدية اليه ، وذلك بسبب التفكك والإضطرابات التى كانت تعيشها مملكة سنغاى ، وبالرغم من النجاح العسكرى الذى أحرزه المنصور السعدى فإن عائده من الذهب كان ضئيلا ، وبإنتهاء سنغاى عام 1000 هـ /1591م (3) ، انتهى عصر الذهب عبر الصحراء . والخلاصة ، أن الذهب والمتاجرة فيه قد لعبت دورا كبيرا فى نمو العلاقات بين الشمال الافريقى والشرق العربى وبين السودان الغربى لعدة قرون، وساعدت على ازدياد الاتصال بين شعوبها وانتشار الاسلام والحضارة العربية فى السودان الغربى .

---

(1) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ441 .

(2) الوزان 2 /166 .

(3) عبدالقادر ربادية ، مملكة سنغاى ، صـ53 .

الرقيق :-

كان الرقيق يمثل أحد السلع التجارية الهامة فى العالم مُنذ أقدم العصور . وكانت بلاد السودان الغربى أحد مصادر الرقيق الوارد الى شمال افريقيا ومناطق حوض البحر الابيض المتوسط ويقال أن الرومان خلال حكمهم لمنطقة الشمال الافريقى قد أستخدموا الرقيق على نطاق واسع فى دولتهم (1) .

ويلاحظ أن منطقة السودان الغربى كانت أكثر المناطق الافريقية تعرضا لاستنزاف أسواق النخاسة العالمية على أثر تطور حركة الكشوف الجغرافية واكتشاف الامريكتين . وقد شارك التجار الاوربيون ووكالاتهم التجارية فى نقل اعداد كبيرة من الوطنيين الافارقة الى خارج بلادهم (2) . وكان هؤلاء الرقيق الذين يعرضون فى الاسواق السودانية يجلبون فى غالب الاحيان من مناطق الغابات الجنوبية الوثنية (3) .وبالإضافة الى تصدير السودان الغربى للرقيق الاسود فإنه يبدو أنه قد كان يورد الى المنطقة الرقيق الابيض ، ولكن فى أعداد محدودة ، ولم تكن هناك أسواق محددة وذلك راجع فيما يبدو الى ارتفاع أسعارهم ، حيث كان هذا النوع من الرقيق يؤتى به من الخارج ، وذلك بناء على رغبات الملوك ، وقد شاهد ابن بطوطة لدى أحد حكام مالى جارية دمشقية (4) . ويبدو انه بإنتشار وتعمق المؤثرات العربية الإسلامية بالمنطقة تعرضت مسألة الرق والمتاجرة فيه الى استهجان ، وذلك من قبل بعض العلماء والفقهاء الذين وصل بهم الأمر

---

(1) الشيخ الأمين عوض الله ، المرجع لاسابق ، صـ158 .

(2) عبدالقادر زبادية ، الحضارة العربية والتأثير الاوربى ، صـ39 .

(3) المرجع نفسه ، صـ39 .

(4) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ452 .

الى إصدار الفتاوى الدينية بعدم جواز تلك التجارة. (1)

سلع أخرى :-

والى جانب تصدير مادتى الذهب والرقيق ، ساهم السودان الغربى أيضا بتصدير عدد من السلع الاخرى ، التى أعتمدت عليها تجارة الصحراء مثل : الدخن وريش وبيض النعام والشب والقطن والكولا والعاج والجلود والفول السودانى والزبد والعنبر وغيرها.

رابعا : نظم التعامل .

1) المقايضة

كانت وسيلة التعامل الواسعة الانتشار بين التجار العرب الوافدين ومواطنى السودان الغربى هى المقايضة التى تعتمد على الاتفاق بين الطرفين فيما يعرضانه من سلع . وكان المواطن السودانى يعرض الذهب كسلعة رئيسية الى جانب السلع الاخرى مثل سن الفيل والريش ، ويقوم التاجر الوافد بعرض الملح كسلعة أولى الى جانب بعض السلع الاخرى مثل المنسوجات وأدوات الزينة . وكان الاتفاق فى المناطق الداخلية بين التاجر الوافد والمواطن السودانى لايتم موجهة بل يعرض كل منهما بضاعته وينسحب ، ولذلك أطلق على هذا النوع من المقايضة اسم التجارة الصامتة. وقد عرف هذا النمط من التعامل التجارى منذ أزمنة

---

(1) مثل : التمبكتى . "مخطوطة معراج الصعود لنيل مجلب السود ". المعهد الموريتانى للبحث العلمى - قسم المخطوطات ، نواكشوط - موريتانيا

سحيقة جدا . وقد ذكر هيردوتس أن الفنيقيين أدخلوا نظام التجارة الصامتة حينما تاجروا فى الذهب مع أهالى السودان الغربى ، وذلك منذ حوالى عام 450 ق.م، ومنذ ذلك التاريخ تقريبا أصبح الذهب محور تجارة السودان الغربى العابرة للصحراء (1) وكان هذا النوع من التعامل منتشرا فى دواخل بلاد السودان الغربى حيث كانت تتوفر مناجم الذهب كما سلفت الاشارة . أما فى المراكز التجارية على أطراف الصحراء فقد كان الأمر مختلفا قليلا . فذلك النوع من المقايضة كان يتم بحضور الطرفين ، أهالى المنطقة الذين كانوا يمتلكون الملح والتجار. وكان هؤلاء التجار يصلون بأحمال الملح الى نهر السنغال ليبادلونها بالذهب. وبالطبع لم تقتصر هذه المبادلة أو المقايضة على سلعتى الملح والذهب إذ ذكر ابن بطوطة أثناء رحلته الى المنطقة أنه كان يحمل قطع الملح وحلى الزجاج وبعض السلع العطرية ليستبدل بها اللبن والدجاج والدقيق.(2) ويظهر أن تغلغل المؤثرات العربية الاسلامية بالمنطقة أدى الى تلاشى هذا النمط من التعامل التجارى ، وأستمر العمل بالمبادلة أو المقايضة العينية أى استبدال سلعة بأخرى . ومن المعروف أن سلعتى الذهب والملح كانتا تتم مبادلتهما بالتساوى فى عهد مملكتى غانة ومالى ، وفى حالة نقص تجار الشمال الافريقى الذين يحضرون مادة الملح فإن النسبة تعادل وزنا من الملح بوزنين من الذهب . ويصف الغرناطى هذه العملية بقوله : " فإذا وصلوا الى غانة باعوا الملح وزنا بوزن الذهب، وربما باعوه وزنا بوزنتين أو أكثر على قدر كثرة التجار وقلتهم ." (3).
ويبدو أن عملية المبادلة لم تقتصر على الملح . ففى المناطق التى يقل فيها الملح أو

---

(1) أحمد الياس حسين ، سلع التجارة الصحراوية ، صـ204 .

(2) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ443 .

(3) الغرناطى . تحفة الالباب . (نشر الجمعية الاسيوية ، 1950 م) ،صـ 41ومايليها .

ينعدم يتم التبادل بالسلع المحلية . فأهل سلى تعاملوا بالذرة والقمح والنحاس(1). وبتعرض المنطقة للتأثيرات العربية الاسلامية وتطور الحياة الاقتصادية ، أختفت ظاهرة المقايضة والتبادل وظهرت الحاجة الى العمل بنظام العملات .

2) العملات

وبإزدياد نشاط الحركة التجارية وتضاعف احجامها وتعرض المنطقة لموجة التأثيرات الحضارية العربية الاسلامية بدأ يظهر في الأفق مجال التعامل النقدى لثبات قيمته ، ومن هنا ظهر نظام العملات مثل : النقود الذهبية والنقود الفضية والنحاسية الى جانب بعض السلع الاخرى التى صار لها قوة النقد وقيمت به المعاملات البسيطة مثل : الودع والمنسوجات القطنية .

أ) النقود الذهبية

عرفت النقود الذهبية بالسودان الغربى منذ زمن مبكر . وقد أشار البكرى فى القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى الى استعمال الدينار فى تادمكة إذ ذكر "... ودنانيرهم تسمى الصلع لأنها ذهب محض غير مختومة " (2) . ورغم عدم وقوفنا على مايوضح وزن الدينار بالسودان الغربى فإنه يبدو انه كان على نفس الوزن المعمول به فى الوطن العربى والعالم الاسلامى آنذاك وهو مثقال واحد . فقد ذكر المقريزى أن المثقال من الذهب يسمى دينار (3) . وقد أشار ابن بطوطة كثيرا الى ذلك أثناء تعرضه لولاته وتكدا ومالى . وقد ذكر أن

---

(1) البكرى ، المصدر السابق ، صـ173 ؛ الاستبصار فى عجائب الامصار ، 217 .

(2) البكرى ، المصدر السابق ، صـ181 .

(3) نقلا عن : أحمد الياس حسين ، طرق التجارة عبر الصحراء الكبرى ، صـ177

سعر الخيل والملح كان يقدر بالمثقال بالإضافة الى ذلك فإنه قدر عطايا منسا موسى التى كان يغدقها على الشخصيات الهامة فى دولته بالمثقال (1). وكانت العملات العربية متداولة بالسودان الغربى فقد وجدت دنانير مصرية مغربية فى مالى وجاووكانت تستعمل لشراءمتطلبات الأسر الحاكمة (2) ، ومن الطبيعى أن تصل أنواع كثيرة من العملات المتداولة فى الوطن العربى الى بلاد السودان الغربى وذلك بحكم الارتباط والتواصل التجارى بينهما . وقد أشار الحسن الوزان الى أن أهالى السودان الغربى كانوا يتعاملون بالعملات الذهبية بقوله :" والعملة الرائجة عند هؤلاء السودانيين هى الذهب غير المسكوك "(3) .ويصف الوزان الكميات الهائلة من النقود والسبائك الذهبية المتوفرة بالمنطقة الى درجة أن أهالى المنطقة ، أحيانا يتداولون الذهب الخالص عوضا عن العملات المسكوكة بقوله :"... ويملك الملك خزينة كبيرة من النقود والسبائك الذهبية ... وتستعمل قطع الذهب الخالص بدلا من العملة المسكوكة" (4) .

ب) النقود الفضية والنحاسية

لم يشر الجغرافيون والرحالة العرب ، بصفة عامة ، الى انتشار النقود الفضية فى السودان الغربى ، بإستثناء إشارة واحدة حسب علمنا ، أوردها ابن بطوطة

---

(1) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ449 .

(2) شوقى عطا الله الجمل ." دور العرب الحضارى فى افريقيا " ، ورؤوف عباس أحمد (المحرر) العرب فى افريقيا الجذور التاريخية والواقع المعاصر ،(القاهرة : دار الثقافة العربية ، 1407 هـ/ 1987م) ، صـ164 .

(3) الوزان 163/2 .

(4) المصدر نفسه ، صـ166 ومايليها .

بقوله ،" أن أهل السودان يتصارفون بالذهب والفضة " (1) ، مع عدم تفصيله وشرحه لكيفية التصرف بالفضة . أما التعامل بالنقود النحاسية فى السودان الغربى فقد كان واضحا حسب رواية ابن بطوطة الذى ذكر ان النحاس الذى يستخرج من تكدا "... صنعوا منه قضبانا فى طول شبر ونصف ، بعضها رقاق وبعضها غلاظ ، فتباع الغلاظ منها بحساب اربعمائة قضيب بمثقال ذهب ، وتباع الرقاق بحساب ستمائة مثقال ، وهى صرفهم يشترون برقاقها اللحم والحطب ، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح " (2) .

ويبدو أن التعامل بالنحاس لم يكن واسع الانتشار فى السودان الغربى ، إذ لم تهتم بذكره المصادر العربية كثيرا كنوع من أنواع التعامل التى أشاروا اليها ، والمنطقة التى ذكر فيها التعامل بالنحاس ، بالإضافة الى تكدا المشار اليها ، هى مناطق انتاج الذهب وكان سعر الذهب فيها مرتفعا بالقياس الى تكدا ؛ إذ يباع كل مثقال من النحاس بستة وستين مثقالا وثلثى مثقال ذهب (3) . أما النقود الحديدية فيبدو أنها كانت منتشرة ومتداولة بالمنطقة حيث أشار الحسن الوزان فى معرض حديثه عن جنى أن من العملات الرائجة عندهم "قطع الحديد لشراء أشياء تافهة كاللبن والخبز والعسل وتزن هذه القطع رطلا أو نصف رطل او ربعه"(4) و لم يحدد الحسن الوزان قيمة هذه العملة الحديدية مقابل غيرها من العملات كالعملة الذهبية أو النحاسية .

---

(1) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ441.

(2) المصدر نفسه ، صـ453 ومايليها .

(3) القلقشندى 291/5 .

(4) الوزان 163/2 .

ج) الودع *

وصل الودع الى بلاد السودان الغربى عن طريق قوافل التجارة وخصوصا قوافل العرب المغاربة وقد حمل بعض التجار عددا من هذه الأصداف الى جزر المالديف . وباعوا انتاجها بإفريقيا الغربية . كما كان الودع معروفا ضمن التعامل التجارى فى شرق افريقيا .وأصبح الودع عملة معترفا بها فى بلاد السودان الغربى . وقد أشار الى ذلك العمرى بقوله "... أخبرنى ابن أمير حاجب أن المعاملة فى بلاد التكرور بالودع وان التجار اكثر مايجلب اليهم الودع وتستفيد به فائدة جليلة " (1) . ويتضح من خلال هذا النص أن الودع كان يستعمل وسيلة للتعامل التجارى فى مملكة مالى ويذكر محمود كعت أن الودع كان عملة شائعة فى السودان الغربى أواخر القرن السادس عشر الميلادى . وأن المثقال من الذهب فى تمبكتو كان يصرف بثلاثة آلاف ودعة . وأن العشر تمرات تباع بخمس ودعات (2) .

وعندما جاء بعض الاوربيين الى سواحل غرب افريقيا جلبوا معهم الودع بسفنهم من الهند فنافسوا بهذا العمل تجار العرب المغاربة .(3) .

---

* الودع هو عبارة عن فصيلة من أصداف بحار المناطق الحارة يعيش بداخلها بعض القواقع المائية ويتكون جسم الصدفة من كربونات الجير ،حسبما جاء بموسوعة الثقافة العلمية مادة (صدفة) ويسمى الودع أو الكورى أو (Couris) وعلميا (Cyprixamonta) .

(1) العمرى ، المصدر السابق ، صـ44 .

(2) كعت ، المصدر السابق ، صـ183.

(3) محمد العزبى ، المرجع السابق ، ص 435 ؛ Mauny :OP.Cit .P. 430 ؛ الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ، ص149 .

د) المنسوجات القطنية

ومن السلع التى استعملت كنقد ، أى صارت لها قوة النقد هى منسوجات قطنية عرفت فى السودان الغربى وهى تسمى الشكيات ويقول عنها صاحب كتاب الإستبصار :"وبتبايع اهلى سلى ... بأزر لطاف من قطن يسمونها الشكيات " (1) .

ويتحدث أبن بطوطة عن استعمال هذه المنسوجات أو الاثواب كنقد لشراء بعض الحاجيات حيث يقول :"... وقصدت السفر الى توات ، ورفعت زاد سبعين ليلة ، إذ لايوجد الطعام فيما بين تكدا وتوات ، وانما يوجد اللحم واللبن والسمن ، يشترى بالاثواب ." (2) .

3) المقاييس والمكاييل والاوزان

نتيجة للإختلاط والتبادل التجارى بين العربى وأهالى السودان الغربى فقد أستعمل أهالى السودان الغربى العديد من المقاييس والمكاييل والموازين التى عرفتها الحضارة العربية الإسلامية،وذلك على النحو التالى :

أ) المقاييس :-

وردت المقاييس التى استعملها السودانيون فى كتابات كل من : السعدى وكعت احمد بابا التمبكتى ولكن دون تحديد لمقاديرها ، وقد قام مونى ببحثها وأشار الى مقاديرها . ومن هذه المقاييس .

---

(1) الاستبصار فى عجائب الامصار صـ217 ؛ البكرى ، المصدر السابق ، صـ172 .

(2) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ454 .

الشبر :-

وهو يساوى الامتداد بين الخنصر والابهام حين تكون الكف مفتوحة ، وقد قدره مونى بـ 21،5 سم تقريبا (1) .

الـذراع :-

وهو الامتداد بين عقدة المرفق ونهاية الوسطى ، ويساوى حوالى 50 سم تقريبا (2) .

الميـل :-

وهو يستعمل فى قياس المسافات بصورة خاصة ، وقد قدره مونى ايضا بـ 1920 مترا (3) .

الفرسـخ :-

لقياس المسافات الطويلةوكان يساوى ثلاثة أميال أى 1920 x 3 = 5760 مترا تقريبا (4)

ب) المكاييل

ومن المكاييل التى كانت تستخدم هى :

المـد:-

ويساوى سعة اربعة الواح بجمع اليدين ، وقد قدره مونى أيضا بما يعادل 0،75 سم .لتر بالتقريب .

---

(1) Mauny :OP.Cit.P412

(2) Loc , cit .

(3) عبد القادر زبادية ، الحضارة العربية والتأثير الاوربى ، صـ53 .

(4) المرجع نفسه ، صـ53 .

الصـاع :-

وهو يساوى اربعة أضعاف المد أى يعادل ثلاثة لترات تقريبا .

القنطار :-

ويقدر بمائة رطل تقريبا .

المـودى :-

وهو يساوى مايحمله العبدأو الرجل من حبوب أو غيرهـا فـى كيـس كـان يتخذ من جلد. (1)

ج) الاوزان

أما الاوزان ، فكان أهمها .

المثقـال :-

وكان يساوى اربعين درهما .

الـدرهم :-

وكان يساوى أربعة أعشار الدينار .

الـوقيـة :-

وقد ذهب مونى الى انها تساوى حوالى 28،5 غرام تقريبا (2). وتجلى مظهـر التأثير العربى الاسلامى فى أن أضحت اللغـة العربيـة لغـة التجـارة والتعـامل فـى أسواق السودان الغربى بدرجة أن المصطلحات العربية المتعلقة بالمقاييس والمكاييل والاوزان أنتقلت بأسمائها العربية الى اللغات الافريقية المحلية (3) .

---

(1) عبدالقادر زبادية ، الحضارة العربية والتأثير الاوربى ، صـ54 .

(2) المرجع نفسه ، صـ54 .

(3) الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ181 .

4) الوكالات التجارية

نتيجة إزدهار النشاط التجارى فى أسواق السودان الغربى فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين ، شهدت المنطقة نظام الوكالات التجارية التى يرجع الفضل فى ترسيخ أسسه الى العناصر العربية التى تاجرت مع تلك المناطق وكان من أشهر الأسر هى أسرة (آل المقرى) وهم أجداد أحمد المقرى التلمسانى مؤلف كتاب :(نفح الطيب فى أغضان الاندلس الرطيب) ، وقد شكلوا حوالى القرن الثامن الهجرى /الرابع عشر الميلادى مايمكن تسميته بالوكالة التجارية ، حيث انشأوا لها ثلاثة مراكز رئيسية فى كل من تلمسان وولاته وسجلماسة . وكانت مهمة المقيم بسجلماسة من أعضاء هذه الشركة هو عقد الصفقات التجارية واستقبال البضائع الواردة من الشمال الافريقى واوربا والمرسلة له من شركائه بتلمسان ، ويقوم بتحويلها الى ولاته لترويجها ببلاد السودان الغربى ، فى حين يقوم شركاؤه بولاته بتجميع المنتجات السودانية من ذهب ورقيق وجلود وعاج وماإليها وارسالها الى سجلماسة لتسوق الى اوربا من الشمال الافريقى (1) .وقد تحدث أحمد المقرى عن مزاولة أجداده لهذه العملية التجارية بقوله :"... فمهدوا طريق الصحراء بحفر الابار وتأمين التجار ، واتخذوا طبلا للرحيل ، وراية تقدم عند المسير وكان ولد يحى الذين أحدهم ابوبكر خمسة رجال ، فعقدوا الشركة بينهم فى جميع ماملكوه أو يملكونه على السواء بينهم والاعتدال ، فكان ابوبكر ومحمد وهما ارومتا نسبى من جميع جهات أبى وأمى بتلمسان، وعبدالرحمن وهو شقيقهما الاكبر بتلمسان ، وعبدالواحد وعلى

---

(1) عبدالعزيز بن عبدالله .الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية ، معلمة الصحراء .

(الرباط : مطبعة فضالة ، 1976م)، صـ19 ؛ الخليل النحوى ، المرجع السابق ، صـ95 .

وهما شقيقاهما الصغيران بايولاتن فاتخذوا بهذه الاقطار والحوائط والديار، وتزوجوا النساء ، واستولدوا الإماء ، وكان التلمسانى يبعث الى الصحراوى بما يرسم له من السلع ، ويبعث اليه الصحراوى بالجلود والعاج والجوز والتبر ، والسجلماسى كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ، ويكاتبهما بأحوال التجار وأخبار البلدان ، حتى أتسعت أحوالهم ..." (1) . ورغم عدم الحصول على مادة تاريخية تؤكد انتظام هذا النوع من التعامل التجارى مابعد القرن الثامن الهجرى /الرابع عشر الميلادى ، فإنه من المرجح أن يكون نظام الوكالات التجارية أستمر بالنمط نفسه طيلة فترة هذه الدراسة .

خامسا :– التاثير فى مجال الزراعة والثروة الحيوانية .

لقد كان للعقيدة الإسلامية والتى صارت عقيدة لأهالى السودان الغربى الأثر البالغ فى تشجيع العمل الزراعى وتربية الماشية بعد أن كانوا يعيشون على الصيد والقطاف . وبتحريم الإسلام لتربية الخنازير وأكلها والحث على الإكثار من تربية المواشى والانعام وهى حيوانات لها أهميتها الاقتصادية . وقد كانت تربية المواشى خير معين لأهالى المنطقة على الاقلاع عن عادة أكل لحوم البشر التى كانت منتشرة بتلك المناطق (2) . وبتعرض المنطقة للتأثيرات الحضارية العربية الاسلامية ومافى الاسلام من روح تسامح وتعاون واخاء ، وقيام الدول المركزية

---

(1) التلمسانى .نفح الطيب فى أغصان الاندلس الرطيب ، تحقيق : احسان عباس (بيروت ، دار صادر ، 1968م)، ج 5 ، صـ205 .

(2) نعيم قداح ، المرجع السابق ، صـ141 .

المنظمة ، أدى ذلك الى التخلص من المنازعـات القبلية والصراعـات العشـائرية ، فشعر الأهالى بالأمان والاطمئنان والاستقرار مما دفعهم الى الإنصراف الى ممارسة الزراعـة وتربيـة الحيوانـات ، وتركـوا حيـاة الغابـات والكهـوف ليسـتقروا فـى الاراضى الزراعية بصورة دائمة .(1) .

فى مجال الزراعة :-

مـن بـين المزروعـات التـى حـرص أهـالى السـودان الغربـى علـى الإهتمـام بزراعتها هى القطن ، التى توفرت الظروف المناسبة لزراعتـه فـى المنـاطق الوفـيرة المياه حول الأنهار وفروعها وفى المنـاطق التـى بهـا معـدل أمطـار سـنوى يكفـى لزراعة تلك المحـاصيل . ومـن المرجـح أن بـذرة القطـن قـد جلبـت مـن الشـمال الافريقى (2) . وقد كـانت حاجـة أهـالى السـودان الغربـى ماسـة للقطـن الـذى راجت فيما بعد زراعته بالمنطقة ، واستخدم فى صناعة النسيج والملابس ، خاصة وأن العقيدة الاسلامية ، التى صارت عقيدة أغلب الاهـالى كـانت تشـجع علـى الاكتساء وستر العورة (3) .كمـا عرفـت بالمنطقـة زراعـة القمـح ، الـذى كـان يستهلك مـن الطبقـة المترفـة والمغاربـة، وكـان أغلبـه يسـتورد مـن الشـمال الافريقى (4) .كما زرع الكروم والتين وهى من أشجار البحر المتوسط وكانت

---

(1) المرجع نفسه ، صـ141 .

(2) الوزان 163/2 ؛ الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ177 ؛ عبدالقـادر زباديـة ، الحضـارة العربية والتأثير الاوربى ، صـ17 .

(3) أحمد فتوح عابدين ، المرجع السابق ، صـ366 .

أثمانها مرتفعة كما زرعت بالمنطقة أيضا محاصيل الذرة والدخن والفول السوداني. ويعتقد انه من الاسباب الهامة التى ساهمت فى إزدهار الزراعة فى تلك المنطقة هى توفر البذور الجيدة والطارئة ، بالإضافة الى توفر الخبرة الوافدة من الشمال الافريقى (1) . ويعتقد ان الزراعة بالسودان الغربى قد شهدت تطورا ملحوظا واتساعا أفقيا وذلك عقب شق القنوات وايصال المياه الى الجهات المنخفضة ، واقامة السدود على البحيرات للإحتفاظ بمياه الفيضان . ويبدو أن مسألة تحكم أهالى السودان الغربى فى ضبط مياه الفيضان واحتجازها وراء السدود لم يذكر عنها شيء فيما نعلم إلا فى عهد الملك سنى على ، الذى أختمرت فى ذهنه فكرة شق قناة لنقل المياه من الطرف الشمالى لبحيرة فاكبين (Faqbine) الى منطقة ولاته الصحراوية ، ولاشك فى أن الملك كان يأخذ بآراء عدد من الخبراء فى شئون المياه الجوفية والتجاويف الصحراوية . ولعله قد سمع بخبر المجرى القديم الذى أوصل عبره الماء من بحيرة فاكبين الى ولاته ، وعلم بسر تغذية آبار المنطقة من البحيرة وأدرك سر الاخاديد التى تدل على أن الدلتا الداخلية لنهر النيجر كانت تنتشر فى ذلك المكان فقرر تنفيذ هذا المشروع (2) . وتحدث السعدى على أن سنى على شرع فى تنفيذ هذا المشروع بكل جد واجتهاد ولكنه عدل عنه بسبب حروب خارجية تعرضت لها دولة سنغاى مما دفع به الى إلغاء العمل فى ذلك المشروع الهام (3) . ويعتقد بوفيل أن سنى على كان يهدف من هذا المشروع الى نقل المياه الى مدينة ولاته التى تبعد حوالى

---

(1) محمد العزبى ، المرجع السابق ، صـ51 .

(2) أحمد فتوح عابدين ، المرجع السابق ، صـ361 ومايليها .

(3) السعدى ، المصدر السابق ، صـ70 .

مائتى ميل عن الطرف الشمالى لبحيرة فاكبين (1).

كما تعلم مزارعو السودان الغربى أساليب زراعية متقنة مثل سحب المياه للرى الواسع ، واستعمال الاسمدة من بضعة فلاحين وفدوا الى المنطقة من توات للعمل فى مجال الزراعة ، ويبدو أن هؤلاء الفلاحين أدخلوا الى المنطقة المحاريث التى أستخدمت فيما بعد على نطاق واسع (2) . كما أن مجموعات من الفلاحين الذين توافدوا على المنطقة من الاندلس لعبوا ادوارا هامة فى مجال الفلاحة وأثمرت هذه الخبرة بان عم الزرع عموم المنطقة (3) . ويبدو أن نتائج هذه الخبرات الوافدة على السودان الغربى ظهرت فى نظام الاستغلال الجيد للأرض واستغلال كل مايمكن استغلاله منها حيث أتجهوا الى استغلال سفوح الجبال وشق المصاطب والقنوات . وكما أكد بازل دافدسن بأنهم نقلوا من أهالى الشمال الافريقى الخبرة الفنية وأضافوا اليها مابرعوا فيه فى الماضى وطوعوا كل هذا لتجربتهم الذاتية،ثم اخترعوا ما أحتاجوا اليه من أدوات وشئون على هدى ماأقتبسوه من الشمال. (4)

---

(1) بوفيل ، المرجع السابق ، صـ234 .

(2) أحمد فتوح عابدين ، المرجع السابق ، صـ359 ومايليها .

(3) أحمد فتوح عابدين ،المرجع السابق ، ، صـ360 .

(4) بازل دافدسن ، المرجع السابق ، صـ65 .

في مجال الثروة الحيوانية :-

من الحيوانات التى لعبت دورا بارزا فى حياة بلاد السودان الغربى هى الأبل التى وصلت اليها من مناطق الوطن العربى ويقال أن الجمل دخل مصر لأول مرة على أيدى الفرس فى القرن السادس قبل الميلاد ، وذلك عندما دخل قمبيز الى مصر غازيا حوالى عام 525 ق.م . ثم أستخدمه البطالمة الذين حكموا مصر فيما بين 321-30 ق.م ، والرومان إبان إحتلالهم لمناطق الشمال الافريقى حتى أن القائد الرومانى فلاكوس الذى قاد حملته الشهيرة عبر الصحراء الكبرى (حوالى عام 19 ق.م) ووصل بها الى حدود بلاد السودان ، كان يستخدم الجمل فى نقل المؤن والعتاد والجنود (1) .

ويبدو أن الجمل عرف بصورة واضحة بمنطقة الشمال الافريقى مع بدايات القرن الأول الميلادى . ويقال إنه فى منتصف القرن الرابع الميلادى طلب الامبراطور الرومانى رومانوس من سكان مدينة لبدة الحالية تأمين أربعة الاف جمل لنقل المؤن لجيشه (2) . ومن هنا يبدو : أن الجمل الذى جاء من البيئة العربية (الشام وشبه جزيرة العرب) وتم إستخدامه بصورة واضحة فى شمال افريقيا منذ بدايات القرون الميلادية الاولى وأزدادت اعداده وأهميته بمرور الزمن قد وجد طريقة جنوبا ليصل الى بلاد السودان الغربى فيما بعد . وقد كان هذا الحيوان مرتبطا بحياة البدو الذين تمكنوا من إستئناسه وترويضه . وقد أهتم العرب كثيرا بالجمل وادخلون الى شمال افريقيا وجنوبا الى بلاد السودان الغربى وكان خير معين لهم فى نشر العقيدة الاسلامية .

---

(1) أحمد فتوح عابدين ، المرجع السابق ، صـ55 .

(2) أ ، ف .غوتييه . ماضى شمال افريقيا ، تعريب هاشم الحسينى ،(طرابلس :مكتبة الفرجانى) ، صـ133.

وقد أحدث دخول الجمل الى المنطقة ثورة فى وسائل النقل عبر الصحراء الكبرى ، فلم تعد القفار والرمال الزاحفة حواجز عازلة . فقد حطم استخدام الجمل كل الحواجز وتحولت دروب الصحراء الى معابر للقوافل التجارية وقامت في مناطق مختلفة محطات تجارية مزدهرة (1) . وبالإضافة الى استخدامه كوسيلة نقل أستفيد منه كمصدر غذاء هام وخاصة لسكان الصحراء والواحات . وأستفيد من جلودها فى صناعة الصنادل والاكياس والقرب والفرش . وصنعوا من وبرها الخيام واللباس (2) و لم يستعمل الجمل فى نقل السلع التجارية فقط بل بنقل الثقافة والافكار والعقائد الى مناطق ماوراء الصحراء لأنه وسيلة لنقل الكتب وركوب العلماء والمثقفين مماساعد فى القضاء على الوثنية وأنار درب الحياة الجديدة ، وبشر سكان بلاد السودان الغربى بحضارة جديدة مالبثوا أن أصبحوا من أهم معتنقيها ودعاتها . وكذلك من الحيوانات التى لعبت دورا هاما فى حياة المنطقة الخيول التى كانت أبرزها الخيول العربية الوافدة من الشمال الافريقى عن طريق التجار العرب المغاربة . وذلك على حسب ماأشارت الى ذلك بعض المصادر التاريخية (3) . ويعتقد الشيخ الامين عوض الله أن الخيول العربية الوافدة كانت من السلع الهامة ذات الاسعار المرتفعة ويرجع سبب ارتفاع أسعارها الى أن الصفقات التى تورد منها الى السودان الغربى تتعرض للتناقص بسبب هلاك الكثير منها نتيجة للعطش ، وهذا مما يدفع بالتجار الى بيع مايصل منها بأثمان عالية لكى يعوضوا ماخسروه منها أثناء الطريق . ومن هنا صارت

---

(1) الخليل النحوى ، المرجع السابق ، صـ94 .

(2) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ186 .

(3) مثل : القلقشندى 287/5 ؛ الوزان 166/2 .

الخيول سلعة تقتنى من قبل الملوك والفئات الميسورة الحال فقط (1) . كما عرفت أنواع أخرى من الخيول وهى صغيرة الحجم وتسمى (بونى) (2) ، وهى تستعمل فى التنقل والمتاجرة داخل مناطق السودان الغربى ، ويستعملها الملوك والحاشية فى تجوالهم من داخل المدن .

سادسا :- التأثير فى مجال الصناعات والحرف والثروة المعدنية

لقد شهدت الصناعات والحرف فى السودان الغربى إزدهارا ملحوظا ، وقد أوكلت مهمة القيام بالصناعات المتعلقة بالإحتياجات المادية التى يحتاج اليها النبلاء والعلماء الى فئة من عامة الشعب ؛ من صناع وفلاحين (3) . ولاشك أن تعمق مفاهيم العقيدة الإسلامية كان سببا فى إزدهار الصناعة ، ومن أمثلة ذلك محاربة العقيدة الاسلامية لعادة العرى التى كانت معروفة بالمنطقة ، ولذلك حرص الأهالى على ارتداء الملابس :"... فأزدهرت نتيجة لذلك صناعة النسيج وحياكة الملابس ." (4) . كما عرف حرفيو السودان الغربى استعمال الاصباغ عن طريق التجار العرب المغاربة الذين اختلطوا بهم ، وكان هؤلاء الصباغون يستعملون فى تجسيمها أوراق النباتات لإعطاء الوان مختلفة ويضيفون اليها فى الغالب الشب والملح لتثبيت الالوان (5) . كما انتشرت بالسودان الغربى حرفة

---

(1) الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ152 .

(2) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ185 .

(3) Joseph cuoq.OP,Cit.P:148.

(4) نعيم قداح ، المرجع السابق ، صـ143 .

(5) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ192 .

الوراقين وذلك تقليدا لواقع الحال فى مصر والحجاز والمغرب (1) ، ومعناها القيام بنسخ الكتب والمخطوطات وتجليدها والمتاجرة فيها على نطاق واسع . وكان يقوم بهذا العمل نساخون محليون لحساب بعض العلماء والسلاطين مثل الاسكيا داوؤد الذى كان فى خدمته عدد كبير من الكتبة والنساخين وكان يحفظ هذه المخطوطات فى خزائنه (2) . وغنى عن البيان أن حرفة نسخ وتجليد الكتب هى تقليد لما كان سائدا فى الوطن العربى والعالم الاسلامى ، آنذاك حيث عرفت حرفة تجليد الكتب ونقشها وزخرفتها وتطريزها . كذلك من الصناعات والحرف التى أزدهرت بالمنطقة هى الصناعات ذات الاستعمال المنزلى مثل صناعة الحلى من الذهب والفضة ونتيجة لتعرض السودان الغربى للتأثيرات العربية الاسلامية فقد وصل الأهالى الى درجة كبيرة من الثراء ويؤكد ذلك المثل الشائع فى شمال افريقيا والذى يقول :

إن يجرب جملك فعليك بالقطران

وإن تفتقر فسافر الى السودان .

وقد تطورت الاساليب التجارية التى مارسها أهالى السودان الغربى ووصلوا الى مستوى جيد من المهارة فى ممارسة العمليات التجارية ، وقضوا على ماسبقهم من تقاليد تجارية مثل : التجارة الصامتة والمبادلة والمقايضة ، وطبقوا النظم الحضارية فى التعامل التجارى مثل : التعامل بالنقود الذهبية والفضية والنحاسية كما أستخدموا بعض السلع التى لها قوة النقد مثل: الودع والمنسوجات القطنية ، ونظام الوكالات التجارية . كما أن مهنة التجارة التى مارسوها كانت بناء

---

(1) جمال زكريا قاسم ، الروابط العربية الافريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية ، صـ44-45 .

(2) كعت ، المصدر السابق ، صـ94 ؛ Joseph Cuoq .OP.Cit.P.210.

على دراسة تامة ومعرفة بالعمليات الحسابية ، وكـانوا يحـددون مواعيـد انطـلاق القوافل ، ويختارون البضائع الاكثر رواجا وبالتالى الاكثر ربحا الى غير ذلك ويدل كل ماتقدم على تأثرهم بالانماط الاقتصادية العربية الاسلامية التى أنتقلـت اليهـم عبر الصحراء الكبرى . وكـان للتأثـير الاقتصـادى دور فعـال فـى توطيـد دعـائم التأثير العربى الاسلامى فى السودان الغربى فى مجال الحياة الثقافية والاجتماعية ، وهذا ماسيتناوله الفصل الذى يلى .

الفصل الرابع

التأثير الثقافى والاجتماعى

أولا : وسائل إنتشار الثقافة العربية الإسلامية

1- البدو والهجرات العربية .

2- التجار .

3- الفقهاء والمعلمون والأئمة .

4- الطرق الصوفية

ثانيا : أهم مراكز إنتشار الثقافة العربية الإسلامية .

1- تمبكتو 2- جنى 3- نيانى .

ثالثا : مظاهر الثقافة العربية الإسلامية .

1- إنتشار الإسلام واللغة العربية .

2- التعليم ومراحلة .

3- فن العمارة : البناء ، النحت ، النقش .

رابعا : مظاهر التأثير فى الأنماط الإجتماعية .

1- العادات والتقاليد والفنون الشعبية .

2- المرأة ونظام الأسرة .

3- الزى وتقاليده .

4- الشعائر والطقوس الدينية .

5- أداء فريضة الحج الى الاراضى المقدسة .

كانت لبلاد السودان الغربى صلة بالشمال الافريقى ومصر منذ فترة ماقبل الإسلام حيث كان تجار تلك المناطق يترددون عليها ويجدون فيها متجرا حسنا . كما كان البدو يجوبون الصحراء ويتوغلون فى أرجاء المنطقة بحثا عن الكلأ والمرعى والاستقرار . وقد أتضحت معالم التأثيرات الثقافية العربية الإسلامية فى المنطقة منذ القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وضربت اللغة العربية بجذور عميقة بعد تدفق هجرات قبائل بنى هلال وبنى سليم الى شمال افريقيا.

ومنذ ذلك الوقت أصبح الشمال الافريقى مصدر إشعاع رئيسى لمؤثرات الثقافة العربية الإسلامية الوافدة على السودان الغربى ، وقد عزز انسياب مظاهر الثقافة العربية الإسلامية الى السودان الغربى بطريقة سلمية عن طريق الهجرات المتعاقبة ونشاطات العناصر العربية من البدو والتجار والفقهاء ورجال الطرق الصوفية وغيرهم . وبإنتشار الإسلام بين أهالى السودان الغربى وتوطيد دعائمه فى ظل مملكتى مالى وسنغاى الإسلاميتين غلبت مظاهر الثقافة العربية الإسلامية على تلك البقاع . وكانت لرحلات الحجيج السودانيين للأراضى المقدسة وللعلاقات التجارية الكبيرة التى ربطت المنطقة مع الشمال الافريقى ومصر أثر كبير فى دعم العلائق الثقافية بين هاتين المنطقتين العربية والإفريقية . وبكثرة أفواج العرب الى المنطقة ، وازدهار الحركة التجارية أدى الى قيام العديد من المراكز والحواضر التى صارت مراكز ثقافية زاهرة بالنشاط الثقافى والعلمى وصارت هذه المراكز مستودعا كبيرا للعلماء ولإنتاجهم العلمى ورأس جسر للثقافة العربية الإسلامية فى أطراف القارة الإفريقية . وأنتشرت بفعل ذلك المظاهر الثقافية العربية الإسلامية من إنتشار للإسلام واللغة العربية وصار التعليم على النمط العربى

الإسلامى المعـروف آنـذاك ، وأصبحـت الفنـون المعمارية علـى النمـط العربـى الإسلامى . و لم تقتصر التأثيرات العربية الإسلامية على الثقافة والعلوم بل وقعـت تأثيرات هامة فى أنماط الحياة الإجتماعية من عادات وتقاليد وفى أوضاع للمـرأة والنظام الأسرى وفى الزى وتقاليده وفى الشعائر والطقوس الدينية وفى مواكـب الحج وهذا ماستتم دراسته ضمن هذا الفصل .

أولا:– وسائل إنتشار الثقافة العربية الإسلامية فى السودان الغربى

1- دور البدو والهجرات العربية : كانت قبائل صنهاجة الثلاث مسوفة ولمتونة وجدالة * فى طليعة القبائل العربية التى هاجرت الى السودان الغربى منذ وقت مبكر ، وساهمت فى تمهيد الأرضية لتدفق المؤثرات العربية الإسلامية الى ربوع المنطقة لاسيما منذ القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى .ولم تقف الصحراء الكبرى عائقا دون تواصل الروابط والصلات المتعددة بين شمال افريقيا وجنوبها ، بل كانت طرقها ومنافذها والمراكز التجارية التى أقيمت على جانبيها ، من العوامل الهامة التى ساعدت على تدفق المؤثرات العربية الى تلك المنطقة . وصارت رقعة الإسلام فى أمتداد متواصل لاسيما عقب سقوط مملكة غانة الوثنية على أيدى المرابطين عام 1076م . ونجم عن هذا المد القادم من الشمال قيام ممالك افريقية اسلامية بلغت تقدما حضاريا ملحوظا بفعل إعتناقها الإسلام (1) . وكانت هذه الهجرات المختلفة نتيجة لأسباب سياسية أو إقتصادية أو دينية. وإذا كان تاريخ كثير من هذه الهجرات غير معروف، فقد عرف تاريخ بعضها الآخر. فقد ذكر البكرى :"... ان ببلاد غانة قوما يسمون بالهنيهيين من ذرية الجيش الذى كان بنو أمية أنفذوه الى غانة فى صدر الإسلام ... وبسلى أيضا قوم منهم يعرفون بالغامان ." (2) .كما هاجر الى ولاته بطون من قبيلة مسوفة الصنهاجية وباتوا يكونون غالبية سكانها ، فى الوقت الذى هاجرت بطون أخرى من ذات

---

*حول الإمتداد المبكرللهجرات الصنهاجية الى السودان الغربى،راجع الفصل الاول من هذه الدراسة.

(1) جمال زكريا قاسم ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ، صـ156 .

(2) البكرى ، المصدر السابق ، صـ179 .

القبيلة وأسست تمبكتو حوالى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى (1) كما سلف.وهاجر بعض العرب المسلمين الى قرية زاغرى* وسكنوا بها (2) كما هاجر آخرون الى مملكة مالى وسكنوا بها (3) وكان لهم حى خاص بهم يقول ابن بطوطة: "...وصلت الى مدينة مالى حضرة ملك السودان، فنزلت عند مقبرتها، ووصلت الى محلة البيض." كما ذكر ايضا "... أن منسى موسى كان كريما فاضلا يحب البيض ويحسن اليهم ." (4) ، وهاجر كثير من العرب الى كوكو (جاو) وأستقروا فيها ، إذ أشار ابن بطوطة الى أحدهم الذى استضافه قائلا :"...ثم سرت الى مدينة كوكو... واضافنى بها محمد بن عمر من أهل مكناسة ." (5) كما هاجر الكثيرون منهم الى جنى وسكنوا بها وكانوا يتحاكمون عند القضاة بالشرع (6) . ورغم أن ملاحظات ابن بطوطة تؤكد أن

---

(1) السعدى ، المصدر السابق ، صـ20 .

* زاغرى : أحد قرى السودان الغربى ، وقد تحدث عنها ابن بطوطة بقوله :"... وبعد مسيرة عشرة أيام من ايوالاتن وصلنا قرية زاغرى ، وهى قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ، ويسكن معهم جماعة من البيض. " راجع : ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ444، وقد حققها ديلافوس وقال انها ديورا وسماها بارث (تورى سنفا) ، راجع : حسين مؤنس . ابن بطوطة ورحلاته ، تحقيق ودراسة وتحليل .(القاهرة : دار المعارف ،د-ت) ، صـ231 .

(2) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ444 .

(3) المصدر نفسه ، صـ445 .

(4) المصدر نفسه ، صـ 452 .

(5) المصدر نفسه ، صـ452 .

(6) السعدى ، المصدر السابق . صـ18 .

هؤلاء المهاجرين كانوا يسكنون أحياء خاصة بهم وفيها مساجد يصلون فيها(1)، فإنه ذكر من ناحية أخرى أنهم كثيرا مايخالطون أهالى السودان الغربى، ويتصاهرون معهم (2) وبالتالى ينشرون بينهم الإسلام واللغة العربية. ومن الهجرات العربية التى لعبت دورا هاما فى تاريخ هذه المنطقة من خلال دفعها للمؤثرات العربية الإسلامية هى قبائل بنى هلال وبنى سليم الشهيرة فى التاريخ العربى الإسلامى ، والتى أنطلقت صوب الشمال الافريقى حوالى القرن الخامس الهجرى /الحادى عشر الميلادى وأستقرت فى المنطقة المصاقبة للسودان الغربى وهى جنوب المغرب الاقصى . وحوالى القرن التاسع الهجرى /الخامس عشر الميلادى أنطلقت صوب بلاد السودان الغربى ووصلت طلائعها حدود السنغال وتمبكتو (3) .وبفعل ظروف الاضطهاد التى تعرض لها المسلمون بالاندلس من جراء ضغط الممالك المسيحية عليهم وخاصة بعد سقوط آخر معاقلهم (غرناطة)، فى القرن التاسع الهجرى /الخامس عشر الميلادى ، أندافع كثير منهم صوب السودان الغربى وعاشوا فيه ، وذلك بعد أن تعاطف بعض سلاطين السودان الغربى مع المطرودين وآووهم بالمنطقة (4) . كما شهدت المنطقة سيلا من هجرات البدو المنطلقين من الشمال الأفريقى والباحثين عن المرعى والماء لحيواناتهم التى هى أساس ثروتهم .

---

(1) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ452 .

(2) المصدرنفسه، صـ444 .

(3) بول مارتى ، البرابيش " بنو حسان ، تعريب محمد محمود ولد ودادى .(دمشق : مطبعة زيد بن ثابت ،1985م)، صـ9 .

(4)محمدعبدا لله عنان.نهاية الاندلس.(القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمةوالنشر،1964)ص127 .

2- دور التجار

عمل التجار ، منذ توطد الاسلام فى الشمال الافريقى ، على نشر الإسلام والثقافة العربية فى السودان الغربى . وقد تعاظم هذا الدور خلال الفترة التى تغطيها هذه الدراسة ، حينما شهدت المنطقة قيام سلطة مركزية قوية توفر الأمن، وذلك فى أيام ازدهار مملكتى مالى وسنغاى الإسلاميتين اللتين بسطتا نفوذهما على معظم الطرق التجارية الوافدة من أقصى الشمال الافريقى والمتجهة صوب مناطق إنتاج الذهب بالسودان الغربى. ودخلت العقيدة الإسلامية الى تلك المناطق فى ركاب التجار ، الذين تعاظم دورهم التبشيرى من خلال ازدياد نفوذهم السياسى فى الأوساط الحاكمة و اتصالهم بمختلف طبقات الشعب، وقد أصبح الإسلام ، كما يقال ، بمثابة تصريح مرور لمن يريد الاتجار بنجاح مع الممالك الإسلامية فى غرب افريقيا (1) . وقد ساهم التجار العرب فى توطيد العلاقات الطيبة مع أهالى السودان الغربى ، فكان التاجر المسلم يجمع بين مزاولة التجارة والدعوة الى الإسلام ، إذ كان يتحلى بالأخلاق الحميدة والمعاملة الحسنة والصدق فى القول . هذا الى جانب علمه وتفرغه ليلا لإقامة حلقات الدرس التى ساعدت على نشر الإسلام والثقافة العربية فى تلك البقاع.(2) وكانت مهنة التجارة تخلق صلات وطيدة بين التاجر العربى المسلم وبين الأهالى الذين يتعامل معهم ، وهى صلات تنفى عنه كل مايحتمل أن يتهم به من دوافع غير ودية . فإذا مادخل هذا التاجر الى قرية وثنية فسرعان مايلفت اليه الانظار بكثرة وضوئه ونظافة ملابسه ، وأداء صلاته فى خشوع لله. وهذه الصفات الحميدة

---

(1) شوقى الجمل ، المرجع السابق ، صـ 162 .

(2) أحمد شلبى ، المرجع السابق ، صـ265 ؛ حسن ابراهيم حسن ، انتشار الاسلام فى القارة الافريقية ، ط 3 .(القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، 1984م) ، صـ214 .

تؤهله لكسب ثقة الأهالى الوثنيين الذين يبدى لهم استعداده ورغبته فى مدهم بمزاياه الاخلاقية ومعارفه السامية (1) .

ولعبت القوافل التجارية التى كانت تخرج صحبة قوافل الحج دورا هاما فى هذا الصدد . والجدير ذكره أن دور التجار العرب لم يقتصر على التجارة والمناشط الاقتصادية فحسب ، بل قاموا بنشر اللغة العربية وبناء المساجد لتعليم القرآن الكريم . وهكذا أضحى التجار العرب المسلمون يقومون بمهمة الدعاة المسلمين الى جانب نشاطهم التجارى . فحملوا معهم العقيدة الاسلامية والحضارة العربية . وكان من نتائج احتكاكهم واختلاطهم بأهالى تلك البلاد أن حدث التزاوج والمصاهرة وانتشار الاسلام تدريجيا وسلميا فى تلك المناطق (2). ومن الأدلة على حدوث التصاهر مابين التجار العرب المسلمين وحكام وأهالى السودان الغربى ما أورده الحسن الوزان من أن "... الملك زوج اثنتين من بناته من أخوين تاجرين لغناهم ." (3) وبالاضافة الى دور التجار فإن طرق القوافل والمراكز التجارية كانت شريانا أساسيا للحياة الاقتصادية فى بلاد السودان الغربى ، وقد ظلت فى الوقت نفسه إشعاعا للمؤثرات الثقافية ، حيث أصبحت المحطات التجارية المنتشرة على طول طرق القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى أماكن لاحتكاك الافكار تأثرا وتأثيرا (4) . وبهذا يمكن أن نقول : إن التجار العرب المسلمين كانوا يرتادون بلاد السودان الغربى بغرض التجارة ، وقد لعبوا دورا رئيسيا فى نشر الإسلام والثقافة العربية ، وإن كان ذلك يتم بصورة

---

(1) توماس ارنولد ، المرجع السابق ، صـ391 .

(2) يوسف فضل حسن . الجذور التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ، صـ39 .

(3) الوزان 166/2 .

(4) حميلة التكيتك ، المرجع السابق ، صـ225 .

غير مباشرة فى كثير من الأحيان .

3- دور الفقهاء والمعلمين والائمة .

قام الفقهاء والمعلمون والأئمة بدور هام فى تدفق المؤثرات العربية الإسلامية وازدهار الحضارة العربية الاسلامية بالسودان الغربى. حيث كان هؤلاء يدعون الناس الى الاسلام ويحفظونهم القرآن الكريم ويفقهونهم فى أمور دينهم ، وذلك لالمامهم بأصول الدين والشريعة الاسلامية ومبادئها . ولذا حظى هؤلاء الفقهاء والمعلمون بتقدير عال من الاهالى والحكام ، وأصبحت قرى السودان الغربى تضم دورا لاستقبال هؤلاء المعلمين والفقهاء ، الذين صاروا يعاملون بأعظم مظاهر التقدير والإحترام (1) . ونظرا للتشجيع الكبير الذى حظى به هؤلاء المعلمون من قبل الملوك المسلمين السودانيين ، تعاون هؤلاء المعلمون مع المحسنين فى تأسيس المدارس والخلاوى والتى صارت قبلة لأبناء المسلمين والوثنيين على حد سواء ودون تميز ، الأمر الذى أدى الى انتشار الاسلام والثقافة العربية على نطاق واسع (2) . وأصبحت هذه المدارس والخلاوى تتكاثر وتزدهر حتى أن بعضها أضحى مركز اشعاع حضارى يستقطب أبناء السودان الغربى عموما والمناطق المجاورة بصفة خاصة ودون أى اعتبار لفارق اللون أو الدين . ووجدت الحياة الثقافية والفكرية تشجيعا كبيرا من الملوك السودانيين المسلمين الذين شجعوا تلك المراكز العلمية التى نبغ فيها لفيف من العلماء الوطنيين الذين ذاع صيتهم فى المجالين العربى والافريقى (3) . وأشاد

---

(1) توماس ارنولد ، المرجع السابق ، صـ392 .

(2) قمر الدين فضل الله ، المرجع السابق ، صـ223 .

(3) جميلة التكتيك ، المرجع السابق ، صـ174 .

المؤرخون باهتمام ملوك السودان الغربى بالعلماء والفقهاء فأشاروا الى ذلك فى كتبهم : "... وكان ملوك مالى ورعاياهم متمسكين بالاسلام ... واستقدموا الفقهاء والعلماء من البلاد الاسلامية ، وتفقهوا فى الدين ." (1) وقام الأئمة والمعلمون والفقهاء بدور كبير فى حياة مجتمعات السودان الغربى ، فهم يؤمون الناس فى الصلاة ويخطبون الجمعة ويكلفون بجمع الزكاة ويقبلون الصدقات ويوزعونها على الفئات المشار اليها فى كتاب الله ، وينفقون منها على الصالح العام ، ويعقدون القران ويديرون حفلة الزواج ، ويسمون المولود ، وينحرون الضحية الاولى فى الاعياد والمناسبات الدينية ويغسلون الميت ، ويتولون الامامة فى صلاة الجنازة ، ويفقهون الناس فى الاسلام ، ويحفظون الصغار القرآن ، ويعلمونهم مبادىء الاسلام . ولايتم عمل فى حياة القرية الا بوجودهم ، وتعيينهم ولى أمر المسلمين فى المناطق الاسلامية. ويشترك المسلمون فى اختيارهم فى المناطق التى يكون فيها المسلمون أقلية . وبالرغم من أنه ليس للإسلام كهنوت ؛ فإن له رجال دين أو فقهاء ومعلمين حفظوا القرآن ، وتفقهوا فى الدين . كما أنه لم يخصص فئة للدين وفئة للدنيا ، لأنه دين الدنيا والاخرة . وليس فيه واسطة بين العبد وربه . وهو يقرر أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة حتى لاتكون المعرفة احتكارا لأحد . والمسئولية فردية فلاتزر وازرة وزر أخرى . ولقد كان للفقهاء والعلماء والأئمة مكانة رفيعة بين أهالى السودان الغربى المسلمين والوثنيين معا ، فكانوا يجلونهم ويعاملونهم بالترحاب فى كل مكان ، بل كان الوثنيون يلتمسون خيرا على أيديهم ، ويوكلون اليهم تعليم أبنائهم .(2).وقد أشار الرحالة ابن بطوطة الى المنزلة السامقة التى كان

---

(1) القلقشندى 297/5 .

(2) توماس ارنولد المرجع السابق ، صـ392-393 .

يتمتع بها العلماء والفقهاء والأئمة فى بلاط ملوك مالى وقال انه كانت لهم منزلة رفيعة وحظوة ، وأنهم كانوا خاصتهم وأهل مشورتهم ، بل إن ملوك مالى كانوا لايلبسون الطيلسان الا فى أيام العيدين . أما العلماء والفقهاء فكانوا يلبسونه ، دون سائر الاهالى ، طيلة أيام السنة(1). وأشار كل من كعت (2) والسعدى (3) الى أن ملوك سنغاى وحنى المسلمين كانوا يجلون الفقهاء والعلماء ياتمرون بأمرهم ، وان مكانتهم لدى السلاطين فاقت كل وصف ، حتى أن بعض العلماء كانوا ينهون السلاطين عن المنكر ويعنفونهم اذا ارتكبوه . ومن أمثلة ماتمت الاشارة اليه ماقاله السعدى عن مكانة الفقيه أحمد بن أحمد بن عمر :"... وافر الحرمة عند الملوك وكافة الناس نفاعا بجاهه لايرد له شفاعة يغلظ على الملوك فمن دونهم وينقادون له أعظم الانقياد ويزورونه فى داره ..." (4) .

وأستقدم منسا موسى الى مملكته الكثير من العلماء والفقهاء من سائر أقطار الوطن العربى والعالم الاسلامى مثل:ابواسحاق ابراهيم الساحلى المشهور بالطونجق (5) وعبد الرحمن التميمى (6) . واستقدم من المغرب الفقيه عبدالله البلبالى الذى تولى إمامة الجامع الكبير فى تمبكتو ثم خلفه فى إمامة ذات الجامع أبو القاسم التواتى (7) . وقد وفد على المنطقة كثير من العلماء ونزلوا بالمدن التى

---

(1) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ447 .

(2) كعت ، المصدر السابق ، صـ11-12-59 .

(3) السعدى ، المصدر السابق ، صـ18 .

(4) المصدر نفسه ، صـ42 .

(5) ابن خلدون 200/6 .

(6) السعدى ، المصدر السابق ، صـ51 .

(7) المصدر نفسه ، صـ57.

بها معاهد العلم . وتشير المصادر الى أن الفقيه أحمد بابا التمبكتي الذى جلس للتدريس فى مسجد سنكري الشهير ، الذى كان معظم أساتذته من قبيلة جدالة الصنهاجية (1) و لعب دورا مرموقا فى إثراء الحياة الثقافية والعلمية . وقد وفد العديد من العلماء والفقهاء من الشمال الافريقى الى المراكز العلمية بالسودان الغربى ، البعض منهم بعاصمة مملكة مالى ومنهم : على الزواوى المراكشى وأبو حفص المسوفى وابن شيخ اللبن التلمسانى (2) . وكان المعلمون والفقهاء يعقدون جلسات علمية فى المدارس والمساجد وفى بيوتهم التى يقصدها الطلاب وعامة الناس ليحفظوا القرآن الكريم ويتفقهوا فى الدين ويتعلموا اللغة العربية. وقد نبغ الكثيرون منهم وألفوا باللغة العربية الفصحى العديد من الكتب الدينية واللغوية والأدبية (3). ويبدو أن سقوط الاندلس عام 1492 م وماتعرض له الشمال الافريقى من فتن سياسية ومذهبية قد دفع بالعديد من العلماء والفقهاء للهجرة الى مناطق متعددة من بينها السودان الغربى (4) . وأنشأ بعض هؤلاء العلماء والفقهاء والمعلمين والدعاة مدارس وكتاتيب فى القرى والمدن التى أستقروا بها . وكانت مهنة التعليم فى أول الأمر مقصورة على الفقهاء والمعلمين والدعاة القادمين من مناطق الوطن العربى وتكونت بعد مدة طبقة مثقفة من الأهالى الوطنيين تولوا مهمة التعليم وكانت غالبية هؤلاء من الفقهاء والذين اتقنوا اللغة العربية ، لغة الدين والثقافة والتجارة . (5)

---

(1) المصدر نفسه ، صـ35 .

(2) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ448-450 .

(3) أحمد بابا ، نيل الابتهاج والسعدى ، المصدر السابق صفحات متفرقة .

(4) F, Dubois: Tombouctou,l`amysterieuse.(paris,1890),P.353.

(5) عصمت دندش،المرجع السابق،ص168 ؛ قمرالدين محمد فضل ا لله،المرجع السابق،صـ223.

4- دور الطرق الصوفية .

لقد قامت الطرق الصوفية بدور هام فى نشر الإسلام ونقل المؤثرات الثقافية العربية الإسلامية الى السودان الغربى . ورغم فقر المعلومات عن تاريخ الطرق الصوفية بالسوودان الغربى ، فإن بعض المؤرخين ومن بينهم السعدى ، قد أشار الى وجود بعض الأشخاص المشهورين بالتقوى والورع ممن عاشوا بالمنطقة، وقد وصف تمبكتو بأنها كانت :"... مألف الأولياء والزاهدين "(1) . كما قال عن مدينة جنى :"... وقد ساق الله تعالى لهذه المدينة المباركة سكانا من العلماء والصالحين من غير أهله من قبائل شتى وبلاد شتى ." (2) . وقال ايضا :"... وكفى فى ذلك مارواه الشيوخ التقات عن الشيخ العالم الفاضل الصالح الولى ذي الكرامات والعجائب الفقيه القاضى محمد الكابرى رحمه الله تعالى أنه قال أدركت من صالحى سكندى من لايقدم عليهم فى الصلاح الا أصحاب رسول الله (صلعم) ورضى عنهم أجمعين ، منهم الفقيه الحاج جد القاضى عبدالرحمان ابن ابى بكر بن الحاج تولى القضاء بتنبكت فى أواخر دولة أهل ملى وهو أول من أمر الناس بقراءة نصف حزب من القرآن للتعاليم فى جامع سنكرى بعد صلاة العصر وبعد صلاة العشاء جاء هو واخوه السيد الفقيه ابراهيم من بير فسكن فى نبك وقبره معروف هنالك ."(3) . ومن هؤلاء الصوفية محمد ساقوا ، وقد كان فقيها عالما عابدا صالحا وليا مكاشفا ذا كرامات شاهدها الناس ، وذلك على حسب رواية السعدى (4) . ومنهم الفقيه العابد القطب ولى الله

---

(1) السعدى ، المصدر السابق ، صـ21.

(2) المصدر نفسه ، صـ16 .

(3) المصدر نفسه ، صـ27 .

(4) المصدر نفسه ، صـ16.

سيدى يحى التادلسى (1) . ومنهم الشيخ الزاهد العارف با لله الولى الامام ابوالقاسم التواتى الذى سكن بجوار المسجد وكان يعلم الاطفال (2) .

ومما يميز رجال الطرق الصوفية أنهم يميلون الى سكن القرى والنجوع بينما يميل التجار الى الاستقرار بالمدن . واذا كان التجار يسعون للربح فرجال الطرق الصوفية لايكترثون بالمال ولايسعون الا لما يسد رمقهم ويكفيهم ذل السؤال من هنا لقب المريدون بالفقراء . واذا كان نشاط المهاجر أو التاجر يطيب أن يكون بالنهار فإن نشاط الطرق الصوفية يكون بالليل (3) . وقد ساعد على إنتشار الطرق الصوفية تكيفها مع بيئة المجتمعات الافريقية وعاداتها وتقاليدها . وكانت الطقوس واستعمال الدفوف والطبول فى حلقات الذكر قد وجد قبولا لدى الافريقيين لأنها تخلط بين العبادة والحركات الراقصة .

والجدير بالذكر أنه كان لكل شيخ أتباع ومريدون يطيعونه طاعة عمياء ويمتثلون لأوامره ويقدرونه حق تقدير ويدعمونه ماديا حتى أصبح شيوخ الطرق الصوفية لهم القدرة الكافية لتوسيع دائرة نفوذهم ولتأسيس المدارس والمساجد واستقطاب مزيد من العناصر الموالية لهم . ولقد لعب رجال الطرق الصوفية دورا بارزا فى توجيه الأهالى وارشادهم الى أمور دينهم (4) . وعملت الطرق الصوفية على غرس القيم الفاضلة وتجذيرها مثل حب الجار وحسن التعامل . وبالإضافة الى ذلك ساهموا مساهمة فعالة فى توسيع رقعة الاسلام وانتشاره عن طريق

---

(1) المصدر نفسه ، صـ23 .

(2) المصدر نفسه ، صـ52 .

(3) أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ج 6 ، صـ210 .

(4) حسن ابراهيم حسن .انتشار الاسلام فى القارة الافريقية ، صـ42 .

الإكثار من بناء المساجد والمدارس ومصاهرة الوطنيين الافارقة وشراء العبيد وعتقهم بعد تلقينهم أصول العقيدة الاسلامية وثقافتها حتى يتمكنوا من استيعابها ونشرها عند رجوعهم الى أوطانهم . وتعد الطريقة القادرية التى تأسست في القرن السادس الهجرى /الثاني عشر الميلادى فى العراق على يد عبدالقادر الجيلانى هى الطريقة التى وجدت رواجا وانتشارا ملحوظا فى السودان الغربى وقد كان اتباع هذه الطريقة يرسلون لإتمام دراستهم بمدارس القيروان وطرابلس وغيرها (1) . وكان هؤلاء المريدون والأتباع اللذين تربوا فى سلك نظام الطرق الصوفية يؤسسون المدراس الصوفية ويشرفون عليها ، وكان معلمو الطريقة القادرية يدعون القبائل الوثنية الى الإسلام ويعملون على نشر الثقافة العربية الاسلامية بين الأفارقة بمختلف السبل والوسائل . وكان نشاط هذه الجماعات فى الدعوة ذا طابع سلمى يعتمد على الإرشاد وعلى مبدأ القدوة، بمعنى أن يكون الداعية قدوة لغيره. كما كان يعتمد على مدى تأثير المعلم منهم فى تلاميذه ، كما كان يعتمد على إنتشار التعليم والثقافة العربية والحضارة الاسلامية (2) . وبهذه الخطة برهن دعاة الطريقة القادرية فى السودان على أنهم أوفياء لمبادىء مؤسس الطريقة وتقاليدها العامة ، ذلك لأن التسامح وحب الجار من أهم مبادىء هذه الطريقة ، وهى ذات المبادىء التى دعا اليها الإسلام (3) . وقد أنتشرت الطريقة القادرية فى السودان الغربى حوالى القرن التاسع الهجرى /الخامس عشر الميلادى على يد مهاجرين من قبيلة كنته ، ويقال

---

(1) المرجع نفسه ، صـ43 ؛ توماس ارنولد ، المرجع السابق ، صـ366 .

(2) عبدالقادر صالح نورالدين ، المرجع السابق ، صـ156 .

(3) المرجع نفسه ، صـ156 .

إن هذه القبائل قد جاءت من توات بالمغرب الأوسط ، واتخذوا من ولاته أول مركز لطريقتهم . والمعروف أن جد قبيلة كنته الذى هاجر الى السودان الغربى هو محمد الكنتى ، غير أن الطريقة حملت اسم ابنه أحمد البكاى (ت 1504م) ، أما الفضل فى نشر الطريقة ومبادئها فيرجع الى عمر الشيخ بن أحمد (1460-1553م) ، الذى تلقى مبادىء العلم والاسلام على يد الفقيه محمد عبدالكريم المغيلى . ويحدثنا بول مارتى عن العلاقة التى ربطت عمر الشيخ بالمغيلى قائلا : "وفى الواقع لقد أخذ سيدى عمر الشيخ بدعوة المغيلى وبفضائله ولازمه وتبعه فى كل جولاته لنشر الدين والاصلاح . ويظهر انه كان رسوله لنشر الاسلام والطريقة القادرية فى الساحل السودانى ، ومما لاريب فيه أن هذا هو الذى جعل اسم سيدى عمر الشيخ واسم كنته أكثر شهرة فى المنطقة من اسم المغيلى كما أن الفرع الناشىء عنه هو الذى سيصبح مع استقلاله الذاتى أكبرالطوائف القادرية،وهوالفرع البكائى من سيدى عمرالشيخ ولد الشيخ أحمد البكاى ." (1) وبوفاة المغيلى حوالى عام 1532م تولى عمرالشيخ مهام معلمه وأصبح الرئيس الاعلى للطريقة القادرية (2) . ومن هنا نستنتج الدور الهام الذى لعبته الطرق الصوفية فى نشر العقيدة الاسلامية ونقل المؤثرات الثقافية العربية الاسلامية الى السودان الغربى .

---

(1) بول مارتى ، كنته الشرقيون ، صـ33 .

(2) المصدر نفسه ، صـ33

ثانيا : أهم مراكز انتشار الثقافة العربية الاسلامية بالسودان الغربى.

أدى التواصل الحضارى والسكانى بين الوطن العربى وبين مناطق السودان الغربى ، لاسيما بعد القرن الخامس الهجرى /الحادى عشر الميلادى ، الى قيام مراكز ثقافية لعبت أدوارا هامة فيما وراء الصحراء الكبرى . وأصبحت منارات علمية زاهرة يؤمها العلماء والطلاب من كل حدب وصوب . وقد شهدت هذه المراكز الثقافية ، خاصة فى فترة مابين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين نهضة ثقافية وفكرية ، متأثرة فى ذلك بالنهضة الثقافية التى كانت سائدة فى مناطق الوطن العربى مثل : فاس ومراكش وجبل نفوسه وطرابلس والقاهرة وتونس والحجاز وسجلماسة وتوات وشنقيط وغيرها. وكان من أبرز المراكز الثقافية بالسودان الغربى وفى طليعتها تمبكتو وجنى ونيانى . ورغم أن هذه المراكز قد أنشئت فى بادىء الأمر كمراكز تجارية ، فإنها لعبت أيضا أدوارا ثقافية وفكرية هامة . ومن هذه المراكز :-

1- تمبكتو.

مدينة تمبكتو هى مدينة عربية اسلامية منذ نشأتها ، فبالإضافة الى أن مؤسسيها هم الطوارق ، أحدى قبائل صنهاجة الملثمين ، التى ترجع الى أصول عربية وهى من القبائل العربية التى هاجرت الى مناطق السودان الغربى منذ ماقبل الاسلام وكما سبق التوضيح . بالإضافة الى ذلك يقول عنها السعدى ، :"... مادنستها عبادة الأوثان ولاسجد على اديمها قط لغير الرحمان مأوى العلماء والعابدين ومألف الاولياء والزاهدين وملتقى الفلك والسيار فجعلوها خزانة

لمتاعهم وزروعهم الى أن صار مسلكا للسالكين فـي ذهـابهم ورجوعهـم "(1) .
تبين هذه الاشارة التاريخية مدى ماكانت تتمتع به تمبكتو مـن أهميـة حيـث أنهـا مدينـة اسـلامية منـذ نشـأتها وهـى موطـن لعبـاد الله الصـالحين ومركـز للتجـار العابرين لهذه المنطقة من أجل التجارة ، وقد طبقت شهرتها الافاق ولعبـت دورا هاما فى انتشار الاسلام والثقافة العربية . كما تحدث السعدى عن التدفق العربى المبكر الى مدينة تمبكتو بقولـه "... كان التسوق قبل فى بلد بير واليه يرد الرفاق من الآفاق وسكن فيه الأخيار مـن العلمـاء والصـالحين وذوى الامـوال مـن كـل قبيلة ومن كل بـلاد مـن أهـل مصـر ووجـل وفـزان وغدامـس وتـوات ودرعـة وتفلالة وفاس وسوس وبيط الى غير ذلك ثم أنتقل الجميع الى تنبكت قليلا قليـلا حتى استكماوا فيه وزيادة مع جميع قبائل صنهاجة بأجناسها . " (2) .

ووصفها محمود كعت بقوله :" ... لا نظير لها فى البلدان من بـلاد السـودان الى أقصى بلاد المغرب من بلاد كل مروة وحرية وتعففا وصيانة وحفظ العـرض ورأفة بالمساكين والغرباء وتلطفا بطلبه العلـــم وإعانتهم ."(3) . ولذلـك أتخـذ منها ررجال العلم والفكر الأوائل والأثرياء موطنا لهـم بعـد أن جـاءوا اليهـا مـن أماكن متعددة ، الأمر الـذى جعلهـا تحمـل طابعـا مميزا لاتصالها ببيئـات ثقافيـة متنوعة . وقد شهدت تنمبكتـو إزدهـارا ثقافيـا كبـيرا وأصبحـت قبلـة للعلمـاء الوافدين من مراكز الثقافة العربية الإسلامية الذين جلسوا للتدريس بمدارسها التى

---

(1) السعدى ، المصدر السابق ، صـ21.

(2) المصدر نفسه ، صـ21 .

(3) كعت ، المصدر السابق ، صـ179 .

بلغت مائة وخمسين مدرسة حتى نهاية القرن العاشر الهجرى .(1) / السادس عشر الميلادى. بالإضافة الى مساجدها التى كانت بمثابة اللبنة الأساسية فى بناء مجتمعها الإسلامى ولكونها كانت مركزا للعبادة والتثقيف والتعليم فقد لعبت دورا مميزا فى نشر مبادىء العقيدة الإسلامية وعلوم القرآن والسنة (2) . ومما لاشك فيه إن الجاليات العربية التى عاشت فيها قد أثرت تأثيرا كبيرا فى الحياة الثقافية (3) ، وذلك بفضل إحتكاكهم بالسكان المحليين ومن المعروف أن الحسن الوزان قد زار تمبكتو فى بداية القرن السادس عشر الميلادى ووصف أحوالها وثراءها الثقافى والعلمى بقوله :"... وفى تمبكتو عدد كبير من القضاة والفقهاء والأئمة يدفع اليهم جميعا مرتبا حسنا ويعظم الأدباء كثيرا وتباع أيضا مخطوطات كثيرة تأتى من بلاد البربر وتدر أرباحا تفوق سائر البضائع ."(4) . ومن المراكز العلمية الهامة بتمبكتو جامع سنكرى ، الذى بات جامعة إسلامية راقية ، على نمط جامعة الأزهر فى مصر ، وقد أستقدم لها منسا موسى العلماء من الخارج وأشترى لمكتباتها المصادر والمخطوطات ، وأغدق على علمائها وطلابها الأموال ورعاهم ، فأزدهرت العلوم والثقافة فيها (5) . وقد تحول هذا المسجد بعد مدة

---

(1) المصدر نفسه ، صـ180 .

(2) يوسف الكتانى . مدرسة الامام البخارى فى المغرب .(بيروت : دار لسان العرب ،د-ت) ، ص474 .

(3) أحمد الفيتورى ، المرجع السابق ، صـ252 .

(4) الوزان 167/2 .

(5) ابن خلدون 201/6 ؛ السعدى ، المصدر السابق ، صـ7 ومايليها.

الى جامعة للدراسة والبحوث العلمية والدينية . وعن بناء هذا المسجد (الجامعة) يتحدث السعدى قائلا :"... أما مسجد سنكرى فقد بناها امرأة واحدة اغلالية ذات مال كثيرة فى افعال البر ."(1)

وقد ذاع صيت هذه الجامعة بما بلغته من مستوى علمى رفيع وجعلت من تمبكتو عاصمة من عواصم الدين والعلم والآداب فى بلاد السودان الغربى ، وكل ذلك راجع الى المؤثرات العربية الإسلامية التى يرجع اليها الفضل فى دعم نفوذ الإسلام فى تلك المناطق مما أدى الى إنتشار الإسلام واللغة العربية على نطاق واسع . وقد كانت أمامة مسجد سنكرى حكرا على أسرة (آل اقيت) العربية الصنهاجية التى نزحت الى تمبكتو من ولاته . كما أحتكرت هذه الأسرة منصب القضاء فى تمبكتو طيلة عهد الاسبقيين . ويمكن أن نستنتج بسهولة من كتب الطبقات والتراجم ، ومن تتبع الاسانيد العلمية ، أن أغلب فقهاء تمبكتو كانوا من أصل عربى شنقيطى (2). وهذا مايفسر لجوء فقهاء تمبكتو الى ولاته

---

(1) السعدى ، المصدر السابق ، صـ62 ، والمقصود بالبناء هنا توفير التمويل المادى ، أما القيام بتشييد البناء فقد قام به بعض المهندسين المعماريين العرب المسلمين كما سيتضح . أما عن بناء السيدات الغنيات للمساجد والمدارس فى تاريخ الاسلام فهى سنة مرعية منذ القدم ، فجامعة القرويين بنتها سنة 245هـ أول الامر السيدة فاطمة بنت محمد بن عبدا لله الفهرى ، كما أن عددا من الخاتونات هن اللاتى بنين عددا من المساجد والمدارس فى الموصل وبغداد خلال العهدين العباسى والايوبى بشكل خاص . وقد أنتقلت هذه العادة الى بلاد السودان العربى كأثر من الآثار الثقافية التى شهدتها المطقة .أنظر : عبدالقادر زبادية . الحضارة العربية والتأثير الاوربى ، صـ65 .

(2) ددود ولد عبدا لله ." دور الشناقطة فى نشر الثقافة العربية الاسلامية بغرب افريقيا حتى نهاية القرن 18 للميلاد " ، نواكشوط : حوليات كلية الآداب والعلوم الانسانية 1(1989م) ، صـ23 .

عند خوفهم بطش سنى على ملك السنغاى ، و لم تستعد تمبكتو مكانتها العلمية الا بعد عودة الفقهاء اليها من ولاته فى عهد الاسيقيين ، الذين فتحوا الباب على مصراعيه أمام الفقهاء العرب الصنهاجين (1) .

واستقبلت جامعة سنكرى ، من ناحية أخرى ، أفواجا من الطلاب ، لاسيما من مدينة جنى ، واستقبلت أيضا عدد من فقهاء قرى السودان الغربى ، الذين كانوا يستبدلون بعمامة الفقيه جلباب التلميذ . وبفضل مؤلفات هؤلاء الفقهاء مازالت لدينا عن الحياة العقلية فى المنطقة ، صورة أقرب الى التكامل(2). وهذا يعكس المستوى العلمى الرفيع الذى بلغته جامعة سنكرى قياسا بباقى المراكز الثقافية بالسودان الغربى . ولعل اهم مايميز جامعة سنكرى إنها شابهت قريناتها من مراكز الثقافة العربية الاسلامية فى الشمال الافريقى والمشرق العربى فى مواكبتها للعلم وانتقال العلماء مما جعلها تواصل مسيرتها العلمية .وقد أحتفظت تمبكتو بهذا المركز الثقافى الهام طيلة فترة دولتى مالى وسنغاى (3) . ومن المساجد الأخرى بتمبكتو (مسجد الونكريين أو الونقريين) الذى أمر بتشييده منسا موسى وكلف بذلك المهندس ابراهيم الساحلى * ، و لم يبق من أثر لهذا المسجد اليوم لأن القاضى العاقب 1507–1583م هدمه وشيد مكانه مسجدا آخرا اكثر أتساعا ، ولاتزال آثاره باقية حتى الآن. ولقد أورد أحمد بابير الأروانى فى مخطوطته عبارة تنم عما كان لتمبكتو من مكانة جليلة لدى أهالى

---

(1) المرجع نفسه ، صـ23 .

(2) ددود ولد عبدالله ، المرجع السابق ،صـ24.

(3) عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ103 .

* حول الآثار المعمارية التى شيدها ابراهيم الساحلى ، راجع فقرة الفن المعمارى من هذا الفصل.

السودان ، إذ قال :" مقام تمبكتو من السودان مقام الوجه من الإنسان ."(1) .

وقد أشاد المؤرخ الفرنسى دى بوا (Dubois) بالمكانة الكبيرة التى كانت تعيشها تمبكتو ، وخاصة فى القرن السادس عشر الميلادى ، ووصفها بانها حاضرة ثقافية على صلة بغيرها من العواصم الثقافية الاخرى فى المغرب والعالم الاسلامى مثل : فاس فى المغرب الأقصى والقيروان فى تونس وقرطبة فى الاندلس والقاهرة فى مصر. ويذكر أن الكثيرين من علمائها رحلوا الى فاس والى القاهرة واتصلوا بعلمائها (2) . هذا بينما تحدث السعدى عن العلماء الذين توافدوا على تمبكتو وجلسوا للتدريس بمعاهدها وذكر إنها كانت سوقا للكتب تنسخ فيها المخطوطات وتوزع فى البلاد الأخرى وتحدث عن علمائها من أمثال: محمد بن محمود بن أبى بكر الذى أقتنى نفائس الكتب . وماجاء لبابه طالب كتب الا وأعطاه اياها ودون معرفة سابقة وكذلك أحمد بابا وغيرهما وقد وصل هؤلاء العلماء الى درجة لاتقل إن لم تزد ، عن مستوى علماء المسلمين فى الأقطار الأخرى (3) . ومن هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين عرفتهم تمبكتو أحمد بن محمد بن أقيت المعروف بالحاج أحمد وهو جد العلامة أحمد بابا التمبكتى ، وكان رجلا فاضلا وعالما ورعا وهو من الفقهاء العظام (4) . وكذلك عبدالعزي التكرورى من ابناء اواسط القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى وقد رحل الى المشرق وحل بمصر وزاول التدريس بها حيث شرح لهم

---

(1) الاروانى . مخطوطة ، "السعادة الأبدية فى التعريف بعلماء تمبكتو البهية "، رقم 16 مالى مركز أحمد بابا التمبكتى، ورقة 9 .

(2) Dubois :OP.Cit.P .175 .

(3) السعدى ، المصدر السابق ، صـ51-62 .

(4) أحمد بابا ، معراج الصعود ، ورقة 7.

كل مسائل المختصر لأصولها وذكره السيوطى فى معجمه باسم عبد العزيز التكرورى (1) . وكذلك العالم الفقيه الحاج التمبكتى الذى شغل قضاء تمبكتو فى أوائل القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، وكان رجلا صالحا عالما أمر الناس بدراسة نصف حزب من القرآن الكريم بعد صلاتى العصر والعشاء بجامع سنكرى (2) . بالإضافة الى كل هؤلاء كان هناك الفقيه محمد الكابرى وعمر بن محمد أقيت وسيدى يحى التادلسى وغيرهم (3) .

2- جنى :

يعتقد أن مدينة جنى (Jenne) أسست على نهر النيجر الأعلى فى منتصف القرن الثانى الهجرى (4) حوالى عام 800م . ويرى السعدى أن جنى لم تكن مدينة إسلامية منذ نشأتها ، مثل تمبكتو ، بل إن الإسلام قد دخلها فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى فى عهد ملكها كنبر ، الذى هدم قصره وبنى فى مكانه مسجدا (5) . وعن قصة إسلام كنبر ملك جنى يقول السعدى : "... ولما عزم على الدخول فى الإسلام أمر بحشر جميع العلماء الذين كانوا فى أرض المدينة فحصل منهم أربعة ومائتا عالما فاسلم على ايديهم وأمرهم أن يدعوا الله تعالى بثلاث دعوات لمدينته تلك أن كل من هرب اليها من وطنه ضيقا

---

(1) أبن فودى ، المصدر السابق ، صـ213 .

(2) البرتلى .فتح الشكور فى معرفة أعيان علماء التكرور ، تحقيق :محمد ابراهيم الكتانى ومحمد حجى . (بيروت: دار العرب الاسلامى ، 1981م) ، صـ10 .

(3) المصدر نفسه ، صـ11 .

(4) السعدى ، المصدر السابق ، صـ12 ومايليها .

(5) المصدر نفسه ، صـ13 .

وعسرا أن يبدلها الله له سعة ويسرا حتى ينسى وطنه وأن يعمرها بغير اهلها اكثر من اهلهاَ وان يسلب الصبر من الواردين اليها للتجارة في دات ايديهم لكي يملوا منها فيبيعونها لاهلها بناقص الثمن فيربحون بها فقرأو الفاتحة على هذه الدعوات الثلاث فكانت مقبوله" (1). ورغم أن الرقم الورد في رواية السعدى ، قد يكون مشكوكا في صحته ، أوعلى الاقل مبالغ فيه وغير دقيق ، فان الذى يؤكد هو وجواد أعداد كبيرة من الدعاة العرب المسلمين ، ساهموا في الإزدهار الثقافي والحضارى والعلمي ، بالإضافة الى نشرهم العقيدة الإسلامية في هذه الديار منذ وقت مبكر . ويعتقد أن مكانة جنى الثقافة تأتى في المرتبة الثانية بعد تمبكتو (2) . وقد كانت لجنى اتصالات واسعة مع المراكز الثقافية العربية الإسلامية ، وبالذات الواقعة في الشمال الافريقى . كما كانت الوعى الثقافى فيها ربما لايقل عن تمبكتو والدليل على ذلك هو ارتفاع أسعار الكتب فيها (3). هكذا كانت الحياة العلمية والثقافية بجنى في ذلك العهد مزدهرة ، إذ هى :" ... مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة ."(4). ونتيجة لهذ الصفات التى أتصفت بها جنى فقد عليها طلاب العلم والفقهاء والمعلمين من اماكن شتى وهكذا يتضح أن جنى قد لعبت دورا ثقافيا هاما في حياة المنطقة .

---

(1) المصدر نفسه ، صـ12ومابعدها .

(2) عبدالقادر ربادية ، مملكة سنغاى ، صـ106 .

(3) الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ215 .

(4) السعدى ، المصدر السابق ، صـ11 .

3- نيانى (= مالى) .

تقع مدينة نيانى أو مالى فى ملتقى نهر النيجر بفرعه سنكارن (Sankarn) ، وقد أيدت الحفريات الاثرية التى أجريت فى السنوات الأخيرة هذا التحديد (1). ويقال أن مارى جاطة نقل حوالى 1240 م عاصمته من جارب فى اقليم كانجابا الى مدينة جديدة أنشأها على نهر النيجر وعرفت باسم نيانى (Niani) أو مالى (2) . ويقال إن نيانى معناها المدينة الآمنة . وأول من أشار الى أن نيانى أو ينى هى عاصمة مملكة مالى ، على حد علمنا ، هو ابن فضل الله العمرى الذى قال :"... واقليم مالى الذى به قاعدة الملك مدينة ينى" (3) . وتحدث أيضا عن إنتشار المؤثرات العربية الإسلامية بهذه المدينة بقوله : " ... وفشا بها الاسلام ونطق بها داعى الاذان " (4) . وقد أزدهرت عاصمة مملكة مالى ازدهارا عظيما ، وخاصة فى عهد ملوكها العظام (منسا موسى ومنسا سليمان) . وقد زارها ابن بطوطة وأشار الى أنها كانت حافلة بالعلماء والفقهاء ، وخاصة الذين ينحدرون من أصول عربية . ولقى بها القضاة والخطباء ، وقال إن هؤلاء جميعا يتمتعون بمكانة سامية لاتدانى (5) . كما زارها أيضا الحسن الوزان فى مطلع القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، ووصفها بأنها كانت مسكنا للملك والحاشية ، وبها مساجد كثيرة وأئمة ، ومعلمون يعلمون القرآن الكريم

---

(1) حسن أحمد محمود ، الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، صـ221 .

(2) ابراهيم طرخان ، دولة مالى الاسلامية ، صـ42 .

(3) العمرى ، المصدر السابق ، ورقة 34 .

(4) المصدر نفسه ، ورقة 35 .

(5) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ447 .

وعلوم الدين ، وأطلق أسمها على سائر المملكة (1) . ويبدو أن نيانى قد لعبت دورا ثقافيا هاما لايقل عما لعبتـه غيرهـا مـن حواضـر الثقافـة العربيـة الإسـلامية بالمنطقة .

ثالثا : – مظاهر الثقافة العربية الاسلامية .

1– انتشار الاسلام واللغة العربية .

لقد تظافرت جهـود عديـدة سـاهمت فـى انتشـار الاسـلام واللغـة العربيـة بالمنطقة . وقد أثمرت هذه الجهود بحيث أضحى الإسلام دينا رسميا للدولة فى ظل مملكتى مالى وسـنغاى الاسـلاميتين وصـارت اللغـة العربيـة لغـة العبـادة والثقافـة والمعرفة والتجارة والمعاملات اليومية فـى أمـاكن واسـعة مـن السـودان الغربـى . ونسبة لهذه الأهمية القصوى ، فإننـا نلاحـظ أن مراحـل إنتشـار الإسـلام واللغـة العربية قد أهتدت فى خطواتها بما يلى :–

أ) انتشار الإسلام .

من أولى الملاحظات التى ينبغى الإشارة اليها فى مسألة انتشار الإسلام فـى السودان الغربى هى أن هذه الدعوة كانت سـلمية وخاصـة فـى مراحلهـا الأولى وأن أهالى هذه المنطقة فى الغالب الأعم تقبلوا هـذه الدعـوة قبـولا حسـنا وأنهـم كانـوا مختاريـن لا مرغمـين ، إذ لا نجـد فيمـا أورده البكـرى عـن إسـلام مـلك

---

(1) الوزان 164/2 .

التكرور وارجابى بين رابيس (1) .وأمير إقليم مالى الذى يعرف بالمسلمانى (2) اشارة الى الإكراه . يقول السعدى عن السابق الى الإسلام من ملوك سنغاى وكان اسمه زاكسى : "... يقال له فى كلامهم مسلم دم معناه اسلم طوعا بلا إكراه رحمه الله تعالى وذلك فى سنة اربعمائة من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم ." (3) .

ولايبعد من ذلك ماذكره المؤلف نفسه عن كنبر ملك جنى (4) . وهذا ينسجم مع تعاليم الإسلام الذى لايجبر أحدا على ترك دينه ليعتنق الإسلام والدليل على ذلك قوله تعالى :" لااكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى " (5) . فالناس حسب تعاليم العقيدة الإسلامية أحرار فيما يعتنقون "لكم دينكم ولى دين "(6) . وخاطب الله تعالى رسوله (ص) بقوله :" ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " (7) نافيا أن يكره الرسول (ص) أحدا على اعتناق الإسلام . وأمر الله رسوله أن يدعو الناس الى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، فقال : (أدع الى سبيل ربك بالحكمة

---

(1) البكرى ، المصدر السابق ، صـ172 .

(2) المصدر نفسه ، صـ178 .

(3) السعدى ، المصدر السابق ، صـ3 .

(4) المصدر نفسه ، صـ7 .

(5) سورة البقرة : آية (256) .

(6) سورة الكافرين : آية (6) .

(7) سورة يونس : آية (99) .

والموعظة الحسنة) (1) . والغالب أن أسلاف العرب الصنهاجيين (صنهاجة الصحراء) ،كان لهم دور مؤثر في استمالة الطبقات السودانية النبيلة الى الإسلام. ويبدو أن علاقات من الولاء كانت تربط أغلب الزعماء السودانيين مع "... صاحب أودغست في عشر الخمسين وثلاثمائة ثين يروتان ابن ويسنو بن نزار رجل من صنهاجة وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان كلهم يؤدى اليه الجزية ."(2) ومن القرائن المرجحة لذلك أن ملك التكرور لبى بن وارجابى قد أنضم الى صفوف المرابطين مجاهدا سنة 448هـ(3) وقد تعاظم انتشار الإسلام على المذهب المالكى عقب جهاد المرابطين وزاد من ذلك توافد العديد من التجار والعلماء والفقهاء والأئمة والمتصوفة على هذه المنطقة وخاصة عقب رحلة السلطان منسا موسى الى الحج . ومن القرائن المرجحة لانتشار المذهب المالكى منذ ذلك التاريخ أن السلطان منسا موسى ، وهو فى مصر ابان رحلته الشهيرة للحج ، أشار الى انه مالكى المذهب كما اشترى من مصر بعض الكتب في فقه المالكية كما تحدث عن ذلك المؤرخ تقى الدين المقريزى (4) . ويعلل عمر الجيدى انتشار المذهب المالكى وتوطده بالمنطقة الى عدة أسباب من أهمها : ملائمة هذا المذهب لطبيعتهم ، فهو مذهب عملي يعتد بالواقع ويأخذ بأعراف الناس وعاداتهم ويناسب بساطتهم فى الصحراء دون تكلف أو تعقيد ، فهم يميلون الى البساطة والوضوح والحرص على التمسك بالإسلام وبأصوله

---

(1) سورة النحل : آية (135) .

(2) البكرى ، المصدر السابق ، صـ159 .

(3) المصدر نفسه ، صـ172 .

(4) المقريزى ،النهب المسبوك ، صـ113 .

خوفا من الانزلاق فى مهاوى الضلالات (1) . ولايعنى هذا أن المذهب المالكى هو المذهب المسيطر تماما فى المنطقة ، بل لاحظ ابن بطوطة أن قرية زاغرى بالسودان الغربى تضم فريقا من الأباضية ، وهؤلاء هم من المغاربة البيض المقيمين فى تلك البلاد ، وكان أهل السودان يسمونهم (صغنغو) (2) . وينتسب الأباضيون الى عبدا لله بن أباض التميمى مؤسس الفرقة ، وهى أحدى فرق الخوارج المعروفة فى التاريخ الإسلامى . وقد لعب الفقهاء الاباضيون دورا هاما فى نشر الإسلام.فى السودان الغربى ، وخاصة فى الفترة السابقة لسيادة المذهب المالكى بعد القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى * .

ب) اللغة العربية

من الواضح أن الدعوة الإسلامية فى السودان الغربى ، كما فى غيرها من المناطق الإسلامية ، قد أرتبطت باللغة العربية لغة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية. ويعتبر تنشيط الحركة التجارية من العوامل الرئيسية التى ساهمت فى اتساع رقعة الاسلام واللغة العربية كما سلفت الاشارة . وقد أحترم مسلمو تلك البقاع اللغة العربية احتراما يقرب من التقديس لأنها لغة القرآن الكريم بها يؤدى المسلم صلاته ويتلو القرآن الكريم وبواسطتها يلم بعلوم الدين. ومن العوامل الأخرى التى ساعدت فى انتشار اللغة العربية بالاضافة الى الجانب الدينى هى

---

(1) عمر الجيدى .محاضرات فى ترايخ المذهب المالكى فى المغرب الإسلامى.(الدار البيضاء : منشورات دار عكاظ ، 1987م) ، صـ29 .

(2) محمود الشرقاوى ، المرجع السابق ، صـ389 .

* راجع : أحمد الياس حسين . دور الفقهاء الاباضية فى اسلام مملكة.مالى قبل القرن الثالث عشر الميلادى . ندوة العلماء الافارقة ومساهماتهم فى الحضارة العربية الإسلامية . الخرطوم : 1983م ، صـ91 ومابعدها .

ادعاء معظم اهالى وحكام السودان الغربى ، كما هو حال معظم المجتمعات الافريقية المسلمة ، انهم ينتسبون الى أصول عربية شريفة كما سلف . وساعد على انتشار اللغة العربية هجرات القبائل العربية الى تلك البلاد واستقرارهم بها وخاصة هجرات بنو هلال وبنو سليم منذ القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . ومن العوامل التى أدت ايضا الى انتشار اللغة العربية أن أغلب الأئمة المسلمين افتوا بعدم جواز ترجمة القرآن الكريم وعدم جواز قراءته بغير اللغة العربية ووجوب أداء الصلاة بها ، فكان لابد لمن يريد معرفة أسرار الدين أن يتعلم اللغة العربية ويتقنها . وهكذا وجدت اللغة العربية فى هذه المنطقة تربة خصبة ضربت فيها بجذورها وقد لاحظ الرحالة البرتغالى كاداموستو (Cadamosto) الذى زار المنطقة انه يوجد بينهم بعض رجال الدين من الشعب الذى يسمى الصنهاجة أو العرب الذين كانوا ، بالإضافة الىدورهم الثقافى ، مستشارين لملوك السودان فى تنفيذ أحكام الشرع (1) . وأورد بعض الرحالة الذين وصلوا الى المنطقة فى مستهل القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى نفس الملاحظة حول مملكة الوولوف بالسنغال ، ولاحظوا أن الملك والطبقة الحاكمة كانوا من المسلمين وبينهم فئة من العرب البيضان المسلمون يعلمونهم أمور دينهم وهم يجيدون القراءة والكتابة فضلا عن اعتناق بعض افراد الشعب عقيدة الاسلام فى حين أن أغلبهم وثنيون (2) .

ويعقد ابراهيم طرخان مقارنة بين وضع اللغة العربية فى السودان الغربى ووضع اللغة اللاتينية فى اوربا بقوله :" ويشبه هذا ماكان عليه وضع اللغة اللاتينية عند

---

(1) ددود ولد عبدا لله ، المرجع السابق ، صـ25 .

(2) المرجع نفسه ، صـ25 .

الملوك الجرمان والشماليين وشعوبهم ، فهم يتكلمون بلغاتهم الاصلية : الفرنجية أو النورمانية أو الوندالية أو القوطية أو السكسونية ، بجانب اللغة اللاتينية ، ولكن العبادة والحكومة والثقافة والآداب والقوانين ، فباللغة اللاتينية " (1) . كما تأثرت طريقة الكتابة عند أهالى السودان الغربى بما هو معروف عند المغاربة فى الهندسة ونقوشها ، والخط واعجام الحروف وترتيبها ، ويظهر ذلك فيما تحفل به جدران المساجد بالمنطقة من خطوط مختلفة وتتحلى به من رسوم وآيات قرآنية حيث أن النقوش التى وجدت بالمساجد كان يستخدم فيها الخط الكوفى والخطوط الهندسية فى كتابة الايات القرآنية ، وهذا أثر مغربى واضح (2) . وقد وصف القلقشندى ذلك بقوله : " ... وكتابتهم بالخط العربى على طريقة المغاربة " (3) . ووضحت هذه الطريقة فى النصوص العربية المصورة والكتب المنشورة ، مثل تاريخ الفتاش وتاريخ السودان وغيرهما ، ومن خصائص هذه الكتابة أن نقطة حرف الفاء توضع أسفل الحرف هكذا "ڢ" ، كما يستبدل بنقطتى حرف القاف نقطة واحدة توضع فوق الحرف هكذا " ف"، وهذا بجانب رسم الحروف الذى يختلف قليلاعن الرسم المعروف فى بعض مقاطعه ويقرب مما نعرفه بالخط الكوفى (4) .

هذا وقد تركت اللغة العربية أثرا واضحا فى اللغات المحلية الافريقية بالسودان

---

(1) ابراهيم طرخان ، الاسلام واللغة العربية فى السودان الغربى والاوسط ، صـ71 .

(2) شوقى عطا الله الجمل ، المرجع السابق ، صـ151-152 .

(3) القلقشندى 298/5 .

(4) ابراهيم طرخان ، الاسلام واللغة العربية فى السودان الغربى والاوسط ، صـ72 .

الغربى (1) . يقول هوبيــر ديشــان (Hober Dechan) ، المستشـرق الفرنسـى الشهير : " ولم تكتف بلاد السـودان الغربى بـالدخول فـى الإسـلام بـل طبعـت بطابع عربى بسبب انتشار اللغة العربية فى تـــــلك البـلاد " (2) . وتأثـير اللغـة العربية فى غيرها من اللغات ليس غريبا ، فهى قد تركت آثارها فـى لغـات بـلاد اوربـا الجنوبيـة وحتـى الشـمالية كمـا فـى اللغـة الايطاليـة والفرنسـية والبرتغاليـة والاسبانية والانجليزية ، بل أن لغة مالطـا أصولهـا عربيـة (3) ، حـدث كـل هـذا التأثير رغم قصر أمد الاسلام واللغة العربية فى اوربا من الناحية الزمنية * .

أما التأثير العربى فى اللغات السودانية المحلية فهو أوضح وأبرز لأنهـا ظلـت متمسـكة بـالدين الاسـلامى ومظـاهر الحضـارة العربيـة الاسـلامية حتـى اليـوم . ولايزال الى اليوم العديد من الكلمات العربية مستخدمة فى بلاد السودان الغربـى فى شتى مظاهر الحياة ، فنجدها مستعملة فى الحياة الدينية والعلميـة وفـى مجـال القضاء والمكاتبات الرسمية ، وحتى فى أسمـاء المـدن والاعـلام . ويـورد ابراهيـم طرخان أمثلة لذلك ففى الحياة الدينية توجد كلمات عربية مثل : الله : صـارت (يـاللا) أو (يـالف) عنـد الولـوف والسـنغاى والفولانيـين والديـولا والبامبـارا والصوصو . والحمد لله : صارت (هاند اللايا) فى السنغال . وامام : صارت

---

(1) ابراهيم طرخان ، الاسلام واللغة العربية فى السودان الغربى والأوسط ، صـ72 .

(2) هوبير ديشان . الديانات فى افريقيا السوداء ، ترجمـة أحمـد صـادق .(القـاهرة : دار الكتـاب المصـرى ، 1956م) ، صـ132 .

(3) ابراهيم طرخان ، الاسلام واللغة العربية فى السودان الغربى والاوسط ، صـ73 .

* المقصود هنا الوجود العربى الاسلامى بالذات فى فى جنوب اوربـا وجـزر البحـر المتوسـط ، أمـا الوجـود العربى الاسلامى فى اسبانيا فقد أمتد الى حوالى ثمانية قرون (711م-1492م) وذلك كما هو معروف .

(اليمام) أو (اليمامى) فى شتى بلاد غرب افريقيا (1) . وفى مجال التعليم : استخدمت كلمة (قرأ) (يقرأ) ومايشتق منها فى الدلالة على معنى التعليم أو العلم وعلى معنى عالم أو أستاذ أو طالب أو مدرسة (2) وفى أسماء الاعلام : النبى محمد : صارت (أمادو) أو (دودو) ، وأحمد :(أمادو) ، ومحمود : (مامودو) ، ومحمد :(مامدو) ، والامين : (لامين) ، والحسين : (اوسينو) ، وابوبكر : (بوكار) أو (بوبكر) أو (بوكارو) ، وابراهيم (براهيما) أو (بوهاريما) ، وعائشة (ايساتو) ، وحفصة (افسا) ، وفاطمة (فاتيماتو) أو (فاتيماتا) أو (فاتو) ، وبنت (دمنت) وهكذا (3) وقد أطلقت بعض أسماء المدن العربية الاسلامية على مدن فى السودان الغربى مثل : الطائف : تايفا فى غينيا ، وتايف فى السنغال وغينيا ، وكذلك مصر التى تنطق ماسيرا فى غينيا (4) . ومن المجالات التى أستخدمت فيها اللغة العربية أيضا هى : مجال القضاء والمكاتبات الرسمية ، بين ملوك السودان الغربى والعالم الاسلامى الخارجى . ووجد فى الدواوين المصرية زمن المماليك صيغ عربية لمخاطبة الملوك الافارقة المسلمين (5) . وفى مجال التعليم والحركة التعليمية ، وهو أخصب الميادين انتاجا ، كان أساس التعليم العربى الاسلامى حفظ القرآن وتفسيره ودراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية ، وذلك فى أشهر مراكز الثقافة العربية الاسلامية بالمنطقة والتى سبقت

---

(1) المرجع نفسه ، صـ73 .

(2) المرجع نفسه ، صـ74 .

(3) ابراهيم طرخان ، الإسلام واللغة العربية فى السودان الغربى والأوسط ، صـ74.

(4) المرجع نفسه ، صـ74 .

(5) المرجع نفسه صـ75 .

الاشارة اليها . وخلاصة القول : أن اللغة العربية رغم انتشارها الواسع ، كما سلف الايضاح ، الا انها لم تلغ أو تحجب أو تمح نهائيا اللغات أو اللهجات المحلية بالمنطقة وقد ظل الكثير من الاهالى يستخدمون لهجاتهم المحلية ، بينما ظلت اللغة العربية لغة العبادة والثقافة والادارة والتجارة والدبلوماسية وكثيرا من المعاملات الرسمية . ومن الأدلة على تمسك أهالى وسكان السودان الغربى بلغاتهم ولهجاتهم المحلية ما أوردته المصادر التاريخية من أن منسا موسى كان يكلم مرافقه خلال اقامته بالقاهرة عن طريق ترجمان مع اجادته اللسان العربى (1) . كما لاحظ ابن بطوطة أثناء زيارته لمملكة مالى انه كان هناك رجل يحمل رمحا ويشرح للناس بلهجتهم كلام الخطيب (2) ، كما لاحظ الباحث ذلك فى أحد مساجد بماكو بمالى ، وذلك أثناء زيارته لها فى اواخر شهر الصيف (يونيو) 1992م ، فى اطار جمعه لمادة هذا البحث .

2- التعليم ومراحله .

كان التعليم فى السودان الغربى يبدأ بتحفيظ الصبية القرآن الكريم فى الكتاتيب والمساجد التى كانت منتشرة فى المدن والقرى . وقد وصفهم ابن بطوطة بحرصهم الشديد على تعليم ابنائهم وتحفيظهم القرآن الكريم ، حتى أنهم كانوا يقيدونهم فى سلاسل حديد حتى يحفظونه (3) . ومع تحفيظهم القرآن الكريم كانوا يتعلمون مبادىء العبادات والتوحيد وقواعد اللغة العربية . وعندما ينهى الصبى دراسته على هذا النحو ينتقل الى مرحلة دراسية أعمق من الأولى

---

(1) القلقشندى 116/8 .

(2) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ447 .

(3) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ450 .

حيث تدرس فى المسجد الجامع للمدينة علوم التفسير والحديث والفقه المالكى والتاريخ والسيرة وعلوم العربية والمنطق وغير ذلك (1) . ومن هنا نستنتج أن المراحل التعليمية فى السودان الغربى كانت مشابهة الى حد كبير لمراحل التعليم فى الوطن العربى والعالم الاسلامى آنذاك . أما عن مدى انتشار التعليم المهنى والحرفى فى المنطقة فرغم صعوبة استنتاج ذلك من الاشارات المقتضبة التى خصصتها المصادر التاريخية لذلك الموضوع ومن أمثلة هذه الاشارات ماأورده الحسن الوزان ، الذى زار تمبكتو ووصفها بأنها كانت مدينة عظيمة الشأن وفيها الكثير من الدكاكين المملوءة بالمنسوجات والكتب ، وفيها عدد كبير من حوانيت الحياكين والحدادين والخرازين (2) ، ورغم أن هذه الاشارة التى أوردها الوزان تعنى مملكة سنغاى ، فإنه من الممكن أن يكون التعليم المهنى والحرفى منتشر فى المنطقة منذ أيام مملكة مالى .

أما عن ارسال البعثات الدراسية للخارج فقد حرص ملوك السودان الغربى المسلمين على ارسال افواج متتالية من الوطنيين الأفارقة الى المنارات العربية الاسلامية فى الشمال الافريقى ومصر وأهمها : القاهرة وطرابلس وفزان والقيروان وفاس وغيرها لينهلوا من منابعها ثم يعودوا الى أوطانهم لينشروا الاسلام واللغة العربية فى ربوعها (3) . وكان بعض الطلاب السودانيين يسافر الى المراكز الثقافية العربية الاسلامية للتعمق فى الدراسات وذلك بعد حصولهم على الاجازات الدراسية من المراكز العلمية بالمنطقة (4) . وقد ارتفع عدد هؤلاء

---

(1) السعدى ، المصدر السابق ، صـ16 .

(2) عبدالقادر زبادية ، مملكة سعاى ، صـ101 - 102 .

(3) أحمد شلبى المرجع السابق ، ج 6 ، صـ206 ؛ عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ137 .

(4) السعدى ، المصدر السابق ، صـ16 .

الطلاب النازحين الى المراكز الثقافية العربية . ففى مصر مثلا تقاطر العديد منهم على الازهر الشريف حيث أقاموا رواقا خاصا بهم يستقرون فيه ويتلقون فيه العلوم العربية الاسلامية . وقد عرف باسم (مدرسة ابن رشيق) التى تحدث عنها المقريزى فى كتابه : "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " والمعروف بالخطط المقريزية ، بقوله "... هذه المدرسة للمالكية وهى بخط حمام الريش من مدينة مصر كان الكانم من طوائف التكرور لما وصلوا الى مصر سنة بضع واربعين وستمائة قاصدين الحج دفعوا للقاضى علم الدين بن رشيق مالا بناها به ودرس بها فعرفت به وصار لها فى بلاد التكرور سمعة عظيمة وكانوا يبعثون اليها فى غالب الأحيان المال " (1) . ورغم أن هذا النص يشير صراحة الى أن طوائف الكانم بالسودان الأوسط هى التى أسست مدرسة بن رشيق المشار اليها . غير انه يبدو انها كانت منزلا لحجاج وطلاب العلم من بلاد التكرور عموما ، بما فيهم أهالى السودان الغربى ، والدليل على ذلك أن لفظ التكرور كان يطلق على عموم سكان غرب أفريقيا كما هو معروف . وأن المقريزى وغيره من الكتاب ظلوا فيما بعد يستخدمون لفظ التكرور دون الكانم ، وذلك أثناء حديثهم عن مدرسة إبن رشيق المشار إليها . ومن أمثلة العلماء السودانيين الذين رحلوا الى المراكز الثقافية العربية الإسلامية : الفقيه أحمد بن عمر بن محمد أقيت جد العالم أحمد بابا التمبكى ، وقد التقى الفقيه أحمد بن عمر العالم المصرى السيوطى والشيخ خالد الأزهرى وغيرهم (2) , وكذلك العالم محمد بن أحمد التازختى الشهير بلقب (أيد أحمد) الذى رحل الى كل مصر والحجاز وعاد لينشر ما تعلمه

---

(1) المقريزى . المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، ط 2 (القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، 1987م) ، ج 2، صـ365 .

(2) أحمد بابا ، نيل الإبتهاج ، صـ138 ، السعدى ، المصدر السابق ، صـ37 .

من علم ومعرفة (1) . وكذلك العاقب ابن محمود بن عمر بن محمد بن أقيت قاضى تمبكتو الذى رحل الى المشرق للتعليم والحج (2) ، وغيرهم كثير.

وبالإضافة الى ذلك فقد وفد الى المنطقة العديد من العلماء والفقهاء وأقاموا بها وقدمت لهم ضروب المساعدة مما دعاهم الى إطالة الإقامة بالمنطقة ومن أمثلة هؤلاء : المغيلى وجلال الدين السيوطى وغيرهم من علماء فاس ومراكش وشنقيط ، وكل هذا يتضح صداه فيما كتبه السعدى وكعت وأحمد بابا وغيرهم من مؤرخى هذه الفترة (3) .

3- فن العمارة (البناء - النحت - النقش) .

من المعروف أن الفن المعمارى الأصيل للسودان الغربى قبل خضوعه للمؤثرات العربية الاسلامية هو البناء المستدير المغطاة سطوحه دائما بالاخصاص والقش فى شكل هرمى وربما يعود ذلك الى عامل التكيف مع المناخ حيث يشهد فصل الامطار بالمنطقة هطول أمطار غزيرة (4) . أما الحيطان فتبنى بالطوب ونادرا ماتتخللها الحجارة . وكان بناء الذوات والأغنياء يتميز غالبا عن بناء العامة بأن البناء الأول عادة يكون بالآجر أى الطوب المحروق فى حين تبنى الثانية (بيوت الفقراء والمتوسطى الحال) بالطوب المجفف أى اللبن الذى يخلط بالتبن أحيانا حتى يزداد صلابة (5) .

---

(1) المصدر نفسه ، صـ39 .

(2) المصدر نفسه ، صـ40-41 .

(3) راجع ماكتبه السعدى ، المصدر السابق وكعت ، المصدر السابق وأحمد بابا ، نيل الإبتهاج .

(4) عبدالقادر زبادية ، الحضارة العربية والتأثير الاوربى ، صـ87-88 .

(5) المرجع نفسه ، صـ88 .

وباعتبار الناحية العمرانية من ضمن المظاهر الثقافية فإن ملاحظات الرحالة والجغرافيين والمؤرخين والباحثين حول الأثر العربي الاسلامي في عمارة بلاد السودان الغربي تفيد بأن طابع الفن المعماري المغربي كان واضحا في المنشآت العمرانية المختلفة في المنطقة ويقول السعدي عن تمبكتو بأنها : "... ماأتتها العمارة الا من المغرب." (1) . والمعروف أن التأثيرات العربية الاسلامية في مجال فن العمارة قد أتضحت مع رحلة منسا موسى الى الحج ، حيث أصطحب معه عند عودته ثلة من المهندسين المعماريين من أهمهم : ابراهيم الساحلي الغرناطي الذي ادخل الى المنطقة فن البناء وزخرفته على الطراز المغربي - الاندلسي إذ لم يكن معروفا هذا الفن المعماري في هذه المنطقة من قبل (2) . وقد وصف العمري هذا التطور المعماري وهو (نظام البناء بالباليستا) الذي ادخله الساحلي الى المنطقة بقوله : "... وهو انه يبنى تقدير نصف ذراع بالطين ثم يترك حتى يجف ثم يبنى عليه مثله ثم يترك حتى يجف ثم يبنى عليه مثله هكذا حتى يتناهى وسقوفها بالاخشاب والقصب وغالب سقوفها قباب أو جملونات كالاقيا وارضها تراب مرمل ." (3) .

وقد بنى الساحلي قصرا للسلطان منسا موسى وصفه ابن خلدون بقوله : "... فأراد أن يتخذ بيتا بمقعد سلطانه محكم البناء مجللا لغرابته ، فأطرفه أبواسحق الطونجق ببناء قبة مربعة الشكل استفرغ فيها اجادته وكان صناع اليدين واحتفى عليها من الكلس ووالى عليها بالاصباغ المشبعة فجاءت من أتقن

---

(1) السعدي ، المصدر السابق ، صـ21 .

(2) Trimingham :A history of Islam in West Africa . P.P.68-69

(3) العمري ، المصدر السابق ، صـ35 ؛ القلقشندي 283/5 .

المبـانى ووقعـت مـن السـلطان موقـع الاسـتغراب لفقـدان صنعـه البنـاء بأرضهم ." (1) . وقد شاهد ابن بطوطة خلال زيارته للمنطقة هذه القبـة وقـال إن بابها بداخل قصر السلطان وانه يجلـس فيهـا أكثر الأوقـات (2) . ويقـال إن الساحلى بنى أيضا مسجدا بجاو مـن الطـوب المحروق وعرفهـم بنظـام الاسـقف المسطحة للمنازل وبنى مئذنة هرمية لمسجد سنكرى بتمبكتو (3) .

وقد عاش الساحلى بقية حياته فى تمبكتو حتى توفى ودفن فيها (4) ، وقد شاهد ابن بطوطة لدى زيارته لتمبكتوقبر الساحلى حيث قـال:"...وفـى تمبكتـو يوجـد قـبر الشـاعرالمفلق ابـى اسـحاق السـاحلى الغرنـاطى." (5) وكذلـك مـن المهندسين المعماريين اللذين رافقـوا منسـا موسـى أبـان عودتـه مـن رحلـة حجـه الشهيرة هو عبدا لله الكومى الموحدى الغدامسـى ، الذيـن كـان مقيمـا بغدامـس ورحل رفقة منسا موسى الى السودان الغربى (6).

وقـد شـارك عبـدا لله الكومـى الغدامسـى مـع السـاحلى فـى تشـييد بعـض الانشاءات المعمارية بالمنطقة ومنها مسـجد سـنكرى الشـهير الـذى شـيداه علـى الطراز المغربى – الاندلسى ، ولازالت بقاياه موجودة الى اليـوم بتمبكتـو . وقـبرا المذكورين موجودان حتـى الان فـى مقـبرة بشـمال تمبكتـو . و لم يقتصـر التأثـير العمرانى العربى الاسلامى على القصور الملكية والمساجد والمساكن بل أمتد الى

---

(1) ابن خلدون 201/6 .

(2) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ445 .

(3) ابراهيم طرخان ، دولة مالى الاسلامية ، صـ6 ؛ أحمد الفيتورى ، المرجع السابق ، صـ248.

4) Joseph Cuoq : OP.Cit .p. 114.

(5) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ451 .

(6) ابن خلدون 201/6 .

المتاجر وقام التجار العرب الذين سكنوا المنطقة ببناء حوانتيهم على الطريقة المغربية حيث بنوا مخازن البضاعة فى أسفل دور السكن وقلدهم الاهالى فى ذلك.

ولعب المعماريون العرب المغاربة دورا كبيرا فى تخطيط مدينتى جاو وجنى وغيرهما . وتمتاز هاتان المدينتان كما يقول ديشان بالشوارع الضيقة والبيوت ذات السطوح العالية والابواب الضخمة وهذه هى المظاهر الاساسية للمدن العربية بالشمال الافريقى (1) ويصف نعيم قداح تخطيط مدن السودان الغربى المتأثر بالنمط المعمارى العربى الاسلامى فى العصور الوسطى بقوله ، "... كان لكل مدينة مسجدها الكبير الذى يجتمع فيه سكانها . وقد نظمت المدن الاسلامية من حيث تخطيطها لتلائم حياة الطوائف الاجتماعية وفقا للأغراض الاقتصادية . ومن ذلك بناء وتنظيم المخازن والمتاجر والحوانيت التى بنيت حول المسجد. والتى كانت تبيع المسابح والعطور والكُتب. ثم تستدير الأبنيةَ الاخرى حول المسجد لتقوم فيها أعمال التجارة والصناعة ، وتأتى فى نهاية هذه الابنية حوانيت الحدادين ." (2) . وحيث أن بناء المساجد فن عربى اسلامى قائم بذاته يبدو تأثيره فى كل مكان دخله الاسلام . فقد أنشئت المساجد فى معظم المدن الواقعة على طريق القوافل وغيرها . ويصف السعدى ملوك السودان الغربى المسلمين بأنهم حريصون على بناء المساجد ، فمنسا موسى كان يبنى مسجدا فى كل مدينة تدركه فيها صلاة الجمعة (3) .

---

(1) نعيم قداح ، المرجع السابق ، صـ146 .

(2) المرجع نفسه ، صـ145 .

(3) السعدى ، المصدر السابق ، صـ7 .

وفى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى عمل المهندس معلوم أدريس المراكشى الذى كان معاصرا للساحلي وربما أحد مساعديه على بناء مسجد مدينة جنى الشهير وهو نموذج للتمازج الفنى العربى الافريقى (1) . وفى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى قام المعمارى الافريقى محمد فادى ، الذى تعلم فن البناء فى المغرب ، بتشييد المسجد الجامع فى تمبكتو وقد خرب هذا المسجد وأعيد بناؤه مرارا (2) ورغم أن التاثيرات الفنية المعمارية فى السودان الغربى لم تحظ الى الآن ، على حد علمنا ، بدراسة تحليلية عميقة ، لكننا نستنتج أن ماوضح من معالم هذه الفنون ، العمرانية يؤكد عمق التأثير العربى الاسلامى فى هذا المجال . فقصور الامراء والحكام تدل فى هندستها ونقوشها ومعالمها وتنظيمها ومحتوياتها على الأثر العربى الإسلامى على تلك الفنون . فالشمسيات الزجاجية وغير ذلك من معالم الفن والنظام الذى بنيت به المساجد والنقوش التى أستخدم فيها الخط الكوفى والخطوط الهندسية وزخرفة الآيات القرآنية كلها تدل على التأثيرات العربية الإسلامية فى النقش والنحت . وقد شاع فى مدن السودان الغربى بناء الاسوار تشبها بما كان سائدا فى البلاد العربية وفى المغرب بالذات (3) . ويستخلص شوقى الجمل فى حديثه عن الآثار الفنية العمرانية العربية الاسلامية بالسودان الغربى بالقول أن اسلوب البناء كان متأثرا بأسلوب البناء فى البلاد العربية ، وأن أحياء بكاملها من أحياء تلك المناطق أشتهرت منازلها بتصميمها المغربى . ويعلل ذلك بأن حكام هذه المناطق وشعوبها

---

(1) نعيم قداح ، المرجع السابق ، صـ147 ؛ عبدالقادر زبادية ، مملكة سنغاى ، صـ107 .

(2) نعيم قداح ، المرجع السابق ، صـ147 .

(3) شوقى الجمل ، المرجع السابق ، صـ152 .

ينظرون الى مايشيع فى المغرب والبلاد العربية الأخرى التى اتصلوا بها من الوان الحضارة على أنها مثل عليا يحتذى بها (1) .

رابعا : مظاهر التأثير فى الانماط الاجتماعية .

من المسائل البديهية أن التغير الاجتماعى عملية مستمرة ماوجدت الحياة الانسانية ، على أن ذلك التغير محكوم بقوى داخلية وخارجية تؤثر عليه سلبا أو إيجابا . ولقد كانت العقيدة الاسلامية التى حملها العرب الى تلك المناطق ولاشك من القوى الخارجية الهائلة الأثر فى مجال التغير الاجتماعى فى السودان الغربى ، إذ أنها تعد من دوافع البعث الشامل فى كل أوجه حياة الانسان الافريقى الذى أحتك بمؤثراتها . وقد تعرضت مناطق السودان الغربى الى جملة من التغيرات الهامة فى مظاهر الانماط الاجتماعية المختلفة مثل : العادات والتقاليد والفنون الشعبية ووضع المرأة ونظام الأسرة ، والزى وتقاليده ، والشعائر والطقوس الدينية وأداء فريضة الحج .

1- العادات والتقاليد والفنون الشعبية .

من المعروف ان العادات الاجتماعية وثيقة الصلة بتطور حياة الانسان ومن الصعب التحول عنها بيسر وسهولة . وقد وقع بالسودان الغربى امتزاج بين العادات والتقاليد العربية الاسلامية الوافدة من مناطق الوطن العربى وبين التقاليد السودانية . وظهر نتيجة لهذا الامتزاج تقاليد عربية اسلامية افريقية ، ويتضح ذلك من خلال ماسجله الرحالة والجغرافيون والمؤرخون الذين زاروا المنطقة

---

(1) المرجع نفسه ، ص 152 .

وكتبوا عنها ومنهم ابن بطوطة الذى لاحظ إتباعهم الكثير من العادات الاسلامية المنسجمة مع تعاليم العقيدة الاسلامية . ومنهـا علـى سبيل المثـال الامتنـاع عـن النواح فى المآتم وحكى قصة وقعت له عندما كان فى ضيافة أحـد حكـام اقـاليم مملكة مالى بقوله :"... فجاءت الينا جارية له دمشقية عربية ، فكلمتنى بـالعربى. فبينما نحن فى ذلك إذ سمعنا صراخا بـداره ، فوجـه الجاريـة لتعـرف خـبر ذلـك. فعادت اليه ، فأعلمته أن بنتا له قد توفيـت ، فقـال أنـى لااحـب البكـاء ،" (1). وعن الطقوس التى كانوا يمارسونها أثناء المآتم ماورد عن السـلطان منسـا موسـى من أنه أقامَ ليلة عـزاء ، دعـا اليهـا الامـراء والفقهـاء والقـاضى والخطيـب وابـن بطوطة ، الذى كان موجودا هناك ابان رحلته الشـهيرة ، وقـد جـاءوا بالربعـات وختم القرآن وكان الحاضرون يقرأون ويتلون (2). ومـن العـادات التـى ذكرهـا ابن بطوطة ، أيضا ، دليـلا علـى تدينهـم وتمسـكهم بـاخلاق الاسـلام ، " أنهـم لايعترضون القوافل فى رمضان ، واذا وجـد اللصـوص متاعـا فـى الطريـق ، فـى رمضان ، ايضا تركوه . وانه اذا طلب انسان غريمـا لـه فلجـأ الى المسجد أو الى منزل الخطيب لم يطلبه احتراما للمسـجد وشيخه . حتـى السـلطان نفسـه يـترك غريمه اذا لجأ لأيهما ، كما رأينا فى قصة زوجة السلطان التى تـآمرت عليـه مـن قبل ." (3) . ومن هذه العادات ، أيضا ، قلة الظلم وفى هذا الصدد يقـول ابـن بطوطة : "فهم أبعد الناس عنه . وسلطانهم لايسامح أحدا فى شىء منه . ومنهـا شمول الامن فى بلادهم ، فلا يخاف المسـافر فيهـا ولا المقيـم سـارقا ولاغاصبـا . ومنها عدم تعرضهـم لمـال مـن يموت ببلادهـم مـن البيـض ، ولـو كـان القناطير

---

(1) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ452 .

(2) محمود الشرقاوى ، المرجع السابق ، صـ391 .

(3) محمود الشرقاوى ، المرجع نفسه ، صـ386 .

المقنطرة ، وانما يتركونه بيد ثقة من البيض حتى يأخذه مستحقة ." (1) . ومن العادات التى حافظ عليها أهالى المنطقة وامتدحها ابن بطوطة هى : مواظبهم على الصلاة،حيث يقول :" ومنها مواظبتهم على الصلوات وملازمتهم لها فى الجماعات، وضربهم اولادهم عليها. واذا كان يوم الجمعة، و لم يبكرالانسان الى المسجد ، لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام. ومن عاداتهم أن يبعث كل انسان غلامه بسجادته ، فيبسطها له بموضع يستحقه ، حتى يذهب الى المسجد. وسجادتهم من سعف شجر يشبه النخل ، ولاثمر له ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة . ولو لم يكن له الا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة ." (2) . وأمتدح أيضا ، حفظهم للقرآن الكريم وحرصهم الشديد على تعليم ابنائهم إياه ، حيث قال : "... ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم جعلوا لهم القيود ، اذا ظهر فى حقهم التقصير فى حفظه فلاتفك عنهم حتى يحفظوه. ولقد دخلت على القاضى يوم العيد، واولاده مقيدون ، فقلت له الا سرحهم ؟ فقال : لاأفعل حتى يحفظوا القرآن. ومررت يوما بشاب منهم حسن لاصورة عليه ثياب فاخرة،وفى رجله قيد ثقيل ، فقلت لمن كان معى : مافعل هذا ، أقتل ؟ ففهم عنى الشاب وضحك . وقيل لى : أنما قيد حتى يحفظ القرآن ." (3) . ومن الملاحظات الدقيقة الى أوردها أحمد بابير الأروانى فى مخطوطته عن انتقال معظم التقاليد والعادات العربية الاسلامية الى السودان الغربى، أن بعض أصناف الاكل تشبه فيه أهالى المنطقة بالشمال الافريقى ، ومنها

---

(1) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ450 .

(2) المصدر السابق ، صـ450 .

(3) الصفحة نفسها .

أكلة الكسكسى التى انتشرت فى تلك المنطقة (1) . ومن هذه العادات هى عادة ضرب الطبول ، وهى عادة غير موجودة فى الاسلام ولكنهم ، أى أهالى السودان الغربى ، لم يستطيعوا التخلص منها بسهولة ، رغم قبولهم بالانماط الاسلامية ، ولكنها طوعوها ، وذلك بادخالها فى حلقات الاذكار التى كانت تمارسها الحركات الصوفية التى تواجدت فى تلك المنطقة ومن أشهرها : الطريقة القادرية .

حيث كان مريدوها يضربون الطبول فى حلقات الذكر ويقومون ببعض الحركات البهلوانية التى هى بالتأكيد إمتداد لمماراساتهم التى كانوا يقومون بها فى حلقات الرقص والغناء والطرب وذلك قبل اعتناقهم للعقيدة الإسلامية وخضوعهم لمؤثراتها وتعاليمها ، ومن الآثار العربية الإسلامية فى سلوك أهالى السودان الغربى هى : حسن العشرة وتقديم غيرهم على أنفسهم (2) . كما تحلوا بإكرام الغرباء الذين يحلون بين ظهرانيهم فقد أكرم السلطان منسا سليمان ابن بطوطة بالعطايا ، وخصه الدوغا * برعاية فائقة وأكرمه ، كما أن السلطان منسا موسى أجزل العطاء لأبى اسحاق الساحلى وأعطاه فى يوم واحد أربعة الاف مثقال (3) . وحدث نتيجة للمؤثرات العربية الإسلامية ايضا ، إختفاء الكثير من العادات الوثنية السيئة مثل : تقديم القرابين البشرية ووأد الاطفال . وصار الناس الذين كانوا عراة تماما ولايغتسلون ، يتأنقون بملابسهم من أجل الصلاة ، ويغتسلون يوميا لأن الشريعة الإسلامية تأمرهم بالطهارة وتعتبرها شرطا

---

(1)الاروانى ، المصدر السابق ، ورقة 14 .

(2) التمبكتى، مخطوطة،أهمية التاريخ ، رقم 1430 تمبكتو : مركز أحمد بابا ورقة 5 .

* الدوغا : معناها للمترجم أنظر : ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ444 .

(3) ابن بطوطة ،المصدر السابق ، ص449 .

أساسيا لصحة أداء الشعائر الدينية مثل الصلاة والصوم وغيرها من العبادات . كما أصبح المسلمون السودانيون يباهون الوثنيين بملابسهم البيضاء النظيفة (3) . كما أن تحريم العقيدة الإسلامية لشرب الخمر وكافة المسكرات أثر فى الاستقرار النفسي والصحي وساعد على إقبال الناس على أعمال الخير والكسب الحلال وامتهان المهن الشريفة . (4) . هذا وكان أهالى السودان الغربى يمارسون بعض العادات السيئة مثل : نثر التراب على رؤوسهم وجلوسهم على الركب حاسرين غير أن الاسلام خفف وهذب هذه الممارسات فأصبح السلام على الملك وتحيته تتم بالتصفيق .

ومن الوقائع التاريخية التى تؤكد تمسكهم بالقيم الاسلامية هى رفض السلطان منسا موسى تقبيل الأرض عندما دعى لمقابلة السلطان الناصر المملوكى فى مصر ، أثناء رحلته الشهيرة الى الحج . وقد نقل ابن فضل ا لله العمرى عن الأمير أبالعباس أحمد بن الحاكى ، الذى كان يشغل وظيفة مهمندار فى بلاط المماليك آنذاك ، والذى أشرف على مراسم استقبال منسا موسى من طرف السلطان الناصر المملوكى مانصه :"... وحاولته أن يطلع للقلعة ويجتمع بالسلطان فأبى على وأمتنع وقال أنا جيت لاحج لا لشىء آخر وما اريد أن أخلط حجى بغيره وشرع فى الاحتجاج بهذا وأنا افهم انه يرى الحضور نقصا عليه لما يضطر اليه من تقبيل الأرض أو اليد وبقيت أحاوله وهو يتعلل ويعتذر والمراسم السلطانية تتقاضى فى احضاره فما زلت به حتى وافق فلما حضر الى حضرة السلطان قلنا له قبل الأرض فتوقف وأبا اباء ظاهرا وقال كيف يجوز هذا

---

(3) نعيم قداح ، المرجع السابق ، صـ173 .

(4) المرجع نفسه ، صـ173 .

فأسر اليه رجل عاقل كان معه كلاما لانعلمه فقال أنا أسجد لله الـذى خلقنـى وفطرنى ثم سجد وتقدم الى السلطان فقام لـه بعض قيام وأكرمه وأجلسه الى جانبه وحادثه حديثا طويلا ثم خرج السلطان موسى ." (1) .

ومن هنا عمل الإسلام على تهذيب العادات القائمة بالسودان الغربى وقضى على التقاليد الوثنية التى تنشأ مع تعاليمه . وبتوطيد العقيدة الاسلامية ومفاهيمها انتشرت العلوم والمدنية الاسلامية ، وازداد اتصال هذه المناطق بأرقى الحضـارات المعاصرة ، وهى الحضارة العربية الاسلامية بإنسانيتها .

ونتيجة للمستوى الأخلاقى الرفيع الذى وصل اليه اهالى المنطقة بعد إعتناقهم العقيدة الإسلامية فقد أثنى عليهم الحسن الوزان ووصفهم بقوله :" وهـم أكثر تحضـرا وذكـاء واعتبـارا مـن بـين جميـع السـود لأنهـم كـانوا السـابقين الى الإسلام ." (2) . وأشاد بهم توماس ارنولد بقوله : "... وهم من أعظم اجنـاس افريقيا رقيا ." (3) . وقد علل ولموث بليدن(N W.Blyde) المسيحى الليبيرى أسباب قدرة العرب المسلمين على التأثير فى عادات وتقاليد أهالى المنطقة بقوله :" إن السر فى نجاح المسلمين فى مهمتهم فى افريقيا السوداء ، أنهم احترموا العادات والتقاليد المحلية و لم يحتقروها (4) .

أما بالنسبة للفنون الشعبية فالموسيقى والغناء والرقص وشتى صنوف الطـرب هى من الفنون التى بلغ فيها أهالى السودان الغربى ، وخاصة فـى عهد مملكتـى مالى وسنغاى الإسـلاميتين ، درجـة معتـبرة فـى الحـذق والمهـارة . وقـد لاحـظ

---

(1) العمرى ، المصدر نفسه ، ورقة 44 .

(2) الوزان 165/2 .

(3) توماس ارنولد ، المرجع السابق ، صـ356 .

4) W , Blyden:Chrisianity, Islam and the Negro-Race.(London.1881) PP.22-23.

المؤرخون والجغرافيون العرب ولع الافريقيين الشديد بمثل هذه الفنون . فقد وصفهم القلقشندى بأنهم بارعون فى الغناء والرقص والموسيقى (1) . وبترسيخ مفاهيم العقيدة الاسلامية أختفت بعض المظاهر الصاخبة وماتحويه من جلبة وضوضاء ، كانت تقترن بالحفلات الوثنية ، ولم يعد هناك أى مدلول لتلك العبارة الشهيرة التى عرفت عن افريقيا الوثنية ، اذا غربت الشمس رقصت افريقيا .

ومن خلال إبراز هذه الشواهد التاريخية عن العادات والتقاليد فى السودان الغربى ابان خضوعها للتأثيرات العربية الإسلامية يتضح : أنه قد بدأ تفكك معظم العادات والتقاليد الوثنية التى كانت متبعة فى تلك المناطق ويتضح كذلك الامتزاج بين التقاليد العربية الاسلامية وبين التقاليد السودانية وتكونت بذلك تقاليد عربية إسلامية ، ذات أطر افريقية . ويرجع ذلك ، ولاشك ، الى ترسخ أقدام العقيدة الإسلامية وتعاليمها ومثلها ، وتخلى الوطنيين الأفارقة عن الكثير من الممارسات التى تتسم بالسحر والشعوذة وعبادة الاسلاف وأرواحهم . وقد زعزع الإسلام النظام القبلى الذى كان يقوم على العلاقات العشائرية والولاء للزعامات القبلية وأدى الحال الى أن تصبح الفكرة والقيم وليس الشخص محور التجمع العضوى للعشائر والمجتمعات ومكان التقائها ووحدتها ، ولم يسع الاسلام الى هدم الأسس السابقة وتقويض القيم وحل العادات الافريقية القديمة ، بل عمل على أن تلائم الدين الجديد وتلتزم بما يبشر به .

---

(1) القلقشندى 224/3 .

2- المرأة ونظام الأسرة

من المعروف أن الزواج فى المجتمعات الافريقية بالسودان الغربى ، قبيل تعرضها للتأثيرات العربية الاسلامية كان محصورا داخل العشيرة حفاظا على تماسكهم . وكان الرجل فى تلك المناطق يسمى باسم أمه ، ثم باسم عائلة امه أو قبيلتها وكانت الأم هى المسيطرة على النظام العائلى (1) ، بحيث أصبحت القاعدة المتبعة هى الوراثة من ناحية الأمومة . وقد علق القلقشندى على هذا الموضوع بقوله :"... على قاعدة العجم فى تمليك البنت وابن البنت " (2) . وبتغلغل مؤثرات الحضارة العربية الاسلامية بالمنطقة بدأ أضمحلال العادات الوثنية التى كانت سائدة فى النظام القبلى شيئا فشيئا . ومن هذه المظاهر أن كثيرا من الأهالى الذين أعتنقوا الإسلام قد تركوا أسماءهم السابقة واكتسبوا أسماء عربية وأصبح الفرد ينسب الى أبيه ويحمل أسم امه (3) ، وذلك حسب ماتقتضيه تعاليم العقيدة الإسلامية . غير أن المرأة ظلت تتمتع بمكانة مرموقة فى مملكة مالى على سبيل المثال حيث كانت الملكة الزوجة والملكة الأم ، أحيانا ، تشغلان مناصب هامة فى البلاط الملكى وتشاركان مشاركة فعلية فى السلطة (4) . ويقال إن الاسكيا محمد الكبير ، ملك مملكة سنغاى الإسلامية ، كان أول حاكم فى السودان الغربى أرغم النساء على إتباع قواعد الإسلام من ناحية الزى والإختلاط ، وكان أول من حكم بحرية ابن الرجل من أمته التى تصير بعد ذلك

---

(1) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، صـ230 .

(2) القلقشندى 294/5 .

(3) نعيم قداح ، المرجع السابق ، صـ94 .

(4) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ449 .

أم ولد وكان هذا الابن قبل ذلك يعتبر عبدا تبعا لأمه (1) . ولعل هذه الشواهد التاريخية توضح مدى حرص الملوك السودانيين المسلمين على التمسك بموروث وتقاليد العرب المسلمين .وقد أختلط التجار العرب ، وغيرهم من العناصر المسلمة ، التى وفدت الى السودان الغربى ، وعاشت فيه ، بأهالى المنطقة وتصاهروا معهم ، وقد أدى هذا التصاهر والتمازج بين الوافدين من المسلمين وبين الوطنيين الافارقة الى انتشار الثقافة العربية ورسوخ العقيدة الإسلامية فى السودان الغربى بصورة جماعية . كما وقع على عاتق الهجين الجديد عبء توطيد دعائم المؤثرات العربية الإسلامية والدفاع عنها ، واليه يرجع الفضل فى تأسيس المؤسسات الاسلامية والدفاع عنها ، فى تلك البقاع . والجدير بالذكر أن تواصل انصهار العناصر العربية المسلمة الوافدة مع الوطنيين الأفارقة لم يقف تياره حتى بعد وقوع هذه المنطقة الافريقية فى براثن الاستعمار الاوربى بل ظل الاسلام فى انتشار مستمر يكسب الى جانبه أنصار عديدين يفوق عددهم بكثير ماتم تنصيرهم بالرغم من الجهود المكثفة التى تبذلها المؤسسات التبشيرية المسيحية (2) .

ونظرا لأن الإسلام يرسخ القيم النبيلة التى تدعو الى المساواة بين البشر ، إذ لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ، وبذلك زالت الفوارق اللونية والطبقية بين العرب وأهل السودان الغربى ، وتزوج الوافدون العرب من زنجيات من أهالى المنطقة ، وأنجبوا منهن ، فقد ذكرالسعدى أن الفقيه محمد بغيغ هو الذى

---

(1) أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ج 6 ، صـ266 .

(2) الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ181-182 .

كان يفصل بين المولدين والمسافرين (1) ، وذكر ابن بطوطه أن ابـن الفقيـه كـان متزوجا من ابنة عـم السـلطان المـالى منسـا سـليمان (2) . ونتيجـة لهـذا التـآخى وصفهم توماس ارنولد بقوله :" أن المسلمين فى تلك البـلاد لايعرفـون التعصـب فى أى صورة من صـوره ، ولايضمـرون للمسيحية أى نـوع مـن العـداء " (3)ـ .ويبدو التأثير العربى الإسلامى واضحـا فـى عـادات الزواج ونظـام الأسـرة . والمعروف أن مجتمعـات السـودان الغربـى كـانت ، قبـل تمثلهـا لمظـاهر الحضـارة العربية الإسلامية ، يسودها التفكـك والإنحـلال . فكـان الـزواج بـدون ضوابـط ولاحدود ، وبالتالى كانت الروابط الأسرية واهيـة وضعيفـة . ولكـن ، وبتغلغـل التأثير العربى الإسلامى ، تقيد المجتمع الأفريقى المسلم بضوابط الشرع الإسلامى، وبالعادات والتقاليد التى وصلتهم مع الجماعات العربيـة الإسـلامية ويؤكـد ابـن بطوطة ذلك عند وصفه لاحتفـال السـلطان بـالعيدين بقولـه :"... ويـأتى دوغـا الترجمـان بنسـائه الأربـع وجواريـه " (4) . وهـذا يعتـبر تغـيرا فـى نظـام الأسـرة والزواج ، وقد رفع الإسلام من مكانة المرأة وأحاط الأسرة السودانية بسياج مـن الحصانة ، وكفل لأبنائها التربية الصحيحة ، ووضع نظامـا عـادلا لتوزيـع الـثروة بين أفراد الأسرة جميعا اذا مات أحد أفرادها ، بعد أن كـان النظـام المحلـى يخـص ابن الزوجة الأولى بالتركة كلها .ولاشك فـى أن البنـاء الأسـرى فـى مجتمعـات السودان الغربى قد تأثر الى حد كبير بتعاليم الإسلام ومبادئه . وبالطبع لايمكن

---

(1) السعدى ، المصدر السابق ، صـ118 .

(2) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ444 .

(3) توماس .ارنولد ، المرجع السابق ، صـ140 .

(4) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ448 .

أن نتوقع أن القانون الإسلامى النموذجى هو الذى ساد ، لكن لاشك أن التغيير الذى حدث كان كبيرا ، والصراع مابين القديم والجديد ظل مستمرا الى فترة غير قصيرة. وتختلف قوة كل من العاملين فى المدن عنها فى المجتمعات الزراعية والقرى بصفة خاصة. ففى هذه الاخيرة نلمس المحافظة على التقاليد القديمة والميل الى التغيير أقل منه فى المدن . ولعل نظم الوراثة ومكانة المرأة فى المجتمع ونظم الزواج ونظم البناء الاسرى عموما تعطى فكرة عن مدى سيادة الاسلام وتعاليمه وتأصل مفاهيم العقيدة الإسلامية فى المجتمع الافريقى .

3- الزى وتقاليده •

يعد الزى وتقاليده فى السودان الغربى من المظاهر الإجتماعية التى جاءت وليدة التأثيرات العربية الإسلامية خاصة التأثير العربى المغربى وقد أشار الى ذلك العمرى واصفا زى أهالى مالى بقوله : "... ولباسهم عمايم بحبك مثل العرب وقماشهم بياض من ثياب قطن يزرع عندهم وينسج فى نهاية الرقع واللطف يسمى الكميصيا ومنهم شبيه بزى المغاربة جباب ودراريع بلاتفريج ويلبس أبطالهم الفرسان أساور من ذهب ."(1) . كما يلبس الفقهاء منهم عمامة على نسق العمامة الشرقية مع ترك عذبة تتدلى على ظهره (2) .وفيما يتعلق بزى وحليه رجال الجيش فقد وصفهما ، أيضا العمرى بقوله :"... ويلبس أبطالهم الفرسان أساور من ذهب فمن زادت فروسيته لبس معها أطواقا من ذهب فان

(1) العمرى ، المصدر السابق ، صـ 39 ؛ القلقشندى 299/5 . أما لفظ الكميصا الوارد فى النص فيبدو انه محرف عن لفظ القميص العربى أنظر : الشيخ الامين عوض الله ، المرجع السابق ، صـ62 .

(2) ابراهيم على طرخان ، دولة مالى الاسلامية ، صـ164.

زادت لبس معها خلاخل ذهب وكلما زادت فروسية الفارس منهم لبسه الملك سراويلا متسعا وكلما زادت فروسية البطل منهم يزيد فى كبر سراويله " (1) . ويضيف الى ذلك القلقشندى بقوله : " وأهل هذه المملكة يركبون السروج وهم فى غالب احوالهم فى الركوب كأنهم العرب ." (2) . ونتيجة للازدهار الاقتصادى الذى شهدته بلاد السودان الغربى وخاصة فى عهد مملكتى مالى وسنغاى الاسلاميتين ، فقد تأنق الأهالى فى ملابسهم وظهر لديهم الاهتمام بصناعة الملابس والأقمشة المحلية التى توفرت خاماتها المحلية بتوفر القطن ، فضلا عن استجلابهم الملابس الحريرية والقطنية المطرزة ذات الالوان الزاهية من الخارج (3) وخاصة من الشمال الافريقى .

ووصف الحسن الوزان أهالى منطقة السودان الغربى الذين زارهم وتعرف على أحوالهم بأنهم يرتدون لباسا حسنا ، ويتلثمون بلثام كبير من قطن أسود وأزرق يغطون به حتى رأسهم ، ولكن الأئمة والفقهاء يتلثمون بلثام أبيض (4) . ومن مظاهر تشبههم بالعرب المسلمين هو لبسهم للملابس البيضاء وخاصة فى المناسبات الدينية كعيدى الفطر والاضحى ، وأثناء خروجهم لصلاة الجمعة ، وقد شاهدهم على هذه الأحوال ابن بطوطة أثناء زيارته لبلاد السودان الغربى وقال عنهم : "... وحضرت بمالى عيدى الأضحى والفطر ، فخرج الناس الى المصلى ، وهو قريب من قصر السلطان ، وعليهم الثياب البيض الحسان ،

---

(1) العمرى ، المصدر السابق ، ورقة 39 .

(2) القلقشندى 299/5 .

(3) أحمد فؤاد بليغ ." عبدالرحمن السعدى عصره و كتبه " ، المجلة التاريخية المصرية . القاهرة : 20 (1973م)،صـ94 .

(4) الوزان 163/2 .

وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان ." (1) . ويصف ابن بطوطة ، أيضا ، ملك السودان أثناء جلوسه بالمشور وهو فى أبهى حلته ، متشبها فى ذلك بالخلفاء والسلاطين العرب المسلمين ، ويقول عن ذلك : "... ويخرج السلطان من باب فى ركن القصر ، وقوسه بيده ، وكنانته بين كتفيه . وعلى رأسه شاشية ذهب ، مشدودة بعصابة من ذهب ، لها أطراف مثل السكاكين رقاق ، طولها أزيد من شبر . وأكثر لباسه جبة حمراء موبرة من الثياب الرومية التى تسمى المطنفس ." (2) . ويصف ابن بطوطة حرص أهالى السودان الغربى على ضرورة الخروج الى الصلاة فى ملابس بيضاء فضفاضة ونظيفة بقوله :"... ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة،ولو لم يكن لأحدهم الا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة ." (3) ومن المعروف أن معظم قبائل السودان الغربى قبل خضوعها للمؤثرات العربية الإسلامية ، كانت تسير وأجسادها عارية وبعض تستر أجسادها بالجلود وغيرها وذلك وفقا للتقاليد الاجتماعية التى كانت سائدة ؛ لكن بعد أن اعتنقوا الاسلام بدأوا يتأنقون فى ملابسهم من أجل الصلاة ، وأصبحوا يباهون مواطنيهم الوثنيين بملابسهم البيضاء النظيفة (4)، وذلك كما سبقت الإشارة .

---

(1) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ447 .

(2) المصدر نفسه ، صـ446 .

(3) المصدر نفسه ، صـ450 .

(4) نعيم قداح ، المرجع السابق ، صـ173 .

4 – الشعائر والطقوس الدينية

كانت المعتقدات الوثنية سائدة فى المجتمعات الأفريقية فى السودان الغربى قبيل قيام مملكتى مالى وسنغاى الاسلاميتين . غير أن معظم هذه العقائد والممارسات والطقوس الدينية وشعائرها أستمرت ردحا من الزمن بالرغم من بروز العديد من التأثيرات العربية الإسلامية ، ذلك لأن اعتناق الاسلام لم يلغ كثيرا من تلك العادات والتقاليد بل مزج ، أحيانا ، مظاهر المجتمع الإسلامى بأنماط أفريقية . وقد كان لدى أهالى السودان الغربى عادات وشعائر وطقوس دينية متعددة ذات طابع وثنى منها احتفالات دينية مهيبة لالهتهم واسلافهم تقام سنويا وموسميا وفى المناسبات ، يشربون فيها الخمر ويرقصون ويتلون الأدعية ، ويقدمون الضحايا والقرابين وتطول مدة هذه الاحتفالات أو تقصر حسب أهميتها ، فعند جنى المحاصيل يقيمون احتفالا لاله الحصاد ، وعند سقوط الأمطار يقيمون احتفالا لاله المطر وهكذا (1) ، وهناك احتفالات الزواج والولادة والختان وتلقين الأسرار والدفن والجنائز يدعون فيها أرواح أسلافهم تبركا بهم وأتقاء لشرهم (2) . وكانت لهم طقوس دينية يقومون بها عند اختلال ظواهر الطبيعة أو الكوارث والمحن ، وعند تناول الطعام يرمون الفتات على محراب الأسرة ويتلون بعض الأدعية ، وعند نحر الذبيحة يهدون بعضها لأرواح أسلافهم ، وارتكاب المحرمات كالزنا والحنث فى اليمين اعتبروه جرما عظيما يقتضى التطهر منه تقديم قربان وعند بعض القبائل يكون التطهر منه بالطرد من

---

(1) محمد عوض محمد ، المرجع السابق ، صـ97-98 .

(2) المرجع نفسه ، صـ97-98 .

القبيلة (1). واشتغل بعض السودانيين بالسحر والكهانة للتنبؤ بما سيحدث وللدفع الكوارث والأخطار ومداواة المرضى وللحفاظ على القوى الحيوية (2). وكان لأهالى السودان الغربى نظم دينية دقيقة فهناك الكاهن الاكبر وهو الزعيم الروحى وغالبا الدنيوى أيضا للقبيلة فيقوم بتوجيه الحياة الدينية لها وهو الواسطة بين الأحياء وبين اسلافهم الموتى بل بينهم وبين الله ويمكنه التنبؤ بما سيحدث. وهناك في القبيلة رجال يشتغلون بالسحر والكهانة ويقومون بتوجيه الحياة الروحية للناس وتقديم الضحايا والقرابين وعمل الاحجبة والتمائم وكانت لهم مكانة رفيعة. ويليهم شيوخ العشائر المختلفة، وفوق هؤلاء جميعا واولئك، أرواح اسلافهم إذ الموتى هم الرؤساء الفعليون للأسرة والقبيلة كلها، وهم القوامون والمراقبون لسلوك الأحياء ولهم عليهم حق الثواب والعقاب، ان تمسكوا بعادات القبيلة ونظمها أو تركوها (3). غير أن انتشار الاسلام وتأثيره الاجتماعى قد هذب كثيرا من تلك الشعائر والطقوس الدينية الوثنية حتى أن بعضها الغى بالكامل. والبعض الآخر صبغ بصبغة اسلامية ويلاحظ أن العادات الخاصة باحتفالات الالهة والاسلاف قد الغيت، إذ لامعبود سوى الله، واستبدلوا هذه الاحتفالات بالاحتفال بعيدى الفطر والاضحى وغيرها من المناسبات الدينية كالمولد النبوى الشريف وليلة القدر وعاشوراء حيث وجدوا فيها خير بديل عما تركوه. وقد أبقى الاسلام على احتفالاتهم بالزواج والولادة والختان، الا انه جردها من طابعها الوثنى شكلا ومضمونا، ونبذ الإسلام

---

(1) هوبير ديشان، المرجع السابق، صـ64-86.

(2) محمد عوض محمد، المرجع السابق، صـ97-98.

(3) هوبير ديشان، المرجع السابق، صـ64-68.

كذلك فكرة القربان وجعل من الاضاحى والصدقات خير بديل عنها (1) .ومن طقوسهم الدينية توجههم الى ظواهر الطبيعة عند اختلالها ، فوجدوا فى شعائر الاسلام صلاة الاستسقاء عند تأخر هطول المطر وصلاة الكسوف والخسوف التى يتضرعون فيها الى الله حيث وجدوا فيها خير بديل عن طقوسهم السالفة ، كما وجدوا فى صلاة الاستخارة خير بديل عن الكهانة .

وحرمت العقيدة الاسلامية السحر فلجأوا الى كتابة تمائم بآيات قرآنية . وأستبدل الإسلام بمذاهبهم المؤسسة على الفصول التقويم الهجرى ، وهو أثنا عشر شهرا هلاليا فى السنة الواحدة ، وذلك لإرتباطه بالعبادات التى يمارسها المسلمون . وكان لقبولهم التقويم الهجرى والتأريخ به أثر كبير فى قطع صلاتهم بعباداتهم الوثنية القديمة وتقوية الاسلام فى نفوسهم. وأصبح المسجد الجيد البناء النظيف بما فيه من آذان وصلاة مركزا للقرية بدلا من دارعبادة الأوثان أو اليويو : (uYui) ذات المنظرالبشع وقد الغت عبادة الله الواحد القهارالكائن فى كل مكان كل مالقن الأهالى عبادته من قبل (2) . ووجد أهالى السودان الغربى فى نظام الإسلام الدينى فأصبح ولى أمر المسلمين بديلا عن الكاهن الأعظم فى توجيه الحياة الدينية والدنيوية وعرفوا نظام قاضى القضاة أو شيخ الإسلام الذى يقيم الشرع . وأخذ الوزراء والأمراء والقضاة وأئمة المساجد مكان الكهنة والسحرة والأسلاف ومن المعروف أن الحياة الدينية فى السودان الغربى قد سيطر عليها المذهب المالكى ، كما سلف الإيضاح . أما بالنسبة

---

(1) شوقى الجمل ، المرجع السابق ، صـ159 .

(2) توماس ارنولد ، المرجع السابق ، صـ398 .

لإحتفالاتهم بالمنسابات الدينية والأعياد ، فإن الأثر العربى الإسلامى أوضح مايكون فى ذلك ، حيث أعطوا إهتماما بالغا لتلك المناسبات ، وصاروا يحيونها بتنظيم الإحتفالات الكبرى التى يشارك فيها الملوك وأفراد الأسر الحاكمة والنبيلة. وقد وصف ابن بطوطة هذه المظاهر وأثنى عليها (1) . كما وصف هذه الاحتفالات بأنها تقام بحضور الملك الى المصلى ، فتقام الصلاة والخطبة وبعدها يتغنى الشعراء بمدح الملك وبذكر غزواته وأفعاله ، وتغنى النساء والجوارى ويلعبون الألعاب الخفيفة منها اللعب بالسيوف وغيرها من الألعاب (2) . كما أكد أنهم فى ليلة العيد يطيلون السهر ويقضون الوقت فى الغناء والرقص والطرب والموسيقى ودقات الطبول (3) . وهكذا يتضح من خلال هذه الفقرة الأثر الهام الذى شهدته بلاد السودان الغربى فى مجال الشعائر والطقوس الدينية .

5- أداء فريضة الحج الى الأراضى المقدسة .

من المظاهر التى تؤكد تأثر بلاد السودان الغربى بالأنماط العربية الإسلامية هى خروجهم فى مواكب ضخمة لأداء فريضة الحج الى الأراضى المقدسة * ، وكانت هذه المواكب تسلك طرقا عديدة من أهمها طريق الدرب الصحراوى المعروف بطريق غات ، والذى يمر عند أهرام الجيزة بمصر (4) . ويبدو أن تفضيل

---

(1) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صـ447 .

(2) ابن بطوط ، المصدر السابق ، صـ448 .

(3) المصدر نفسه ، صـ447 .

* للمزيد حول ظاهرة خروج سلاطين السودان الغربى فى مواكب سنوية الى الحج أنظر : عمر عبدالرازق النقر ، المرجع السابق .

(4) حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، صـ223 .

شعوب السودان الغربى لمصر كطريق للحج راجعا الى الإزدهار الثقافى والحضارى لمصر آنذاك ، وقد كانت قوافل الحجيج تمر بمصر وتقيم فيها فترة من الزمن انتظارا لموسم الحج ، وتنتهز تلك الفرصة للمتاجرة بأسواق مصر المزدهرة، وللنهل من معين الثقافة العربية الإسلامية ، ومن هنا كانت تلك الاتصالات مدعاة لتعميق أواصر الصلات والعلاقات المختلفة بين مصر وأهالى تلك المنطقة.

والواقع أن الحج ظل يمثل أقوى الروابط وفرصة الالتقاء والتبادل الفكرى والثقافى والتجارى وفرصة للاحتكاك المباشر بين المسلمين والتعرف على أحوالهم المختلفة. وتتحدث المصادر التاريخية عن مواكب الحج الى الأراضى المقدسة ، وأشارت الى انه ومنذ تغلغل الاسلام فى السودان الغربى حرص سلاطين الدويلات الإسلامية على تنظيم قوافل الحج السنوية الى الأراضى المقدسة (1) . ولاشك أن رحلات الحج هذه كانت بالغة الأثر فى نفوس أهالى المنطقة ، وكانت فرصة للإلتقاء مع اخوانهم المسلمين فى الأمصار المختلفة ، وبذا تتأكد روح الأخوة الإسلامية التى يوجبها الإسلام . وكما يؤكد ترمنجهام أن شعورا بأن الإسلام ديانة الأفارقة جميعا كان يتملك المسافرين من الأفارقة فى رحلة الحج (2) . كما يقول القلقشندى أن ملوك مالى ورعاياهم متمسكين بالإسلام محافظين على أداء فريضة الحج الى الأراضى المقدسة (3) .

---

(1) السعدى ، المصدر السابق ، صـ7 ؛ كعت ، المصدر السابق ، صـ16 ؛ المقريزى ، الذهب المسبوك ، صـ110 - ومايليها .

(2) شوقى الجمل ، المرجع السابق ، صـ154 .

(3) القلقشندى 297/5 .

وقد كان أداء فريضة الحج بالنسبة لأهالى السودان الغربى مدعاة للإعتزاز والمفخرة ، وقد كان الفرد منهم يلقب عقب عودته من أداء هذه الشعيرة الدينية بالحاج وقد يكسبه هذا اللقب تجلة وأحترام .

وقد عرف هذا النمط (مواكب الحج) منذ بداية دخول الإسلام الى المنطقة الا أن هذه المواكب ظهرت بوضوح منذ موكب السلطان منسا موسى الذى ضم من الحاشية الملكية والمواطنين أكثر من عشرة الاف شخص (1) . وبالرغم مما فى هذا العدد من مبالغة فإن مجىء ذلك الموكب الضخم أتاح للمناطق العربية التى اجتازها فرصة طيبة لمعرفة الكثير عن أحوال تلك البلاد ، وأتاح للسلطان منسا موسى ومرافقيه من جهة أخرى فرصة الإطلاع على الأحوال الحضارية ، والأحوال العامة ، التى كانت تعيشها المناطق العربية فى كنف ازدهار الحضارة العربية الإسلامية . وقد تركت هذه الرحلة المشهودة ذكرى عطرة فى نفوس أهالى المناطق التى أجتازها ذلك الركب ، لما شهدوه من مظاهر الثراء ، وضخامة عدد الحجيج المرافقين له . وكان لصرف منسا موسى وانفاقه لكميات كبيرة من الذهب في تلك الرحلة أثر كبير فى ذيوع شهرة مملكة مالى الإسلامية ، حتى ظهرت فى الخرائط العالمية ، كما ظهرت فى هذه الخرائط أيضا صورة الملك منسا موسى ، الذى عرف بملك الذهب (2) .

وكان العمرى فى مخطوطته "مسالك الابصار" كثيرا مايستمد معلوماته من الأمير أبى العباس أحمد بن الحاكى المهمندار ، الذى ندبه السلطان الناصر محمد

---

(1) السعدى ، المصدر السابق ، صـ7 .

(2) عوض الله ، المرجع السابق ، صـ201 .

للإشراف على ضيافة هذا الملك ، وقد أشار العمرى نقلا عن الأمير ابى العباس أن هذا الملك قد أظهر ثراء واسعا حيث قدم هدايا الى الخزانة السلطانية بقوله :"... ثم انه قدم للخزانة السلطانية جملا كثيرة من الذهب المعدنى الذى لم يصنع بعد" (1) . ولم يدع أميرا ولارب وظيفة الا ونفحه من هذا الذهب ، كما أفاض على الحجيج وأهل الحرم بمكة ، وأكرمه سلطان مصر ، وأرسل اليه الخلع ووفر له جميع وسائل الراحة (2) .

ورغم أن مواكب الحج أستمرت بعد ذلك الى الأراضى المقدسة ، الا أن أهمها كان موكب الاسكيا محمد الكبير ، الذى خرج حاجا الى بيت الله الحرام عام 902هـ/1497م (3) . ولم يكن موكبه يقل عن موكب منسا موسى المشار اليه. وأختلفت الروايات حول اعداد المرافقين فى هذه الرحلة فقد ذكر محمود كعت ، الذى كان مرافقا للاسكيا فى هذه الرحلة ، أن عدد العبيد والخدم قد بلغ ثمانمائة ، وتصدق الاسكيا على فقراء الحرمين بمائة الف دينار ذهبا ، وأشترى بيوتا وجنانا حبسها على الفقراء والعلماء المساكين (4) .

بينما ذكر السعدى أن عدد المرافقين كان الف وخمسمائة (5) ، وبلغت كمية الذهب التى أنفقها ثلاثمائة الف مثقال من الذهب (6) . وقد مر هذا الموكب الحاشد بمصر وقد أشار الى ذلك محمد الصغير الوفرانى بقوله :"... وكان الحاج

---

(1) العمرى ، المصدر السابق ، صـ 44 .

(2) حسن أحمد محمود ، الإسلام والقافة العربية فى افريقيا ، صـ224 .

(3) السعدى ، المصدر السابق ، صـ72 .

(4) كعت ، المصدر السابق ، صـ16 .

(5) السعدى ، المصدر السابق ، صـ73 .

(6) المصدر نفسه ، صـ73 .

المذكور رحل فى أوائل المائة التاسعة الى مصر والحجاز بقصد حج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام " (1) ولقى الاسكيا محمد الكبير اعلام الاسلام بمصر والحجاز ، حيث التقى بالسيوطى واستفتاه فى بعض المسائل الدينية (2) . كما أستن الاسكيا محمد الكبير تقليدا صار لزاما على من خلفه وهى اعطاء مواكب الحج أهمية فى مراسم البلاط الملكى ، فصار وفقا لذلك الاساكى يخرجون لملاقاة مواكب الحجيج القادمة من الاراضى المقدسة ويقدموا لهم الهدايا ، ويتلقوا منهم البركات والدعوات ، وقد وقع ذلك بالتحديد فى عهد الاسكيا داؤود وروى محمود كعت ذلك (3) . وعليه يمكن الاشارة الى أن التأثير العربى الإسلامى فى المجالين الثقافى والاجتماعى قد بلغ ذروته فى السودان الغربى مابين القرنين الرابع والسادس عشر الميلاديين فقد أدى تعدد روافد هذا التأثير ووسائل انتشاره الى ازدهار وأثراء الحياة الثقافية فى تلك البقاع حيث برزت مراكز ثقافية هامة منها تمبكتو وجنى ونيانى التىأقامت صلات وثيقة بأهم المراكز الثقافية فى الشمال الافريقى ومصر .

وساعد كل ذلك على إقبال أهل السودان الغربى طواعية على الإنخراط فى المؤسسات التعليمية التى انتشرت فى ظل مملكتى مالى وسنغاى الاسلاميتين والتى ساهمت فى نشر اللغة العربية والإسلام وترسيخه فى تلك المنطقة . أما اجتماعيا، فإن لإنصهار معظم سكان السودان الغربى فى بوتقة الحضارة العربية

---

(1) الوقرانى ، المصدر السابق ، صـ89 .

(2) السعدى ، المصدر السابق ، صـ73 .

(3) كعت ، المصدر السابق ، صـ111 .

الإسلامية آثار ايجابية فقد تلاشت معظم العادات الموروثة المجافية لـروح الإسـلام كالسحر والشعوذة وعبادة الاسلاف والإنتساب عن طريق الأمومة وسيادة المرأة ونتيجة للتأثير العربى الإسـلامى اكتسـب أهـالى السـودان الغربـى الإنتسـاب الى أبائهم دون أمهاتهم ، مع محافظتهم على المكانـة السـامية التـى كفلهـا الإسـلام للمرأة , وكذلك ألتزموا بأداء صلواتهـم فـى مواعيدهـا وتمسـكوا بحفـظ القـرآن الكريم وبمراعاة شعائرهم الدينية . وكان النمط العربى المغربى قد ضـرب بجـذور عميقة فى السودان الغربى ، حيث تأثر به أهالى السـودان الغربـى ، فـى حيـاتهم الثقافية والإجتماعية .

خـــاتمة

لعب التاثير العربى الإسلامى فـى السـودان الغربى فيمـا بـين القرنـين الرابع عشـر والسـادس عشـر الميلاديـين أدوارا حاسمـة فـى تـاريخ شـعوب تلـك المنطقة، و لم يتوقف هذا التأثير حتى يومنا هـذا بـل أصبـح بوتقـة أنصهـرت فيـه الثقافة العربية الإسلامية الوافدة ، فى نوع مـن التلاقـح والمعيشـة السـلمية ، مـع الثقافات المحلية الافريقية الامر الـذى اذى الىغلبـة الطـابع العربـى الاسـلامى فـى المنطقة ويلاحظ المتتبع لحركة التاريخ ان الإتصالات والتمازج والإنصهار العربـى الأفريقـى قـد توجـت خـلال الفـترة المـؤرخ لهـا بقيـام مملكتـى مـالى وسـنغاى الإسلاميتين بدور فعال على مدى ثلاثة قرون فى حمـل مشـعل الحضـارة العربيـة الإسلامية فى السودان الغربى .

وإذا كانت الثقافة العربية الإسلامية تسـود حاليـا فـى ربـوع تلـك المنطقـة المعروفة جغرافيـا اليـوم بإسـم (**غـرب أفريقيـا**)، وإذا كـانت أعـداد كـبيرة مـن الوطنيين الأفارقة مازالت تدخل أفواجا فـى الإسـلام ، رغـم محـاولات التنصير الكنسية والإستيعاب الثقافى من جانب الغرب الصليبى ، فإن الفضل الأول لهـذا التفاعل العميق مع الإسلام وحضارته الإنسانية ، إنما يرجع الى ذلك التأثير والتأثر المتبادلين بين العرب وأهالى السودان الغربى قديما ، لاسيما خلال القرنـين الرابـع عشر والسادس عشر الميلاديين .ومساهمة فى وضـع العلاقـات العربيـة الأفريقيـة فى إطارها الصحيح وتنقيتهـا مـن بعـض ممـالحق بهـا مـن تشـويهات وإدعـاءات وإفتراءات الأعداء ، فإن هذه الدراسة حرصت على أستقاء جّـل معلوماتهـا مـن أمهات المصادر الأولية والمراجع الهامة التى كشفت بجلاء ووضـوح ذلـك الـدور البارز الذى تركه التأثير العربى الإسلامى فى شتى أوجه الحياة السـائدة ، آنـذاك

فى السودان الغربى.وبعد تتبع الجوانب المختلفة لهـذا التأثير وتحليلهـا ، توصلت هذه الدراسة الى النتائج التالية :-

أولا:- ترجع علاقة العرب بمنطقة السودان الغربى الى ماقبل الإسلام. فقد جذبت هذه المنطقة التى تتمتع بثروات طبيعية ضخمة وبمعدن الذهب مجموعات عربية من التجار والبدو ، منذ وقت مبكر . فتسربت تلك المجموعات من الشمال الأفريقى ، عبر الصحراء الكبرى التى لم تكن عائقا لهم ، فى بطء ويسر داما قرونا حتى إختلطت بالوطنيين الأفارقة على المستوى العرقى . غير أن دائرة هذا الإختلاط ظلت محدودة وبطيئة و لم تتسع رقعتها الا بعد ان توطدت العقيدة الإسلامية فى الشمال الأفريقى بمجىء القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ، وذلك لأن الإسلام أعطى المهاجرين العرب السند الروحى والمادى فتدفقوا فى أعداد كبيرة حتى تخطوا الجنوب الموريتانى الحالى ووقفوا عند أبواب مراكز السودان الغربى . وكان لإنتشار الإسلام وحركة التعريب فى موريتانيا وفى قيام مملكة الملثمين الصنهاجية دورا حاسما فى نقل المؤثرات العربية الإسلامية الى تلك البقاع .

ثانيا :- لقد كانت قبائل صنهاجة القاطنة فى الشمال الأفريقى أول العناصر العربية التى توغلت وتأقلمت فى السودان الغربى منذ أمد بعيد وأصبحت جزءا من حضارة المنطقة وتراثها واليها يرجع الفضل فى تأسيس العديد من الممالك الهامة التى شهدتها تلك المنطقة ، ومنها ممالك غانه ومالى وسنغاى . وبإعتناق الصنهاجيين للعقيدة الإسلامية ، أصبحوا روادا لنشر الإسلام والثقافة العربية فى أرجاء السودان الغربى .

والجدير بالذكر أن هناك بعض الرحالة والمؤرخين ، عربا وفرنجه ، ومسلمين ومسيحيين يحدثونا عن أن العرب لم ينشروا الإسلام فى السودان الغربى ، كما هو الحال فى القرن الأفريقى وسودان وادى النيل ، وإنما يعود

الفضل فى إنتشاره الى مايسمى "بالبربر" الذين رسخوا التأثير المغربى فى تلك المنطقة . فقد نسى هؤلاء وأولئك أو تناسوا أن أصالة عروبة سكان الشمال الأفريقى ، ومن بينهم قبائل صنهاجة ، عريقة ولاجدال فيها . فمنذ إكتمال حركة الفتوحات الإسلامية التى نشرت الإسلام ولغة القرآن الكريم والتى أكسبت الوطن العربى حدوده الحالية ، توسع مفهوم العروبة ، وبالتالى أصبح سكان الشمال الأفريقى عربا بالمولد وعربا بالثقافة والحضارة وعربا بالوجدان ، فالعروبة ، ليست عنصرية وغير مرتبطة بجنس ولا لون ، وإنما هى عروبة اللسان والإنتماء والأمانى والتطلعات المشتركة .

ثالثا :– لقد أمتد التأثير العربى الإسلامى فى السودان الغربى فى الفترة التى سبقت جهاد المرابطين الى الطبقات الحاكمة والمجموعات الأفريقية الأخرى التى شاركت السكن وخالطتهم وصاهرتهم . ولكن ليس هناك مايؤكد أن بعض الأسر السودانية الحاكمة أعتنقت الإسلام قبل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى وعملت على نشره بين الرعية . وربما يعود السبب فى ذلك ، الى أن الرواد الأوائل من المسلمين كان معظمهم من التجار والبدو ، وهم ممن تنقصهم المعرفة الدقيقة بالفقه الإسلامى ، ولذا ظلت جهودهم محدودة .

بيد أن التأثير العربى الإسلامى قطع خطوات واسعة بإعلان جهاد المرابطين وقيام دولتهم التى أسقطت مملكة غانه الوثنية عام (469هـ/1076م) والتى أعطت الإسلام سندا سياسيا وروحيا فتح الباب على مصراعيه لنشره على أسس صحيحة فى ربوع البلاد ، الأمر الذى مهد الطريق أمام المرحلة التالية التى شهدت إنتقال الزعامة السياسية والدينية الى الوطنيين الأفارقة الذين أسسوا مملكتى مالى وسنغاى الإسلاميتين على التوالى .

رابعا :– أثبتت هذه الدراسة أن التأثير العربى الإسلامى كان له دور إيجابى فى المجال السياسى فى السودان الغربى . فقد أدى إعتناق عدد كبير من شعوب هذه

المنطقة للإسلام وتمثلهم للثقافة العربية الإسلامية الى خلق نوع من التماسك والترابط بينهم والى وضع المقومات الأساسية لوحدة وطنية وسياسية أضعفت القبلية ونقلت المجتمعات المفككة الى مجتمع الدولة المركزية . وما تأسيس مملكتى مالى وسنغاى الإسلاميتين اللتين كانتا إمتدادا لتكوينات سياسية قديمة ، بصورتها الجديدة ، الا تعبيرا عن غلبة المؤثرات العربية الإسلامية على تلك المنطقة .

خامسا :– لقد حرصت السلطات الحاكمة فى السودان الغربى على الإتصال بالأنظمة الإسلامية فى المجتمعات المعاصرة لها والتشبه بها فى نظم الحكم والإدارة والقضاء والحربية . وظل نظام الحكم والإدارة خلال القرون الثلاثة مستمدا من الشريعة الإسلامية . وكان متأثرا فى خطاه ، فى الغالب الأعم ، بما هو متبع فى المشرق العربى ، نتيجة للمؤثرات التى نقلها كل من منسا موسى والأسكيا محمد الكبير بعد أدائهما لفريضة الحج .

وأفادت المصادر التاريخية ان نظام الشورى كان سائدا فى كل هياكل الحكم والإدارة فى مملكتى مالى وسنغاى الإسلاميتين وأن العدالة والأمن مستتبان. كما أستخدم السلاطين مجالس الشورى فى معالجة شئون الدولة وفى النظر فى المظالم . وكذلك كان للعلماء فى أيام الاسكيا محمد الكبير دور فعال فى سياسة الدولة وفى مجلس الحرب الذى يرأسه الاسكيا شخصيا .

أما فى المجال الحربى ، فقد التزمت الدولة ، الى حد كبير ، بالتعاليم الإسلامية التى وضعت ضوابطا للسلم والحرب والتى دعت الى الدفاع عن الدين والدولة ، حينما يعتدى عليهما . كما أخذ سلاطين السودان الغربى عن الحضارة العربية الإسلامية نظام التجنيد النظامى والتعبئة وإرسال السرايا الخفيفة ومحاصرة المدن وإرسال العيون لإستطلاع أخبار العدو .

ومن مظاهر التأثير العربى الإسلامى ، أن ملوك السودان الغربى وسلاطينهم ، قاموا بتسجيل سيرتهم وأعمالهم وجهادهم فى سبيل نصرة

الإسلام، إسوة بما كان يفعله رصفاؤهم فى المجتمعات العربية الإسلامية المعاصرة لهم .

سادسا :- أتضح - كذلك - ان المجتمعات الأفريقية فى السودان الغربى ، كما هو الحال فى المناطق الأفريقية الأخرى ، تعطى وزنا كبيرا لظاهرة الإنتساب الى أصول عربية . وكان ملوكهم وسلاطينهم يحرصون على الإنتساب لنسب عربى شريف لتعزيز مكانتهم فى أعين مواطنيهم . فعلى سبيل المثال لا الحصر ، فان ملوك مالى يدعون إنحدارهم من أصول يمنية من أسرة(ذا اليمن اوضيساء اليمن).كما ان سنى على (1464م- 1492م) مؤسس دولة سنغاى ينتسب الى أسرة ضياء أو ديا الطرابلسية ، وكذلك يرجح إنتساب الأسكيا محمد الكبير (1452 - 1528م) الى أسرة صنهاجية وفدت من الجنوب الموريتانى . ولعل تكرار ظاهرة الإنتساب العربى فى المجتمعات الأفريقية مرتبطة بتواتر الروايات الشفاهية التى تؤرخ لنشأة تلك الممالك . ولايستبعد صحة هذه الروايات ، وذلك لأن "الرجل الغريب" عادة مايكون عربيا مسلما يحظى بإحترام الزعيم الوطنى الذى يزوجه إبنته ، ثم يؤول الملك الى أبناء هذا الغريب حسب النظام (الأمومى) السائد فى المجتمعات الأفريقية ، قبل تمثلها للتعاليم الإسلامية . وقد أستفاد العرب الى حد بعيد من نظام الوراثة عن طريق الأنثى فى الوصول الى المراكز السياسية والإدارية الهامة .

سابعا :- كشفت الدراسة ان التجارة كانت العمود الفقرى فى نقل التأثير العربى الإسلامى للسودان فقد كان المركز السياسى يتبع ، دائما ، مركز الثقل الإقتصادى ، وذلك لأن السيطرة على التجارة الداخلية والخارجية كانت من المقومات الرئيسية المساعدة فى توطيد دعائم هذه الممالك .

وكانت طرق القوافل التجارية بين شمال القارة الأفريقية وغربها تحت سيطرة عربية . كما احتكر العرب الوساطة التجارية بين سواحل البحر الأبيض المتوسط

والسـودان الغربـى . وكذلـك أصبحـت المراكـز التجاريـة الواقعـة علـى جـانبى الصحراء الكبرى مراكزا لنشاط الجاليات العربية ومنها الجالية الغدامسية والجاليـة التواتية . وأشتهرت مراكز غدامس وتوات وتغازا فى الجانب الشمالى للصحـراء الكبرى بينما إزدهرت ولاتة وتمبكتو وتادمكه فى جانبها الجنوبى .

وتميزت هذه المراكز بطابعهـا العربـى الإسـلامى ، حيـث قسـمت الى أسـواق ، يختص كل سوق بعرض نوع معين من السلع كما أقيمت أسواق تجارية فى أيـام محددة من السنة ، تقليدا لما كان سائدا فى أسواق الوطن العربى .

ثامنا :– ويتبين من هذه الدراسة أن منطقة السودان الغربى كانت عامرة بمنـاجم الذهب والملح وبمواردها الزراعية والحيوانية . وقد جذبت هـذه الثروة الضخمـة الرحالة والتجار والهجرات العربية لاسيما بعد رحلة الحـج الهامـة التـى قـام بهـا منسا موسى والتى أنفق خلالها ثروة طائلـة مـن الذهـب . وتجلـى التأثـير العربـى الإسلامى فى المعاملات التجارية ، حيـث حلـت المبادلـة محـل المقايضـة المعروفـة باسم التجارة الصامتـة (Silent Trade) . كما ظهر فى التعامل التجارى أنـواع من العملات الذهبية والفضية والنحاسية ، وكذلك أستخدم الودع والمنسوجات القطنية فى المجال نفسه . والى جانب ذلك ، انتقلت المصطلحات العربيـة المتعلقـة بالمقاييس والمكاييل والاوزان بأسمائها العربية الى اللغـات الأفريقيـة المحليـة وبـرع العرب المسـلمون الذيـن عاشـوا فـى تلـك المنـاطق فـى تنظيـم مـايمكن تسـميته بالوكالات التجارية وتحديـد مواعيـد انطـلاق القوافـل التجاريـة ، فضـلا عـن اختيار البضائع الأكثر ربحا ورواجا .

تاسعا :– أفادت الدراسة أن الطابع الثقافى الذى ساد فى السودان الغربـى كـان مغربى السـمات . فكـانت المـدارس ومراحلهـا ومناهجهـا ذات طـابع مغربـى ، بدرجة كبيرة . وقـد تـأثر أهـالى السـودان الغربـى بـالمذهب المـالكى ، المعـروف بإنتشاره الواسع فى منطقة الشمال الإفريقى ، وخاصة منذ أن عمل المرابطون فى

القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى على نشره بالمنطقة . كما كان معظم علماء المغرب الذين تقاطروا على تلك المنطقة يدينون بالمذهب المالكى ، فالمغرب العربى بجانب إسهامه فى نشر العقيدة الإسلامية والمذهب المالى ترك أثرا واضحا فى تجويد القرآن الكريم وهندسة الخط واعجام الحروف وترتيبها ، وظهر ذلك واضحا فى الكتابات الموجودة على جدران المساجد . هذا ، وتركت اللغة العربية أثارا واضحة فى بعض اللغات المحلية السودانية ، التى صارت تكتب بالحرف العربى ، وظل الامر على ذلك حتى عمل الاوربيون على كتابتها بالحرف اللاثينى ، وذلك عقب موجة الاستعمار الاوربى الحديث . كما استخدمت العديد من الكلمات العربية فى بلاد السودان الغربى فى الحياة الدينية والثقافية والعلمية وفى مجال القضاء والمكاتبات الرسمية وفى اسماء المدن والاعلام.

ونتيجة للتأثير العربى الإسلامى فى السودان الغربى فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين ، قامت مراكز ثقافية بارزة مثل : تمبكتو وجنى ونيانى التى صارت مدارسها وجامعاتها منارات للعلم توافد عليها الطلاب من أرجاء بلاد السودان الغربى والشمال الافريقى والأندلس ، خاصة بعد سقوط غرناطة بيد الفرنجة 1492م . فصارت هذه المراكز الثقافية مراكز إشعاع ثقافى وعلمى وأحتضنت العديد من العلماء الوافدين من المنطقة العربية والأندلس والسودان الغربى نفسه ، وقد أثرى هؤلاء العلماء الحياة العليمة بمؤلفاتهم وانتاجهم العلمى.

عاشرا :- لاحظت الدراسة أن التأثير العربى الإسلامى قد أمتد الى الفن المعمارى فى السودان الغربى . وقد خلق هذا التأثير مزيجا يجمع بين التراث المحلى والتراث العربى الإسلامى الوافد . وتجلى ذلك الفن المعمارى فى تخطيط المدن وبناء المدراس والمساجد والمنازل . وكان ابراهيم الساحلى الذى أدخل الى المنطقة نظام البناء بالبّاليستا ، قد شيد قصرا للسلطان منسا موسى وصفه كل من ابن بطوطة وابن خلدون كما بنى مسجدا بجاو من الطوب المحروق وعرفهم

بنظام الاسقف المسطحة . كما شارك الساحلى مع عبدا لله الكومى الغدامسى فى بناء مسجد سنكرى الشهير الذى شيداه على الطراز المغربى - الاندلسى .
و لم يقتصر التأثير العمرانى العربى الإسلامى على المساجد والقصور الملكية ، بل امتد الى المتاجر ، حيث قام التجار ببناء حوانيتهم على الطريقة المغربية ، حيث بنوا مخازن البضاعة فى أسفل دور السكن ، وقلدهم الأهالى فى ذلك .

حادى عشر :- أثبتت الدراسة أن التأثير العربى الإسلامى قد ساعد فى التخفيف من غلواء التقاليد الوثنية التى كانت سائدة فى المجتمعات الافريقية بالسودان الغربى . فقد تخلى الأهالى عن الكثير من العادات المجافية لروح العقيدة الإسلامية كممارسة السحر والشعوذة وعبادة الأسلاف والعرى والمبالغة فى تعدد الزوجات والإنتساب الى أمهاتهم دون أبائهم . وأصبحت عاداتهم وتقاليدهم سواء فى الملبس أو المسكن أو المأكل مشابهة الى حد كبير للنمط المغربى.وكذلك ترسخت فى نفوسهم الإلتزام بأداء الشعائر الدينية مثل : حفظ القرآن الكريم وتلاوته ومحافظتهم على الصلاة وأداءها فى جماعات وضرب أولادهم اذا قصروا فى اداءها . كما سجل الرحالة والجغرافيون الذين زاروا المنطقة ، خلال فترة الدراسة ، حرص أهالى السودان الغربى على ممارسة بعض العادات الإسلامية الصحيحة مثل : عدم النواح فى المآتم وإقامة ختمات القرآن الكريم على أرواح موتاهم وعدم مطاردة الغريم اذا دخل المسجد أو دار الخطيب ، وعدم الظلم فهم أبعد الناس عنه وملوكهم لايسامحون أبدا من أرتكب ظلما وأداء فريضة الحج الى الأراضى المقدسة .

واخيراً: أتطلع أن تكون هذه الدراسة خطوة على الطريق الطويل من أجل تأكيد الهوية العربية الاسلامية لهذه المنطقة، التى كانت -وباستمرار- امتداد ثقافى وحضارى ودينى وعرقى للامة العربية الاسلامية.

والى الامام..

المصادر والمراجع

أولا : المصادر

أ) المصادر المخطوطة

1- الأرواني ، أحمد بابير . مخطوطة ، "السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تمبكتو البهية" ، رقم (16)، مالي ، مركز أحمد بابا التمبكتي.

2- الأرواني ، محمد محمود بن الشيخ سيدي بيكر ابن القاضي سيدي أحمد . مخطوطة ، "الترجمان في تاريخ الصحراء وبلاد السودان وبلد تنبكت وشنجيط وأروان ونبذة من تاريخ الزمان في جميع البلدان " ، رقم (760) ، تمبكتو - مالي : مركز أحمد بابا التمبكتي.

3- التمبكتي ، أحمد بابا ، "معراج الصعود الى نيل مجلوب السود" ، مخطوطة ، المعهد الموريتاني للبحث العلمي ، نواكشوط - موريتانيا.

4- التمبكتي ، أحمد بلعراف . مخطوطة ،"أهمية التاريخ" ، رقم (1430) تمبكتو: مركز أحمد بابا التمبكتي.

5- العمري ، ابن فضل الله . مخطوطة ، "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، فرانكفورت : معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية ، مج (4) ، 1988م.

ب) المصادر المطبوعة

1 ـ القرآن الكريم

2 ـ أبن أبى زرع . الانيس المطرب برمض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. (الرباط : 1973 م) .

3 ـ ابن الاثير . الكامل فى تاريخ ، راجعة مصححه : محمد يوسف الدقاق (بيروت : دار الكتاب العلمية) ، ج 8 .

4 ـ ابن بطوطه . تحقة النظار فى غرائب الامطار وعجائب الاسفار . (بيروت : دار الكتاب اللبنانى ، د ـ ت) .

5 ـ ابن حوقل . صورة الارض . (بيروت : دار مكتبة الحياة ، 1979 م) .

6 ـ ابن خلدون . التعرف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . تحقيق : محمد بن تاويت الطنجى. (القاهرة: نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1951م).

7 ـ ابن خلدون . العبروديوان المبتدا والخبر فى اخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من دوى السلطان الاكبر . (بيروت : مؤسسة عبدالكريم للطباعة والنشر ، 1979 م) ، ج 6، 7 .

8 ـ ابن عبدالحكيم . فتوح مصر واخبارها (بغداد : مكتبة المثنى ، د ـ ت) .

9 ـ ابن فودى . انفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكروم . (القاهرة : دار مطابع الشعب ، 1383 هـ/1964 م) .

10ـ ابوالفداء . تقويم البلدان . (باريس دار الطباعة السلطانية ، 1850 م) .

11ـ الادريسى . نزهة المشتاق فى اختراق الافاق .(القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، د ـ ت) .

12ـ الاصطخرى. المسالك والممالك . (القاهرة : مطبعة الحسينى ، 1961 م).

13ـ البرتلي. فتح الشكور في معرفة اعيان علماء التكرور ، تحقيق : محمد ابراهيم الكتاني ومحمد حجي.(بيروت:دار العرب للاسلامي ، 1981م).
14ـ البكرى . المغرب فى اخبار افريقيا والمغرب وهو جزء من موسوعة المسالك والممالك. (الجزائر : المطبعة الحكومية ، 1858 م) .
15ـ التلمساني . تقم الطيب فى اغصان الاندلس الطيب،تحقيق : أحسان عباس. (بيروت دار صادر ، 1968م) ، ج 5 .
16ـ التمبكلتي . نيل الابتهاج يتطرير السياج . أشراف وتقديم عبدالحميد الهرامة. (طرابلس : كلية الدعوة الاسلامية ، 1989م) .
17ـ الحموى . معجم البلدان . (بيروت : دار صادر ، د ـ ت) ، ج 8 .
18ـ السعدى . تاريخ السودان . (انجى فرنسا : طبعة هوداس ، 1898م) .
19ـ السلاوى الناصرى . الاستقضاء لأخبار دول المغرب الاقص، تحقيق وتعليق: محمد الناصرى وجعفر الناصرى . (الدار البيضاء : دار الكتاب ، 1955م) .
20ـ الغرناطي . تحقة الالباب . (نشر الجمعية الاسيوية 1950م) .
21ـ الفشتالي .مناهل الصفا فى مأثرموالينا الشرفاء،دراسة وتحقيق : عبدالكريم كريم . (الرباط : مطبوعات وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية والثقافية ، 1972م) .
22ـ القزويني . أثار البلاد واخبار العباد (بيروت : دار صادر ، د ـ ت) .
23ـ القلقشتدى . صبح الاعشى فى صناعة الانشاء . (القاهرة : المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، 1983م) ، ج 5 ، 8 .
24ـ كعت . تاريخ الفتاش فى اخبار البلدان والجيوش واكابر الناس . (باريس : نشر هو داس ، 1913 م) .

25- مجهول . الاستبصار فى عجائب الامصار نشر وتعليق : سعد زغلول عبد الحميد . (الدار البيضاء : دار النشر المغربية ، 1985م) .
26- مجهول . الحلل الموسية فى ذكر الاخبار المراكشية ، تحقيق : سهيل زكار وعبدالقادر زمامة. (الدار البيضاء : دار الرشاد الحديثة).
27- المقريزى . الذهب المسبوك فى ذكر من حجج من الخلفاء والملوك ، تحقيق جمال الدينالشيال . (القاهرة : مكتبة الخانجى ، 1955م) .
28- المقريزى . المواعظ والاعتبار بدكر الخطط والاثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، ط 2 .(القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، 1987م) ، ج 2 .
29- الوزان . وصف افريقيا ، ط 2 ، ترجمة: محمد صبحى ومحمد الاخضر. (بيروت : دار المغرب الاسلامي ، للتاليف والترجمة والنشر) ، ج 2 .
30- الوفرانى . نزهة الهادى فى اخبار ملوك القرن الحادى ، ط 2 . (الرباط : مكتبة الطالب ، 1988م) .
31- اليعقوبى . تاريخ اليعقوبى . (بيروت دار صادر ، د ـ ت) ، مج 1 .

ثانيا : المراجع

1- أبوبكر ، على . الثقافة العربية فى نيجريا ، 1950 - 1960م ، عام الإستقلال . (بيروت : مؤسسة عبدالحفيظ البصاط ، 1962م) .

2- أرنولد ، توماس . الدعوة الى الامام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون. (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، 1970م) .

3- أمين ، محمد محمد ." تطور العلاقات العربية الافريقية فى العصور الوسطى " محمود خيرى عيسى (المحرر) ، العلاقات العربية الافريقية ، دراسة تحليلية في ابعادها المختلفة ، (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، 1978م) .

4- أيوب ، محمد سليمان . " جرمة فى عصر ازدهارها من 100م الى 450م " ليبيل فى التاريخ . (بنغازى . كلية الاداب جامعة بنغازى 1968م) .

5- بوفيل . تجارة الذهب وسكان المغرب الكير ، ترجمة : الهادى ابولقمة ومحمد عزيز. (بنغازى : منشورات جامعة قاريونس ،1988م) .

6- الجمل ، شوقى . " دور العرب الحضارى فى افريقيا " ، رؤوف عباس أحمد (المحرر) ، العرب فى افريقيا : الجذور التاريخية والواقع المعاصر ، (القاهرة : دار الثقافة العربية ، 1407هـ 1987م) .

7- الجيدى ، عمر . محاضرات فى تاريخ المذهب المالكى فى المغرب الاسلامى : (الدار البيضاء : منشورات دار عكاظ ، 1987م) .

8- الجيلالى ، عبدالرحمن محمد . تاريخ الجزائر . (بيروت : 1965م) .

9- حركات،ابراهيم.المغرب عبر التاريخ .(الدار البيضاء : دار الرشاد الحديثة ، 1984م) ، ج2.

10- حسن ، حسن ابراهيم . انتشار الاسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى . (القاهرة : معهد البحوث والدراسات الافريقية ، 1957م) .

11- حسن ، حسن ابراهيم . انتشار الاسلام فى القارة الافريقية ،ط3. (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، 1957م) .

12- حسن ، يوسففضل ." الجذور التاريخية للعلاقات العربية الافريقية " (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، 1984م) .

13- حسن ، يوسف فضل . انتشار الاسلام فى افريقيا . (الخرطوم : مطبعة جامعة القاهرة ودار جامعة الخرطوم للنشر ، 1979م) .

14- حسين ، أحمد الياس ." دور الفقهاء الاباضيةفى اسلام مملكة مالى قبيل القرن الثالث عشر الميلادى" ندوة العلماء الافارقة ومساهمتهم فى الحضارة العربية الاسلامية . الخرطوم 1983م) .

15- حسين ، احمد الياس " سلع التجارة الصحراوية " ، الصحراء الكبرى ، ترجمة ، عماد غانم (طرابلس: منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، سلسة الدراسات المترجمة ، 1979م).

16- دندش ، عصمت عبداللطيف . دور المرابطين فى نشر الإسلام فى غرب افريقيا .(بيروت : دار الغرب الاسلامى ،1988م) .

17- دافدسن، بازل .افريقيا تحت أضواء جديدة ، ترجمة: جمال أحمد.(بيروت: دارالثقافة، 1961م).

18- ديشان ، هوبير. الديانت فى افريقيا السوداء ، ترجمة : أحمد صادق (القاهرة : دار الكتاب المصرى ، 1965م) .

19- زكى ، عبدالرحمن . الاسلام والمسلمون فى غرب افريقيا .(القاهرة : مطبعة يوسف ، د-ت)

20- زكى ، عبدالرحمن .تاريخ الدول الاسلامية السودانية بافريقيا الغربية .
(القاهرة : المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ،1961م) .
21- زيادية، عبد القادر . الحضارة العربية والتأثير الاوربى ، دراسات ونصوص.
(الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1989م) .
22- زيادية ، عبدالقادر . مملكة سنغاى فى عهد الاسيفيين 1493-1592م.
(الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،د-ت) .
23- سالم ، السيد عبدالعزيز . المغرب الكبير فى العصر الاسلامى .(القاهرة :
الدار القومية للطباعة والنشر ، 1966م) .
24- ستودارد ، لوثروب . حاضر العالم الاسلامى ، ترجمة عجاج نويهض ،
تعليق الامير شكيب أرسلان . (بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر
والتوزيع ، 1973م) .
25- شتريتر ، كارل . الرسوم الصخرية كمصدر تاريخى للصحراء الكبرى ،
ترجمة: عماد غانم (طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ،
سلسلة الدراسات المترجمة ، 1979م) .
26- الشرقاوى ، محمود . رحلة مع ابن بطوطة : من طنجة الى الصين
والاندلس وافريقيا. (القاهرة : 1987م) .
27- شلبى ، احمد . موسوعة التريخ الاسلامى . (القاهرة :مكتبة النهضة
المصرية 1978م)،ج6.
28- الشيخلى ، صباح ابراهيم . " النشاطات التجارية عبر الطريق الصحراوى
حتى نهاية القرن الخامس الهجرى " ، تجارة القوافل ودورها الحضارى
حتى نهاية القرن 19م ، (بغداد : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،
معهد البحوث والدراسات العربية ، 1984م) .

29- صابر، محى الدين ، العرب وافريقيا ، العلاقات الثقافية.(بيروت : المكتبة العصرية ،1987م).

30- صقر ، احمد . مدينة المغرب فى التاريخ . (تونس : دار بوسلامة للنشر ، د-ت) ، ج1 .

31- طرخان ، ابراهيم على . امبرطورية البرنو الاسلامية ، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، 1975م) .

32- طرخان ، ابراهيم على . إمبراطورية غانة الاسلامية ، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، 1970م) .

33- طرخان ، ابراهيم على . الاسلام واللغة العربية فى السودان الغربى والاوسط. (القاهرة : الهيئة العامة للتأليف والنشر ، 1969م) .

34- طرخان ، ابراهيم على . دولة مالى الاسلامية ،(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1973م) .

35- الطيبى ، امين توفيق . دراسات وبحوث فى تاريخ المغرب والاندلس ، (ليبيا - تونس : الدار العربية للكتاب ، 1984م) .

36- عاشور ، سعيد عبدالفتاح . العصر المماليكى فى مصر والشام . (القاهرة : دار النهضة المصرية ، 1965م) .

37- العبادى ، أحمد مختار . فى تاريخ والأندلس . (بيروت : دار النهضة العربية للطباعة والنشر 1983م) .

38- عبدالله ، عبدالعزيز . الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية ، معلمة الصحـراء . (الرباط : مطبعة فضالة ، 1976م) .

39- عبدالله ، عبدالعزيز. تاريخ الحضارة المغربية ، (دار السلمى ، 1962م) .

40- العربى ، اسماعيل . الصحراء الكبرى وشواطئها .(الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب 1983م) .

41- عنان ، محمد عبدالله . عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1964م) .

42- عنان ، محمد عبدالله . نهاية الاندلس ، (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1964م) .

43- عمار، محمد . العرب والتحدى . (بيروت : دار الشروق ، 1991م) .

44- عوض الله ، الشيخ الامين . العلاقات بين المغرب الاقص والسودان الغربى فى عهد السلطنتين الاسلاميتين : مالى وسنغاى . (جدة : دار المجمع العلمى ، 1979م) .

45- العزبى ، محمد . بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى . (بغداد : دار الرشيد للنشر ، 1982م) .

46- غوتيه ، أ . ف ماضى شمال افريقيا تعريب : هاشم الحسن . (طرابلس : مكتب الفرجانى).

47- قاسم ، جمال زكريا "الروابط العربية الافريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية " العلاقات العربية الافريقية ، دراسة للآثار السلبية للاستعمار، (القاهرة : المنظمة العربية للثقافة والعلوم والفنون ، 1977م) .

48- قاسم ، جمال زكريا . الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ، (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، 1975م) .

49- قداح ، نعيم . افريقيا الغربية فى ظل الاسلام ، ط2 .(الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . 1974م) .

50- الكتانى ، يوسف . مدرسة الامام البخارى فى المغرب ، ج2 . (بيروت : دار لسان العرب ، د-ت) .

51- مارتى ، بول . البرابيش (بنوحسان) ، تعريب محمد محمود ولد ودادى . (دمشق : مطبعة زيد بن ثابت ، 1985م) .

52- مارتى ، بول . كنته الشرقيون ، ترجمة وتعليق : محمد محمود ودادى . (دمشق : مطبعة زيد بن ثابت ، 1985م) .

53- محمد ، محمد عوض . الشعوب والسلالات الافريقية . (القاهرة : الدار المصرية للتاليف والنشر ، 1965م) .

54- محمود ، حسن أحمد . الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، ط3.(القاهرة : دار الفكر العربى ، 1986م) .

55- محمود،حسن أحمد.قيام دولة المرابطين.(القاهرة:دار الفكر العربى، 1956).

56- مقلد ، محمد يوسف . شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون .(الدار البيضاء : مكتبة الوحدة العربية ، 1962م) .

57- مؤنس ، حسين . ابن بطوطه ورحلاته . (القاهرة:دار المعارف ، د-ت).

58- النحوى ،الخليل .شنقيط المنارة والرباط .(تونس : المنظمة العربية للعلوم والثقافة ، 1987م).

59- يونس ، ابراهيم صالح . تاريخ الاسلام وحياة العرب فى امبراطورية كانم - بورنو،(جامعة الخرطوم،كلية الآداب، شعبة أبحاث السودان ، 1970م).

ثالثا : الرسائل الجامعية

1- التكيتك ، جميلة امحمد . مملكة سنغاى الاسلامية فى عهد الاسكيا محمد الكبير 1493-1528م رسالة ماجستير غير منشورة ، (طرابلس : جامعة الفاتح ، كلية العلوم الإجتماعية التطبيقية ، 1991م) .

2- السراج ، زين العابدين عبدالحميد . دولة كانم الإسلامية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، (جامعة القاهرة ، كلية الاداب ، 1975م) .

3- النقر، عمر عبد الرزاق. الحج فى غرب افريقيا، دراسة تاريخية باشارة خاصة للقرن التاسع عشر الميلادى ، ترجمة : صفيه صالح عيسى . جامعة الخرطوم ، كلية الأداب وحدة الترجمة والتعريب مرقونه على الآلة الكاتبه .

4- حسين ، أحمد الياس . الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر الميلادى كما عرضها الجغرافيون العرب ، رسالة لنيل درجة الماجستير فى التاريخ الإسلامى ، غير منشورة (جامعة القاهرة ، كلية الآداب ، 1977م) .

5- عابدين ، أحمد فتوح . الحواضر الإسلامية فى غرب افريقيا فى القرنين السادس والسابع عشر ، تاريخها السياسى والحضارى والاقتصادى ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة فى التاريخ الحديث من معهد البحوث والدراسات الافريقية .(جامعة القاهرة ، 1989م) .

6- عبدالقادر ، صالح السبانى . مملكة كانم - بورنو وعلاقاتها بأقطار الشمال الافريقى من القرن الثالث الى العاشر الهجرى (القرن التاسع الى السادس عشر الميلادى) ، رسالة ماجستير غير منشورة . (الرباط :جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانسة ، 1988-1989م.

7- نورالدين ، عبدالقادر صالح ."علاقات فزان بكانم بين 3-7 هـ/9-13م " ، رسالة ماجستير غير منشورة (طرابلس : جامعة الفـاتح ، كليـة التربيـة ، قسم التاريخ ، 1986م) .

8- هاشم ، زينب أحمد على . علاقة مصر بالدول الإسـلامية فـى حـوض نهـر النيجر . رسالة ماجستير غير منشورة (القاهرة : جامعة القاهرة ، معهـد البحوث والدراسات الإفريقية).

رابعا : الدوريات

1- العبادى ، أحمد مختار ." الصفحـات الأولى مـن تـاريخ المرابطـين " ، : مجلـة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، مج 21 :(1967م) .

2- الزهواء ، اخوان ."الوجود الاجنبى البرتغالى وبعض عواقبه فى القرن 16م" ، مجلة المؤرخ العربى ، بغداد :31(1987م) .

3- الفيتورى ، أحمد سعيد ."الجاليات العربية المبكرة فى بلاد السـودان ، دراسـة أولية وبعض الملاحظات" ، مجلـة البحـوث التاريخيـة ، طرابلـس: مركـز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ،2:3 (1981م) .

4- بليغ ، أحمد فؤاد ."عبدالرحمن السعدى ، عصـره وكتابـه " ، المجلـة التاريخيـة المصرية ، القاهرة 20(1973م) .

5- بوعزيز ، يحى .المراحل والأدوار التاريخية لدولة بنى عبدالواد والزيايتية . مجلة الأصالة ، الجزائر : 26:4 (1395هـ 0 1975م) .

6- زيادية ، عبدالقادر ."التلمسانى محمد بن عبدالكريـم المغيلـى ، بعـض آثـاره وأعماله فى الجنوب الجزائرى وبلاد السودان "، مجلة الأصاله ، الجزائر : 26:4 (1975م) .

7- عبدالله ، ددود ." دور الشناقطة فـى نشرَ الثقافـة العربيـة الإسـلامية بغـرب افريقيا حتى نهايـة القـرن 18 للميـلاد " ، نواكشـوط : حوليـات كليـة الآداب والعلوم الإنسانية 1(1989م) .

8- فرسخ ، عونى .الأقليات فى الوطـن العربـى : تراكمـات المـاضى وتحديـات الحاضر واحتمالات المستقبل ، المستقبل العربى ، 1989:1م.

9- فضل الله ، قمر الديـن محمـد ."لمحة تاريخيـة عـن مملكـة سـنغاى الإسـلامية، 1468-1591م "،مجلة كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس: 4 (1987م) .

10- كانى ، أ.م. " مظاهر الاتصالات الفكرية بين شمال افريقيا ووسط السودان بين سنة 700م و1700م " مجلة البحوث التاريخية ، 1(1981م) .

11- مزين ، محمد ."المغرب وبلاد السودان خلال القرنين 16-17 الميلاديين " ، المؤرخ العربى ، بغداد : 31 (1987م) .

12- مصطفى ، صلاح الدين عبدالهادى ."اسهام المرابطين فى نشر الاسلام فى الشمال الافريقى والسودان الغربى"، المؤرخ العربى ، بغداد : 12: 31 (1987م).

خامسا : المراجع الأجنبية

1-Barth ,H.:Travals and discoveries in North and Central Africa , Vol I V , (London , 1858).

2- Blyden , W : Christianity , Islam and The Negro Race .(London , 1881).

3- Cuoq : J.Histoire de l` Islamsation de l`Afrique des L`ouest, Paris,1984).

4- Dubois , F : Tombouctou , l`mysterieuse,(Paris , 1890).

5- Fage ,J.D: Introduction to the History of West Africa,(Cambridge, 1959.)

6- Herskovits , M:" Apreliminary Consideration of Culture Areas of Africa", American Antropologists, 26, 1926.

7- Hunwick, J: " Ahmed Baba and Moroccan invastion of the Sudan (1591) "Journal of the Historical Society of Nigeria, (J H S N) 1962,II No 3.

- Hunwick ,J.O. "Religion and State in Songhay Empire 1464-1591 ", in Islam in Tropical Africa, edited by 1.M Lewis , (Oxford University Press , 1966).

9- Mauny ,R. Tableau Geogrphique de l`ouest Africa au Moyen ages , (Dakar,1961).

10- Oliver , R: The Cambridge history of Africa , Vol,3.

11- Sauvaget , J. "les Epitaphes Royales de Gao" Bult Efan . XII , 1950.

12- Trimingham , J.S. A history of Islam in West Africa , (London , 1970).

- Triminghm , J.S. : " The Phases of Islamic Expansion and Islamic Culture Zones in Africa", Islam in Tropical Africa , ed, I .M , Lewis , (Oxford University Press , 1966).

الملحق رقم (1) نموذج من مخطوطة: مسالك الابصار من ممالك الامصار لابن فضل الله العمري، الجزء الرابع.

اعلم ان هذه المملكة في جنوب الغرب متصلة بالبحر المحيط وقاعدة
الملك بها مدينة بيتي وهذه المملكة شديدة الحر قشفة المعيشة
قليلة انواع الاقوات واهلها طوال في غاية السواد وتفلفل الشعور
وغالب طول اهلها من سوء تصرفاتهم اكل ابدانهم وسلطانها الان اسمه سليمان
اخو السلطان موسى منسى بيده ما كان بيد اخيه ما فتحه من بلاد
السودان واضافه الى يد الاسلام وبنى به المساجد والجوامع والموادن
واقام به الجمع والجماعات والاذان وجلب الى بلاده الفقهاء من مذهب
الامام مالك رضي الله عنه وبقي بها سلطان المسلمين وتفقه في الدين وصاحب
هذه المملكة هو المعروف عند اهل مصر بملك التكرور ولو سمع هذا انف
منه لان التكرور انما هو اقليم من اقاليم مملكته والاحب اليه ان يقال
صاحب مالي لانه الاقليم الاكبر وهو به اشهر وهذا الملك هو اعظم
ملوك السودان المسلمين واوسعهم بلادا واكثرهم عسكرا
واشدهم باسا واعظمهم مالا واحسنهم حالا واقهرهم للاعداء
واقدرهم على افاضة النعماء والذي تشتمل عليه هذه المملكة من الاقاليم
غانة وزافون وترنكا وتكرور وسنغانة وبانبغوا وزرنطابنا
وبيتزا ودموررا وزاغا وكابرا وبراغوري وكوكو
وسكان كوكو قبايل يرتان واقليم مالي الذي به قاعدة الملك مدينة
بيتي وكل هذه الاقاليم مضافة اليه والاسم المطلق عليه في هذه الاقاليم
كلها مالي قال عدة اقاليم هذه المملكة ذوات المدن والقرى والاعمال اربعة
عشر اقليما حدثني الشيخ الثقة الثبت ابو عثمان سعيد الدكالي
وهو ممن سكن بمدينة بيتي خمسة وثلاثين سنة واضطرب في هذه المملكة
انها مربعة طولها اربعة اشهر او يزيد وعرضها مثل ذلك تحت جنوب
مراكش وداخل بر العدوة جنوبا بغرب الى البحر المحيط وطولها من نول الى كوكو

وهي في المحيط وجميعها مسكونة الا ما قل وان في طاعة سلطان
هذه المملكة بلاد مفازة الذهب يحملون اليه التبر في كل سنة وهم
كفار همج ولو شاء اخذهم ولكن ملوك هذه المملكة قد جربوا انه ما فتح
منهم احد مدينة من مدن الذهب ونشا بها الاسلام ونطق بها داعي
الاذان الا قل بها وجود الذهب ثم يتلاشى حتى يعدم ويزداد فيما
يليه من بلاد الكفار فانهم لما صح هذا عندهم على التجريب ابقوا بلاد
التبر بايدي اهلها الكفار ورضوا منهم بذلك الطاعة وخراج مقرر
عليهم وليس في مملكة صاحب هذه المملكة من يطلق عليه اسم ملك
الا صاحب غانة وهو كالنايب له وان كان ملكا وفي شمال بلاد
مالي قبايل من البربر بيض تحت حكم سلطانها وهم بنيغمر وبنيفراس
ومدوسة ولمتونة ولهم اشياخ تحكم عليهم الا بني يغمر فانه يتداولهم ملوك منهم تحت حكم صاحب مالي وكذلك في طاعته
قوم من الكفار ومنهم من يأكل لحوم بني ادم ومنهم من اسلم ومنهم من هو
باق في هذا ما نذكره في موضعه ومدينة بيتي ممتدة طولا وعرضا
يكون طولها بريد في تقدير عرضها كذلك لا يحيط بها سور واكثرها متفرق
وللملك عدة قصور يحيط بها سور دائر وفرع من النيل يستدير
بهذه المدينة من جهاتها الاربع وفي بعضها يخاض فيه عند قلة الماء
وفي بعضها لا يعبر الا بالمراكب وبناء هذه المدينة بالباب بالطين مثل
جدران بساتين دمشق وهو انه يبنى بقدر ثلثي ذراع بالطين ثم
يترك حتى يجف ثم يبنى عليه مثله ثم يترك حتى يجف ثم يبنى عليه مثله
هكذا حتى ينتهي وسقوفها بالاخشاب والقصب وغالب سقوفها
قباب او جملونات كالاقباء وارضها تراب مرمل وشرب اهلها من
النيل والآبار محتفرة وجميع هذه البلاد مخضرة مخصبة وجبالها ذوات

الملحق رقم (2) نموذج من مخطوطة: الترجمان من تاريخ الصحراء

ميلاد السودان.

لمحمد محمود الارواني، رقم 760 مركز أحمد بابا - تمبكتو - مالي.

الملحق رقم (3) نموذج من مخطوطة معراج الصعود إلى نيل مجلب السود لأحمد بابا التميكتي. المعهد الموريتاني للبحث العلمي نواكشوط - موريتانيا.

الملحق رقم (4) أهم الطرق التي ربطت شمال أفريقيا بغربها.

المرجع: حسن إبراهيم حسن، انتشار الاسلام في افريقيا، ص 23

تؤكد المصادر التاريخية أن التواصل والتمازج والتلاقح بين المناطق المعروفة حالياً بالوطن العربي ، وبين افريقيا ماوراء الصحراء ، قد أبتدأت منذ عصور زمنية مبكرة جداً . حيث أنطلقت الهجرات العربية من شبه الجزيرة العربية ، مهد العروبة ، متجهة غرباً عن طريق باب المندب وبرزخ السويس الى مصر وعموم منطقة الشمال الافريقي . فإنه من المنطقي أن تنساح هذه القبائل المهاجرة ، والتى سكنت الشمال الأفريقى الى مناطق ماوراء الصحراء المصاقبة لها من الناحية الجنوبية ، وذلك تحت ضغط الظروف المختلفة .

وقد عبرت هذه الهجرات المتعاقبة الصحراء الكبرى التى لم تكن في يوم من الأيام عائقاً للتواصل الحضارى بين المنطقتين ، بل كانت منافذها ومسالكها وطرقها ومفازاتها جسراً للقوافل التجارية التى ظلت تجوب جانبيها منذ قرون عديدة .

وقد عبّرت صحبة هذه الهجرات المؤثرات العربية الاسلامية شارحة : السياسية ، الاقتصادية ، الثقافية والاجتماعية .

وبذا صارت هذه المنطقة امتداد ثقافي وحضاري وديني وعرقي للامة العربية الاسلامية وهذا ما يدرجه هذا الكتاب .

توزيع

دار الرواد

ذات العماد برج 4 - هاتف + فاكس : 75593

ص.ب.: 91969 - طرابلس ـ الجماهيرية